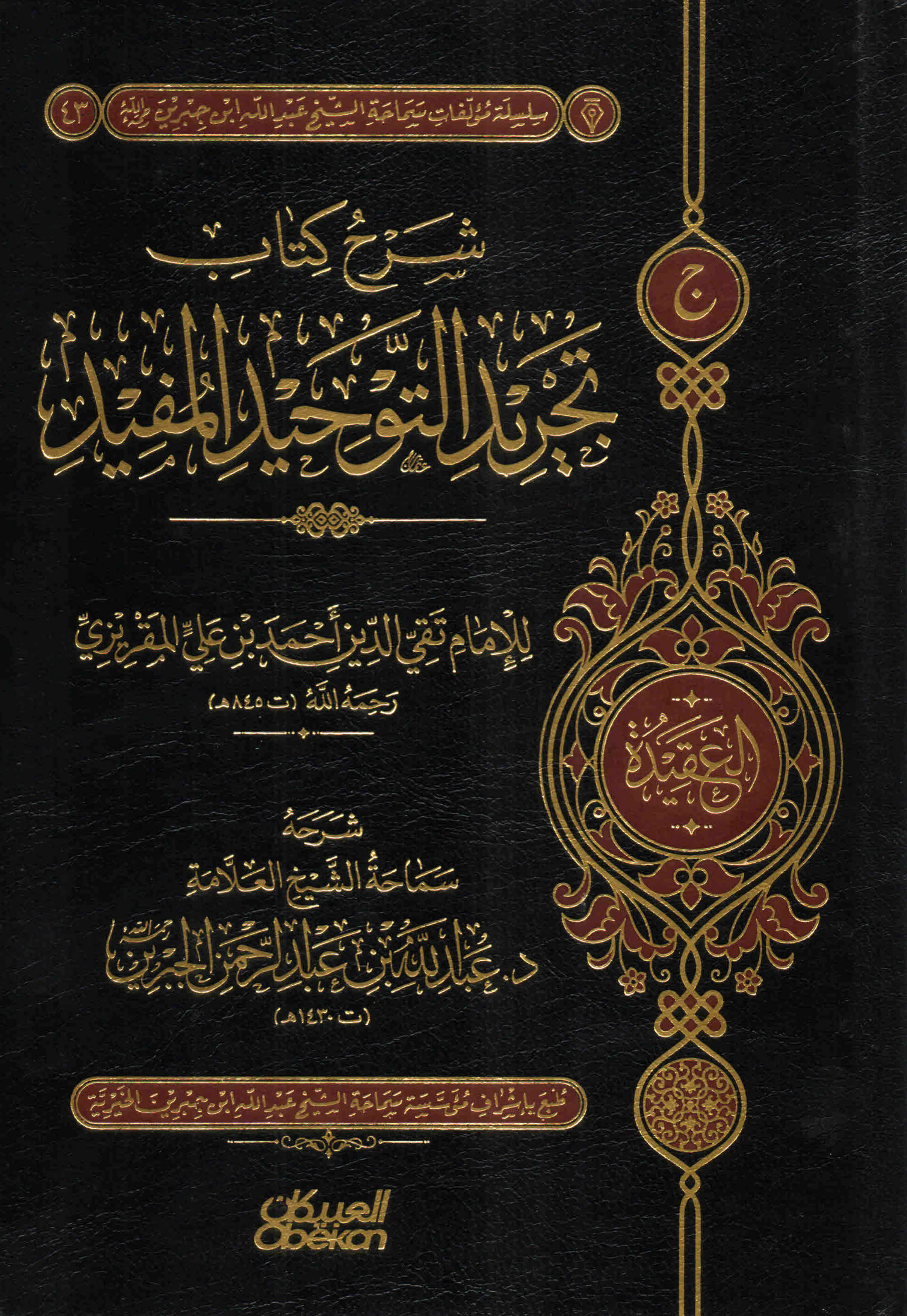

سلسلة مؤلفات سماحة الشيخ عبد الله ابن جبرين رحمه الله
٤٣
شرح كتاب
تجريد التوحيد المفيد
للإمام تقي الدين أحمد بن علي المقريزي
رحمه الله (ت ٨٤٥هـ)
شرحه
سماحة الشيخ العلامة
د. عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رحمه الله
(ت ١٤٣٠هـ)
طبع بإشراف مؤسسة سماحة الشيخ عبد الله ابن جبرين الخيرية
العقيدة
العبيكان
obekan

ح مؤسسة ابن جبرين الخيرية، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجبرين؛ عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله

شرح كتاب تجريد التوحيد المفيد./ عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله الجبرين؛ - الرياض، ١٤٤٣هـ

٣٠٨ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم

ردمك: ٧-٥٥-٨٢٢٤-٦٠٣-٩٧٨

١- العقيدة الإسلامية ٢- التوحيد أ. العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٤٣/١١٤٩

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م



مؤسسة ابن جبرين الخيرية
Ibn Jebreen Foundation

المملكة العربية السعودية
ص.ب: ٣٣٥ الرياض ١١٤١١
هاتف: ٤٢٦١٠٠٠ ١١ ٩٦٦+، فاكس: ٤٢٦٣٧٠٠ ١١ ٩٦٦+
جوال ١: ٥٦٠٠٨٠١٠٠ ٩٦٦+، جوال ٢: ٥٠٦١٦١٥٠٠ ٩٦٦+
www.ibn-jebreen.com
info@ibn-jebreen.com

توزيع:

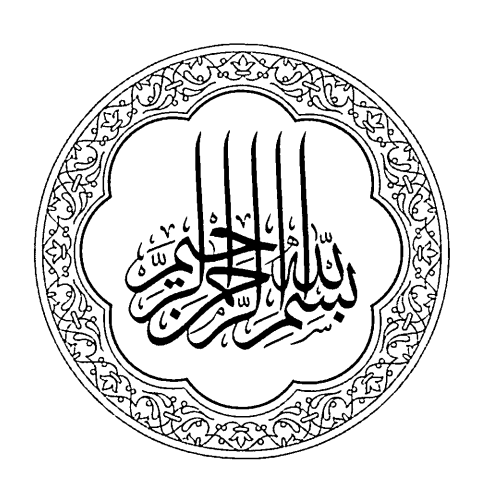
العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية-الرياض
طريق الملك فهد-مقابل برج المملكة
هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦+، فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ١١ ٩٦٦+
ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧





أسهم في طباعته بعض محبي الشيخ رحمه الله ليباع بسعر تشجيعي فجزاهم الله خيرًا


بسم الله الرحمن الرحيم



مُقَدِّمَة المؤسَّسة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن المقصد الأكبر والغاية العظمىٰ من خلق الجن والإنس، وإنزال الكتب وإرسال الرسل، هو: توحيد الألوهية.

يقول الشيخ عبد الرحمن السَّعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ: (أعظم الأصول التي يقررها القرآن ويبرهن عليها: توحيد الألوهية والعبادة، وهذا الأصل العظيم أعظم الأصول علىٰ الإطلاق، وأكملها وأفضلها، وأوجبها وألزمها لصلاح الإنسانية، وهو الذي خلق الله الجن والإنس لأجله، وخلق المخلوقات وشرع الشرائع لقيامه، وبوجوده يكون الصلاح وبفقده يكون الشر والفساد)[١].

ومما يدل علىٰ أهمية توحيد الألوهية: أنه هو التوحيد الذي أرسل الله به الرسل، واتفقت دعوتهم -من أول رسول بعثه الله حتىٰ خاتمهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- علىٰ البدءِ بدعوة أقوامهم إليه، بإخلاص العبادة لله وحده، ونبذ

---

(١) القواعد الحسان، للسعدي (ص١٩٢).

الشرك بكل صوره وأسبابه ووسائله المؤدية إليه؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ولأهمية هذا النوع من التوحيد كان اهتمام الأئمة والعلماء بالتصنيف فيه، ومنهم: الإمام المَقْرِيزِي؛ فقد أَلَّف فيه هذا الكتاب، وهو من أنفع الكتب وأفضلها في التوحيد، ولعله أول كتاب أُفْرِدَ في توحيد الإلهية.

وقد اعتنىٰ العلماء من بعده بهذا الكتاب شرحًا وتوضيحًا، ومنهم: سماحة الوالد الشيخ العلامة عبد الله ابن جبرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فقد شرح هذا المتن المبارك في الدورة العلمية الصيفية الخامسة بجامع الشيخ عبد الله الراجحي بحي شُبرا في مدينة الرياض، في عام ١٤٢٦هـ.

ولحرص مؤسَّسة ابن جِبْرِينَ الخيريَّة علىٰ إخراج تراث الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ نشرًا للعلم، وخدمة لطلَّابه، ترجو الثواب من الله تعالىٰ، ثم نَفْعَ المسلمين، تولَّىٰ قسم البحث العلمي وقسم النشر فيها إعداد هذا الشرح؛ لما فيه من النفع العميم، والخير العظيم.

وهذهِ نبذةٌ موجزةٌ عن منهجِنَا في إخراجِ كتبِ الشيخِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتحويلَهَا من مادَّةٍ مسموعةٍ إلىٰ نصٍّ مقروء، وهي عمليَّةٌ قد تكونُ عسيرةً أحيانًا؛ فلا يَخفىٰ أن المادةَ الصوتيةَ الملقاةِ يعْتَريها ما لا يعْتَري المصنَّفاتِ التي قُصدت بالتأليفِ وحرَّرها مؤلفُوها وانْتَقوا ألفاظَهَا، إلا أنَّ أسلوبَ الشيخِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وطريقته في الشرح سهَّلت مُهِمَّتنا كثيرًا.

ومِنْ أبرزِ ما قمنا به ما يلي:

- تحريرُ النصِّ بحذفِ المكرَّر، وتعديلِ العبارات الخطابيَّة إلىٰ عباراتٍ تتناسبُ مع كتابٍ مقروء، ورَبْطِ الشَّرح بالمتن، وغير ذلك مما يحتاجه العمل العلمي في مثل هذه المادَّة.
- مراجعةُ الكتاب وضبطُهُ لُغَوِيًّا، ووضعُ علامات الترقيم اللازمة، ونحو ذلك.
- تخريجُ الآياتِ والأحاديثِ والآثارِ الواردةِ في الشرح.
- توثيقُ المسائلِ والنقولاتِ بعزوِهَا إلىٰ المصادرِ المعتمدةِ.
- وضْعُ فهارسَ فنيَّة للآياتِ والأحاديثِ والآثار والموضوعاتِ.

وقد اعتمدنا في المتن علىٰ نسخة دار عالم الفوائد، تحقيق: الشيخ علي العِمْرَان[1]، ونسأل الله السداد والقبول.

وختامًا: نسأل الله تعالىٰ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، موافقًا لمرضاته، نافعًا لعباده، وأن يجزيَ الماتن والشارح عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ويضاعفَ لهما المثوبة والأجرَ، ويُعْلِيَ درجاتِهما في المهديين؛ إنه سميع قريب.

كما نسأله سبحانه أن يَجْزيَ كلَّ من ساهم في العمل علىٰ هذا الكتاب من الباحثين والفنيين خير الجزاء، ونَخُصُّ بالشكر والدعاء: **فضيلة الشيخ أ.د سعد بن عبد الله الحميِّد حفظه الله**، وهو من أبرز طلاب

---

(١) ولعلها أحسن طبعات الكتاب، لكنَّنا استدركنا ما وقع فيها من خطأ من طبعتين أخريَيْن ذكرناهما في المراجع.

الشيخ الوالد رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيث تفضَّل بالاطِّلاع علىٰ هذا الشرح بعد انتهاء العمل فيه؛ فسدَّد العمل بآرائه القيِّمة، وملحوظاته المفيدة.

وصلَّىٰ الله وسلَّم وبارك علىٰ نبيِّنا محمد، وعلىٰ آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

قِسْمُ ٱلبَحْثِ ٱلعِلْمِيِّ فِي مُؤَسَّسَةِ ابْنِ جِبْرِينَ ٱلخَيْرِيَّةِ



ترجمة مختصرة للشارح سماحة الشيخ العلامة
د عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]

اسمه ونسبه:

هو الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن إبراهيم بن فهد بن حمد بن جبرين بن محمد بن عبد الله بن رشيد، من قبيلة بني زيد المعروفين في نَجْد، وأصلهم من مدينة شَقْرَاء، ثم نزح الكثير منهم إلىٰ كثير من المدن والقرىٰ ومنها مدينة القُوَيْعِيَّة.

مولده ونشأته:

وُلد الشيخ عام ١٣٤٩هـ، ببلدة مُحيرقة، إحدىٰ قرىٰ القويعية، التابعة لمنطقة الرياض، ونشأ في بلدة مُحيرقة وبلدة الرّين التابعة للقويعية، في أسرة علمية.

طلبه للعلم:

قرأ القرآن علىٰ والده الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين، وعلىٰ إمام جامع مُحيرقة وهو أحد أعمامه، واسمه: سعد بن عبد الله الجبرين، رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، فأتم الشيخ حفظ القرآن وتلقىٰ مبادئ العلوم وهو دون العشرين علىٰ والده رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيث تعلم الفرائض ومبادئ النحو والقراءة في كتب الحديث؛ مثل: «عمدة الأحكام»، و«الأربعين النووية»، ونحوها.

ثم في عام ١٣٦٧هـ بدأ بالدراسة علىٰ شيخه عبد العزيز الشِّثْرِيّ في المسجد وفي المنزل؛ فقرأ كثيرا من المتون في التوحيد والفقه والنحو

---

(١) ينظر: أعجوبة العصر، لابنه أ.د عبد الرحمن الجبرين، وأبي كما عرفته، لابنته هيا الجبرين، وسيرة الشيخ رحمه الله في موقعه علىٰ الإنترنت: http://www.ibn-jebreen.com

والحديث ونحوها، وقرأ في الشروح كـ «سبل السلام»، و«شرح الأربعين»، والصحيحين، وبعض السنن وكتب الآداب، وكثير من الكتب المطولة سردًا، واستفاد من ذلك كثيرًا.

ثم انتقل مع شيخه الشِّثْرِيّ إلىٰ الرياض في أول عام ١٣٧٤هـ، وانتظم في معهد إمام الدعوة الذي أُسس في ذلك العام، ولتميزه أُلحق بالقسم الثانوي، فكان متفوقًا.

ثم واصل في القسم العالي الذي انتهىٰ منه عام ١٣٨١هـ، وفي أثناء هذه المدة كان يحضر كثيرًا من دروس العلماء في الجامع الكبير بوسط الرياض.

وفي عام ١٣٨٧هـ -مع قيامه بالتدريس- دَرَس في المعهد العالي للقضاء، وأنهىٰ مرحلة الماجستير في عام ١٣٩٠هـ بتقدير جيد جدًّا، ثم سجل الدكتوراه في كلية الشريعة، وانتهىٰ منها عام ١٤٠٧هـ بتقدير ممتاز.

أبرز شيوخه:

١- الشيخ أبو حبيب: عبد العزيز بن محمد الشِّثْرِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان قاضيًا في بلدة الرّين.

٢- سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مفتي المملكة سابقًا.

٣- سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، مفتي المملكة سابقًا.

٤- الشيخ عبد الرَّزَّاق عفيفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٥- الشيخ محمد الأمين الشِّنْقِيْطِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قيامه بالدعوة والتدريس:

من أول أعماله في الدعوة أنه اختير مع البعثة الذين أُرسلوا للدعوة في الحُدود الشمالية للمملكة برئاسة شيخه عبد العزيز الشِّثْرِي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ في أوائل عام ١٣٨٠هـ لمدة ثلاثة أشهر.

وقد قام بالتدريس النظامي حينما عُين مُدرسًا في معهد إمام الدعوة عام ١٣٨١هـ، ثم في كلية الشريعة إلىٰ عام ١٤٠٢هـ.

كما قام الشيخ بالتدريس التطوعي في كثير من مساجد الرياض، وقام برحلات دعوية وعلمية إلىٰ غالب مدن المملكة، وسجلت له آلاف الساعات الصوتية.

فكان أول قيامه بالتدريس في حدود عام ١٣٦٧هـ؛ حيث قام بتعليم أبناء قريته الرّين القرآن ومبادئ القراءة والكتابة.

ودَرَّس في سنة ١٣٨٤هـ في «دار العلم»، وهي مدرسة خيرية في الرياض.

ودرَّس مدة طويلة طلاب مدرسة تحفيظ القرآن التي كان مديرها الشيخ محمد بن سِنَان، وأغلبهم من اليمن، وجنوب المملكة، فدَرَس كثير منهم عنده الكثير من المتون والشروح.

ودرَّس في الجامع الكبير بالرياض لما أنابه الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُٱللَّهُ، وكان جلوسه بعد المغرب أربعة أيام في الأسبوع.

كما درّس في منزله بحِلَّة الحَمَّادي في حي السّبَالَة، ثم نقل الدروس إلىٰ منزله في حي شُبرا لما انتقل إلىٰ هناك.

ودرّس في عدد من مساجد مدينة الرياض، منها: جامع الرَّاجحي في حي الرَّبْوَة، وجامع الملك خالد، وجامع شيخ الإسلام ابن تيميّة في حي سُلْطَانَة، ومسجد البَرْغَش، وغيرها، ثم جُمعت دروسه في آخر حياته في جامع الشيخ عبد الله الرَّاجحي في حي شُبرا.

الأعمال والمناصب التي شغلها:

١- التدريس في معهد إمام الدعوة من عام ١٣٨١هـ، واستمر في التدريس فيه نحو أربعة عشر عامًا، درّس فيها: الفقه والحديث والتفسير والتوحيد.

٢- التدريس في كلية الشريعة التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض من عام ١٣٩٥هـ، وكان يتولىٰ الإشراف علىٰ البحوث المتعلقة بالعقيدة، والإشراف علىٰ رسائل الماجستير والدكتوراه والمناقشة لبعضها.

٣- عضو إفتاء برئاسة البحوث العلمية والإفتاء بالرياض من عام ١٤٠٢هـ.

٤- الاشتراك في التوعية في موسم الحَجّ للإجابة علىٰ أسئلة الحُجاج.

٥- كما كان يسعىٰ رحمه الله في مساعدة المحتاجين والشفاعة لهم وقضاء حوائجهم.

تلاميذه:

تتلمذ علىٰ الشيخ وحضر دروسه جموع غفيرة من مختلف الفئات، أما طلاب العلم فكانوا من مختلف الجنسيات؛ فمنهم من حضر الدروس النظامية في معهد إمام الدعوة أو في كلية الشريعة، أو في المساجد والمنزل، وقد تولىٰ كثير منهم مناصب مرموقة، فمنهم:

١- الشيخ إبراهيم بن عبد الله الغَيْث، رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سابقًا.
٢- الشيخ سليمان بن عبد الله بن مهنا، رئيس المحكمة الكبرىٰ بالرياض سابقًا.
٣- الشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس إمام وخطيب المسجد الحرام والرئيس العام لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي.
٤- الدكتور عبد الله بن عبد الرحمن الشِّثْرِي، وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سابقًا.
٥- الدكتور سعد بن عبد الله الحُميد.
٦- الدكتور عبد العزيز بن محمد السَّدْحَان.
٧- الدكتور عبد المحسن بن عبد العزيز العَسْكَر.
٨- الدكتور عبد الله بن عبد العزيز العَنْقَرِيّ.
٩- الدكتور محمد بن حمد المَنِيْع
١٠- الشيخ عبد الله بن عامر.
١١- الشيخ أحمد بن عبد الرحمن المهنا.
١٢- الدكتور طارق بن محمد الخُويطر.

آثاره العلمية:

بلغت مؤلفات الشيخ المطبوعة في حياته أكثر من مائة وخمسين كتابًا، فمنها:

١- أخبار الآحاد في الحديث النبوي، وهي رسالته للماجستير، مجلد.

٢- تحقيق شرح الزَّرْكَشِيّ علىٰ مختصر الخِرَقِيّ، وهي رسالته للدكتوراه، سبع مجلدات.

٣- شرح الأربعين النووية، مجلد.

٤- الرياض الندية شرح العقيدة الطحاوية، خمس مجلدات.

٥- السبك الفريد شرح كتاب التوحيد، مجلدان.

٦- الدرر المبتكرات شرح أخصر المختصرات، أربع مجلدات.

٧- إبهاج المؤمنين شرح منهج السالكين، مجلدان.

٨- التعليقات الزكية علىٰ العقيدة الواسطية، مجلد.

٩- النقوش الذهبية علىٰ القلائد البرهانية، مجلد.

١٠- الإرشاد شرح لمعة الاعتقاد، مجلد.

وتقوم المؤسسة بالعمل علىٰ إخراج تراث الشيخ الذي يتوقع أن يزيد علىٰ مائتي مجلد.

وفاته:

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العشرين من شهر رجب من عام ١٤٣٠هـ، عن واحد وثمانين سنة، بعد أن ذَاع صِيته وانتشر علمه في أصقاع الدنيا، رحم الله الشيخ وغفر له، وتقبل جهوده وأعماله، وجعل ما قدَّم في ميزانِ أعمالِهِ.

ترجمة مختصرة لمؤلف المتن [١]

اسمه ونسبه:

تقي الدين، أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد، المَقْرِيزِي، البَعْلَبَكّيّ [٢] الأصل، ثم المصري المولد والدار والوفاة.

مولده:

قال المَقْرِيزِيُّ عن نفسه: (كانت مصر مسقط رأسي، وملعب أترابي ومجمع ناسي) [٣]، وقال تلميذه ابنُ تَغْرِي بَرْدِي [٤]: (مولده بعد سنة ستين وسبعمائة بسنيات)، وحدد ابنُ حجر السنة فقال: (مولد تقيّ الدين في سنة ست وستين وسبعمائة).

أسرته ونشأته:

تنحدر أسرته من مدينة بَعْلَبَكّ، وينتسبون إلىٰ حارة (المَقَارزة)، انتقل والده إلىٰ القاهرة طلبًا للعيش؛ لأن القاهرة كانت في تلك الفترة مركزًا علميًّا نشطًا يؤمها الناس طلبًا للعلم وغيره، يقول السِّيُوطِيُّ: (أصبحت محل سكن العلماء، ومحط الفضلاء) [٥].

---

(١) ينظر: إنباء الغُمر، لابن حجر (٤/ ١٨٧)، والمنهل الصافي، لابن تغري بردیٰ (١/ ٤١٥)، والضوء اللامع، للسخاوي (٢١/ ٢)، وشذرات الذهب، لابن العملد (٩/ ٣٧٠)، والبدر الطالع، للشوكاني (١/ ٧٩)، وهدية العارفين، لإسماعيل باشا (١/ ١٢٧)، والأعلام، للزركلي (١/ ١٧٧).

(٢) بَعْلَبَكّ: مدينة قديمة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، وقيل: اثنا عشر فرسخًا من جهة الساحل، ينظر: معجم البلدان (١/ ٤٥٣).

(٣) المواعظ والاعتبار (١/ ٥).

(٤) تَغْرِي بَرْدِي: بمعنىٰ: عطاء الله، أو: الله أعطىٰ، ينظر: النجوم الزاهرة (١١/ ٣٧٠)، والمنهل الصافي (٤/ ٣٥)، والأعلام (٨/ ٢٢٢)

(٥) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (٢/ ٩٤).

وأسرة المَقْرِيزِي تلك أسرة علمية دينية؛ قال السَّخَاوِيّ: (جده من كبار الْمُحدثين)[١]، أما أبوه فقد ولي بعض ولايات من متعلقات القضاة بالقاهرة، وولي التوقيع في ديوان الإنشاء، وكَفَلَ تعليمه جدُّه لأمه، قال ابنُ حجر: (نشأ نشأة حسنة، وحفظ كتابًا في مذهب أبي حنيفة؛ تبعًا لجده لأمه الشيخ شمس الدين بن الصائغ الأديب المشهور)[٢].

وجده هذا هو الذي قام بتحفيظه القرآن الكريم، وتعليمه، وتدريسه أصول المذهب الحنفي، وأرسله إلىٰ شيوخ عصره، فبدت عليه علامات النجابة والذكاء، ثم انكبَّ علىٰ الدرس والتحصيل حتىٰ أصبح عَلَمًا من أعلام عصره في تلك الحِقْبَة.

قال ابنُ حجر: (أحب اتباع الحديث فواظب علىٰ ذلك حتىٰ كان يتهم بمذهب ابن حزم، ولكنه كان لا يعرف به، ونظر في عدة فنون، وأولع بالتاريخ فجمع منه شيئًا كثيرًا وصنف فيه كتبًا، وسمع من شيوخنا وممن قبلهم قليلًا -كالطبردار-، وحدث ببعض مسموعاته، وكان لكثرة ولعه بالتاريخ يحفظ كثيرًا منه، وكان حسن الصحبة، حلو المحاضرة، وحج كثيرًا وجاور مرات)[٣].

مذهبه الفقهي وعقيدته:

كان أبوه وجده من الحنابلة[٤]، أما هو فكان حنفيَّ المذهب؛ لأنه

(١) ينظر: الضوء اللامع، للسخاوي (٢/ ٢١).
(٢) ينظر: إنباء الغُمر (٤/ ١٨٧).
(٣) ينظر: إنباء الغمر (٤/ ١٨٧-١٨٨).
(٤) ينظر: الضوء اللامع (٢/ ٢٢).

نشأ في رعاية جده ابن الصائغ، ثم تحوَّل[1] بعد وفاة والده سنة ٧٨٦هـ إلىٰ المذهب الشافعي.

أمَّا عقيدته: فهذا الكتاب شاهد بسلامة عقيدته، وأنه علىٰ منهج السلف في الاعتقاد، وثم نصوص كثيرة في كتابه (المواعظ والاعتبار)، تدل علىٰ عقيدته المبنية علىٰ منهج السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ[2].

وظائفه:

عمل المَقْرِيزِي بالدواوين، فكتب التوقيع بديوان الإنشاء، ثم ناب في الحكم، وأصبح إمامًا بجامع الحاكم.

كما اشتغل مُدرسًا للحديث في المدرسة المؤيَّدية، وتولىٰ الخطابة بجامع عمرو بن العاص، والإمامةَ بمدرسة السلطان حسن، ثم عيَّنه السلطان برقوق محتسبًا للقاهرة والوجه البحري سنة ٨٠١هـ، وكان هذا العمل من الأعمال المهمة في ذلك الوقت، اطلع من خلاله علىٰ أحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وعرف الأسعار والضرائب، والإجراءات الرسمية المتخذة بشأن تلك القضايا، ثم نثر ذلك في كتبه فأثرتها.

وسافر مع السلطان الناصر فَرَج بن برقوق سنة ٨١٠هـ إلىٰ دمشق، وولي بها وظائف، فباشر تدريس الحديث الشريف في مدرستي الإقبالية والأشرفية، وتولىٰ نظر وقف القلانسي، والبيمارستان النوري، وعرض عليه الناصر قضاء دمشق فرفض.

---

(١) كتب الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله فصلاً عن العلماء الذين تحولوا من مذهب لآخر، وذكر منهم المقريزي، ينظر: النظائر (ص١٤٦).

(٢) ينظر: المواعظ والاعتبار (٤/ ١٨٨ و١٩١ و١٩٢ و١٩٦ و١٩٧)، وغيرها.

قال السَّخَاوِيّ والشَّوْكَانِيّ رحمهما الله: (وحُمدت سيرته في مباشراته).

وسافر إلىٰ مكة للحج، ومكث هناك خمس سنوات، ظل فيها يدرِّس ويصنِّف، ثم رجع بعدها إلىٰ القاهرة، وسكن في حارته التي نشأ وترعرع فيها، وأضحت داره ندوة للعلم ومقصدًا للطلاب والعلماء.

قال السَّخَاوِيّ: (...ثمَّ أعرض عَن ذَلِك وَأقَام بِبَلَدِهِ عاكفا علىٰ الِاشْتِغَال بالتاريخ حَتَّىٰ اشْتهر بِهِ ذكره وَبعد فِيهِ صيته وَصَارَت لَهُ فِيهِ جملَة تصانيف) [1].

مكانته العلمية وأقوال العلماء فيه:

يُعدّ المَقْرِيزِي واحدًا من العلماء البارزين في المائة التاسعة، إذ بلغ منزلة فريدة، وأشاد به كبار العلماء؛ قال الحافظ ابن حجر: (له النظم الفائق، والنثر الرائق، والتصانيف الباهرة، وخصوصًا في تاريخ القاهرة... وكان حسَنَ الصحبة حلو المحاضرة).

وقال ابن تَغْرِي بِرْدِي: (شيخنا الإمام العالم العلامة المتقن، رأس المحدثين، وعمدة المؤرخين، وأتقن من حرَّر تاريخ الزمان، وأضبط من ألف في هذا الشان).

وقال الشَّوْكَانِيّ: (كان متبحرًا في التاريخ علىٰ اختلاف أنواعه).

---

(١) الضوء اللامع (٢/ ٢٢).

شيوخه:

سمع المَقْرِيزِي من كبار علماء عصره من أهل التاريخ والفقه والحديث والأدب، قال السَّخَاوِيّ عنه: (اشتغل كثيرًا وطاف على الشيوخ، ولَقِيَ الكبار، وجالس الأئمة فأخذ عنهم)، وقال: (قَرَأت بِخَطِّهِ أَن تصانيفه زَادَت علىٰ مِائَتي مجلدة كبار وَأَن شُيُوخه بلغت سِتّمائَة نفس)، ومن أبرزهم:

١- جده لأمه: شمس الدين، محمد بن عبد الرحمن ابن الصائغ النحوي الحنفي.

٢- برهان الدين الآمدي، ت٧٩٧هـ.

٣- سراج الدين البلقيني، ت٨٠٥هـ.

٤- الحافظ زين الدين العراقي، ت٨٠٦هـ.

٥- الحافظ الهيثمي، ت٨٠٧هـ.

تلاميذه:

كان المَقْرِيزِي عارفًا بالتاريخ والفقه والحديث، وغيرها، وقد اكتملت علومه، وانتشرت تآليفه، وذاع صيته بين طلبة العلم، فرحلوا إليه من كل حدب وصوب؛ فمنهم:

١- يوسف بن تغري بردي، ت٨٧٤هـ؛ وهو من أبرز تلاميذه.

٢- ابن ظهيرة، وجيه الدين، عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر، الْقرشِي الْيَمَانِيّ ثمَّ الْمَكِّيّ، ت٨٤٩هـ.

٣- ابـن ظهيرة، عبد اللَّطِيف بن عبد الرَّحْمَن بن أبي بكر، أَبُو السعادات الْقرشِي الْحَنْبَلِيّ، ت٨٥٠هـ.

٤ - قاسم بن قُطْلُوبُغَا، ت٨٧٩هـ.

مصنفاته:

يعد المَقْرِيزِي من المؤلفين الموسوعيين الذين أثروا المكتبة الإسلامية، وسبق قول السخاوي: (قَرَأت بِخَطِّهِ أَن تصانيفه زَادَت علىٰ مِائَتي مجلدة كبار...)، والغالب علىٰ مصنفاته التاريخ، ومن أشهرها:

١ - إمتاع الأسماع بما للنبيّ من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع.

٢- الدرر المضيَّة في تاريخ الدولة الإسلاميَّة.

٣- المقفَّىٰ الكبير.

٤ - درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة.

٥ - عقد جواهر الأسفاط في تاريخ مدينة الفُسطاط.

٦ - اتعاظ الحُنفا بأخبار الفاطميين الخُلفا.

٧- السلوك لمعرفة دول الملوك.

٨- تجريد التوحيد المفيد، وهو هذا الكتاب المشروح الذي نقدِّمه للقراء.

٩- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار؛ في تاريخ مصر.

وفاته:

توفي المَقْرِيزِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في القاهرة، عصر يوم الخميس، السادس عشر من شهر رمضان المبارك سنة ٨٤٥هـ، عن ثمانين سنة، ودفن في مقبرة الصوفية البيبرسية، خارج باب النصر بالقاهرة، وقال عنه السَّخَاوِيّ:

مَا زِلْتَ تَلْهَجُ بِالأَمْوَاتِ تَكْتُبُهَا
حَتَّىٰ رَأَيْتُكَ فِي الأَمْوَاتِ مَكْتُوبَا





المقدِّمة

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد خاتم النبيين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فهذا كتاب جمُّ الفوائد، بديع الفرائد، ينتفع به من أراد اللهَ والدارَ الآخرةَ، سميته: (**تجريد التوحيد المفيد**)، واللهَ أسأل العون علىٰ العمل به بمنِّه].

الشَّرح

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ محمد، وعلىٰ آله وصحبه، وبعد.

فهذه الرسالة مفيدة في بابها، ومدارها علىٰ: توحيد العبادة، وهو الذي أُرْسِلَتْ من أجله الرسل، واتفقت عليه دعوتهم، وهو توحيد الله تعالىٰ بأفعال العباد، وقد يذكر المؤلف شيئًا من توحيد الذات أو توحيد الصفات من باب المناسبة ونحوها.

ومؤلِّفها شافعيُّ المذهب، مصريُّ النشأة والوفاة، له كتاب كبير سمَّاه: (الخِطَط)[(١)]، تكلَّم فيه عن الأعلام والولايات والآثار التي في مصر باستفاضة تدل علىٰ مكانته في هذا العلم.

---

(١) اسمه: (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار)؛ وهو مطبوع عدة طبعات، أحسنها الطبعة التي حقَّقها الدكتور أيمن فؤاد سيد ونشرتها، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

ويظهر أنه شاهد بعض الشركيَّات في زمانه -من عبادة المخلوقات؛ كدعاء غير الله، والاستعانة بغيره- فبادر بالتأليف في إنكار ذلك، وألَّف هذه الرسالة فيما يبين حقيقة التوحيد، ويبين حق الله تعالىٰ علىٰ عباده.

ابتدأ المؤلف كتابه بالبسملة، ثم بالحمد، والحمد هو: ذكر محاسن المحمود، مع حبه وتعظيمه وإجلاله[(١)]، ويعرَّف أيضًا بأنه: فعلٌ يُنْبِئُ عن تعظيم المنعم؛ بسبب كونه منعمًا علىٰ الحامد وغيره[(٢)].

وجملة الحمد هي أول آية في القرآن بعد البسملة في سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، أي: هو مستحِقٌّ للحمد؛ لأنه رب العالمين، والربُّ هو: المالك والمربِّي الذي ربَّاهم بنعمه[(٣)].

(والعالمين): جمع عالَم، والعالَمُ: كل ماسوىٰ الله، والخلق كلهم عالَمٌ، سُمُّوا بذلك؛ لأنهم علامة علىٰ قدرة مَن خلقهم[(٤)].

ثم قال: **(والعاقبة للمتقين)**، فعاقبة الأمور ونهايتها لأهل التقوىٰ الذين اتقوا الله وآمنوا به، وحقيقة التقوىٰ: كمال الطاعة.

وقد فُسِّرَتِ التقوىٰ: بأن تعمل بطاعة الله، علىٰ نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، علىٰ نور من الله، تخشىٰ عقاب الله[(٥)].

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٩).

(٢) ينظر: أسنىٰ المطالب (١/ ٣).

(٣) ينظر: تفسير البغوي (١/ ٧٣)، وتفسير القرطبي (١/ ١٣٦)

(٤) ينظر: تفسير القرطبي (١/ ١٣٩)، وزاد المسير (١/ ١٢).

(٥) إشارة إلىٰ أثر أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٣٤٣)، وهناد في الزهد (٥٢٢)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٦٤١)، والبيهقي في الزهد الكبير (٩٧٥)، عن طَلْق بن حبيب موقوفًا عليه.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الصلاة علىٰ نبينا محمدٍ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واقتصر علىٰ الصلاة، ويكره الاقتصار عليها دون السلام[١]. والأولىٰ أن يقال: (صلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد)، ولكنَّ الكثيرين يقتصرون علىٰ الصلاة؛ لأنها التي أمر الله بها أولًا، مع أنه أمر بالصلاة والتسليم، ولأن بعض الأحاديث اقتصرت علىٰ الصلاة[٢].

والصلاة من الله: ثناؤه علىٰ عبده في الملأ الأعلىٰ[٣]، والصلاة من الملائكة: الاستغفار، والصلاة من الآدميين: الدعاء[٤]؛ قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، أي: ملائكته يصلون عليكم، يعني: يستغفرون لكم؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورىٰ: ٥].

ومحمَّد: اسم نبينا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سُمِّيَ به لكثرة خصاله الحميدة.

---

(١) ينظر: شرح النووي علىٰ مسلم (١/ ٤٤)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٦٢٣).

(٢) أكثر ما يستدل به هنا حديث كعب بن عجرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي فيه: «يارسول الله: قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك....» أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب: الصلاة علىٰ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حديث رقم (٦٣٥٧)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب: الصلاة علىٰ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد التشهد، حديث رقم (٤٠٦). وحديث عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**من صلىٰ علي صلاة صلىٰ الله عليه بها عشرًا**»، أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب: القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، حديث رقم (٣٨٤).

(٣) هذا تفسير أبي العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ موقوفًا عليه، ذكره البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب التفسير باب قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ..﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ووصله إسماعيل القاضي في كتاب «فضل الصلاة علىٰ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (ص٩٥)، وينظر: فتح الباري (٨/ ٥٣٢).

(٤) ينظر: تفسير القرطبي (١٤/ ٢٣٢)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٦١١)، وجلاء الأفهام (ص١٥٨).

وقد سُمِّيَ به قبله سبعة عشر رجلًا علىٰ ما قاله ابن الهَائِم[١]؛ كما نقله صاحب (الروض المربع)[٢].

وقد وُصِفَ بأنه خاتم الأنبياء في قول الله تعالىٰ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، يعني: آخرهم، ختمت به النبوة؛ فهو خاتمهم، ودينه آخر الأديان.

والآل: قيل: إنهم أتباعه علىٰ دينه، وقد اختار ذلك بعضهم، وأورد الشوكاني في (النيل)[٣] قول بعضهم[٤]:

آلُ النَّبِيِّ هُمُ أَتْبَاعُ مِلَّتِهِ ... مِنَ الأَعَاجِمِ والسُّودَانِ وَالعَرَبِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ آلُهُ إِلَّا قَرَابَتَهُ ... صَلَّىٰ المُصَلِّي عَلَىٰ الطَّاغِي أَبِي لَهَبِ

واختار شيخ الإسلام أن (آله): أهل بيته[٥]، ويدخل في ذلك: أمهات المؤمنين وأعمامه وأقاربه المؤمنون؛ لأنه جاء في بعض الروايات: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ**»[٦].

وأما صحبه: فإنهم الذين أسلموا معه، والصحابيُّ: هو كل من التقىٰ

---

(١) ابن الهائم هو: أحمد بن محمد بن عماد بن علي المصري المقدسي الشافعي، ولد سنة ٧٥٦هـ، وتوفي سنة ٨١٥هـ. ينظر: طبقات المفسرين للداوودي (١/ ٨٢)، وذيل التقييد (١/ ٣٩١).

(٢) ينظر: الروض المربع (ص١٠).

(٣) ينظر: نيل الأوطار (٢/ ٣٢٧).

(٤) القائل هو: نشوان الحميري اليمني، توفي سنة (٥٧٣هـ). ينظر: كتابه (شمس العلوم)(١/ ٣٧٧).

(٥) ينظر: مجموع الفتاوىٰ (٢٢/ ٤٦١).

(٦) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، بابٌ، حديث رقم (٣٣٦٩)، ومسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة علىٰ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد التشهد، حديث رقم (٤٠٧)، عن أبي حُمَيْد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤمنًا به، ومات على ذلك، وإن تخللته ردة على الأصح[١].

أما بعد: هذه الجملة يؤتى بها للانتقال من أسلوبٍ إلى أسلوب.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فهذا كتابٌ جَمُّ الفوائد...**) إلخ، الإشارة بـ «هذا» إلى ما تخيل المصنِّف كتابته في هذا الموضوع قبل أن يثبته من فوائد كثيرة؛ فقد وصف كتابه بأنه: (**كتاب جمُّ الفوائد، بديع الفرائد، ينتفع به من أراد اللهَ والدارَ الآخرةَ**).

و(**جمٌّ**)، يعني: كثير.

و(**بديع الفرائد**)، يعني: أن فيه فرائدَ مبدَعةً قليلًا ذِكْرُها في غيره.

(**ينتفع به من أراد الله والدار الآخرة**)، يعني: من كانت نيته وجه الله تعالى والعمل للآخرة، فإنه ينتفع به.

وقد سمَّى المؤلف كتابه: (**تجريد التوحيد المفيد**).

والتجريد، يعني: التخليص[٢]، يقال: جرَّد الشيءَ، أي: خلَّصه مما يشوبه.

ثم قال: (**واللهَ أسألُ العونَ على العمل به بمنِّه**)، سأل اللهَ تعالى أن يعينه على العمل به، وأن يَمُنَّ عليه.

---

(١) ينظر: الإصابة (١/ ٦)، ونزهة النظر (٢٣٨).

(٢) ينظر: المصباح المنير (١/ ١٣١).



معنى الربوبيَّة والألوهيَّة

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[اعلم: أن الله سبحانه هو ربُّ كلِّ شيءٍ ومالكُهُ وإلهه.

فالربُّ: مصدر: رَبَّ يَرُبُّ رَبًّا، فهو رابٌّ[١]؛ فمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]: رابُّ العالمين؛ فإن الربَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الخالق المُوجِدُ لعباده، القائم بتربيتهم وإصلاحهم، المتكفِّل بصلاحهم من خَلْقٍ، ورِزْقٍ، وعافيةٍ، وإصلاح دين ودنيا[٢].

والإلهية: كون العباد يتخذونه سبحانه محبوبًا مألوهًا، ويُفْرِدونه بالحب، والخوف، والرجاء، والإخبات، والتوبة، والنذر، والطاعة، والطلب، والتوكُّل، ونحو هذه الأشياء].

الشَّرح

بدأ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالكلام علىٰ الربوبية؛ فقال: (**اعلم: أن الله سبحانه هو ربُّ كلِّ شيءٍ ومالكُهُ وإلهه**)؛ وهذه عقيدة المسلمين.

والربُّ: هو المالك؛ لأن العرب تطلق اسم الربِّ علىٰ مالك الشيء؛ فيقولون: (ربُّ هذه الدار)، و(ربُّ هذه الإبل)[٣].

---

(١) ينظر: النهاية في غريب الحديث (٢/ ١٨١)

(٢) ينظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٤٧).

(٣) قال ابن الأثير: الربُّ يطلق في اللغة علىٰ المالك والسيد والمدبِّر والمربِّي والقيِّم والمنعم. ينظر: النهاية في غريب الحديث (٢/ ١٧٩) مادة: (ر ب ب).

وفي قصة مجيء أَبْرَهَةَ لهدم البيت أخذ إبلًا لعبد المطلب فجاء يطلبها وقال: (أنا ربُّ الإبل، وللبيتِ ربٌّ يحميه)[١]؛ وربُّ الإبل يعني: مالكها.

وفي القرآن قوله تعالىٰ عن يوسف: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢]، يعني: عند سيِّدِكَ المَلِك[٢]، وكذلك قول يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣]، يعني: سيِّدي[٣]، وقول يوسف وهو في السجن: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ [يوسف: ٥٠]، ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١]؛ فالربُّ هاهنا بمعنىٰ: السيد المالك[٤]؛ فالله تعالىٰ مالك الملك، ومالك الخلق كلِّهم؛ فهو ربهم الذي يملكهم.

ويطلق لفظ الربِّ أيضًا علىٰ (المربِّي)[٥]، يعني: الذي ربَّاهم بنعمه؛ كما في قول الله تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]، والتربية: التنشئة والكفالة والنفقة ونحو ذلك.

والله تعالىٰ ربُّ الأرباب؛ فيجب اعتقاد ربوبيته علىٰ جميع الخلق، كما يجب اعتقاد ملكه، وأنه مالك كل شيء؛ يملك الرقاب ويتصرف في جميع الكون، والخَلْقُ خلقه، والملك ملكه، له الملك، وله الحمد؛ قال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٢]، وقال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وفي قراءةٍ: (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ)[٦].

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٦٨).
(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٣/ ١٦٩).
(٣) ينظر: تفسير الطبري (١٣/ ٧٨).
(٤) ينظر: تفسير الطبري (١٣/ ١٩٩).
(٥) ينظر: تفسير السعدي (ص٩٤٥).
(٦) قرأ بها: من عدا عاصم والكسائي من القراء السبعة. ينظر: التيسير في القراءات السبع، للداني (١٨)، وتفسير الطبري (١/ ١٤٨).

كذلك الإلهيَّةُ: يجب أن تكون لله وحده؛ فهو إله هذا الكون الذي تَأْلَهُهُ القلوب؛ محبةً، ودعاءً، وخوفًا، ورجاءً، وتعظيمًا، وإجلالًا[1]، ولا يستحق ذلك إلا الله وحده؛ فهو الإله الحق الذي تألَّه وتعرَّف إلىٰ عباده.

وتَأْلَهُهُ يعني: تحبُّه وتعظِّمه وتعبُدُهُ وتتذلَّل له؛ فالله تعالىٰ هو الإله الحق، وما سواه -مما أُلِهَ-، فإلاهيته باطلة.

فالإلهيَّة هي: كون العباد يتخذونه إلهًا، يعني: مألوهًا ومحبوبًا.

وقد اتخذ المشركون معبوداتٍ كثيرةً سمَّوْها آلهةً؛ فقالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٥٩]، و﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا﴾ [الأنبياء: ٦٢]، و﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، و﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦]؛ فلهم آلهة كثيرة يحبونها ويعظمونها ويَدْعُونها، وقد جاءت الشريعة بإفراد الله بالإلهية؛ فهو سبحانه مألوهنا لا إله لنا غيره مألوهًا ومحبوبًا.

فالمؤمنون يفردونه:

بالحبِّ: فلا يحبون غيره محبةً قلبيةً كمحبته.

وبالخوف: فلا يخافون غيره مخافةً قلبيةً كمخافته؛ ولذا قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وبالرجاء: فلا يرجون غيره رجاءً قلبيًّا كرجائه؛ قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧].

---

(١) ينظر: المصباح المنير (١/ ١٩)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢٨).

وبالإخبات: والإخباتُ هو: الخشوع والإنابة[١].

وبالتوبة: قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [النور: ٣١].

وبالنذرِ: والنذرُ تعظيمٌ للمنذور له.

وبالطاعة، وبالطلب: أي: بالسؤال.

وبالتوكل: وهو: اعتماد القلب علىٰ الله تعالىٰ، مع فعل الأسباب المشروعة[٢].

وهذه الأمثلة من العبادات قد شُرِحَتْ شروحًا مطوَّلة، ومن أكثر من توسع في شرحها -فيما يظهر- ابن القَيِّم في كتابه الكبير الذي سمَّاه: (مدارج السالكين)، تناول فيه: الحب، والخوف، والرجاء، والتوبة، والطاعة، ونحو ذلك من أعمال القلوب والجوارح.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٢/ ٣٧٤)، والقاموس (ص٣٩١) مادة: خبت.

(٢) ينظر: مدارج السالكين (٢/ ١١٥).

حقيقة التوحيد وثمرته

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[فإن التوحيد حقيقته: أن تَرَىٰ الأمور كلَّها من الله تعالىٰ، رؤيةً تقطع الالتفات عن الأسباب والوسائط؛ فلا تَرَىٰ الخير والشر إلا منه تعالىٰ.

وهذا المقام يُثْمِرُ: التوكل، وترك شكاية الخلق، وترك لومهم، والرضا عن الله تعالىٰ، والتسليم لحكمه.

وإذا عرفت ذلك، فاعلم أن الربوبية منه تعالىٰ لعباده، والتألُّه من عباده له سبحانه؛ كما أن الرحمة هي الوُصْلةُ(١) بينهم وبينه عَزَّوَجَلَّ.

واعلم: أن أنفَسَ الأعمال، وأجلَّها قَدْرًا: توحيدُ الله تعالىٰ].

الشَّرح

التوحيد حقيقته: أن تَرَىٰ الأمور كلَّها من الله تعالىٰ، وأن تعتقِدَ أنه مسبِّب الأسباب، وأنه ربُّ الأرباب؛ وهذا توحيد الخالق، أي: أن تعتقد أنه واحد في خلقه، وفي تدبيره؛ فالأمور والحوادث كلها من الله، ولا يكون في مُلْكه إلا ما يريد.

وهذه الرؤية تُثْمِرُ: عدم التعلق القلبي بأيِّ سبب؛ بل يعتقد العبد أنَّ السبب من الله تعالىٰ؛ فهو مسبِّب الأسباب.

---

(١) في بعض النسخ: «الوسيلة».

وذكَـرَ المؤلِّـف الوسـائط؛ لأن المشـركين يتخـذون مـع الله وسـائط يجعلونهـا بينهـم وبينـه، ويقولـون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وهـم يعتقـدون أن هـذه الوسـائط تنفعهـم، ويضربـون لذلـك مثلًا: بالملـوك؛ فالإنسـان العامِّيُّ لا يصـل إلىٰ الملـوك إلا بواسـطة، ولا يُقضىٰ لـه غرضـه إلا أن يتوسـط بأحـد حاشـية الملـك -تعالـىٰ الله عـن ذلـك-؛ فـلا يجـوز أن يَتَّخِـذَ العبـد بينـه وبيـن الـربِّ واسـطة في عبادتـه؛ فالخيـر كلُّـه بيـد الله.

وكذلـك الشـرور والآفـات، هـو الـذي قدَّرهـا، ولكـن لا تنسـب إليـه علـىٰ أنهـا شـرور محضـة، وإنمـا علـىٰ أنهـا مقـدَّرة، ولابـد أن تكـون خيـرًا بوجـه مـن الوجـوه، وهـي مقـدرة في كلتـا الحالتيـن؛ كمـا ذكـر الله تعالـىٰ عـن أدب مؤمنـي الجـنِّ في قولهـم: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠]؛ فهـم لـم يقولـوا: (أَشَـرٌّ أراد اللَّـه)؛ بـل قالـوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

وجـاء في دعـاء الاسـتفتاح مـن حديـث علـيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَبَّيْـكَ وَسَـعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّـهُ فِـي يَدَيْـكَ، وَالشَّـرُّ لَيْـسَ إِلَيْـكَ**»[2]؛ فمـا يقـع ويقضيـه الله تعالـىٰ -مـن العقوبـات، والمحـن، والآفـات، والمصائـب، ونحوهـا- نعتقـد أنهـا من الله، ولكنْ لا نسميها شرًّا محضًا؛ بل إن لله تعالىٰ حكمة فيها.

وهـذا المقـام مـن مقامـات التوحيـد، وهـو: رؤيـة الأمـور كلِّهـا مـن الله تعالـىٰ؛ فـإن قطـع الالتفـات إلـىٰ الأسـباب والوسـائط يثمـر: التـوكل، وهـو: اعتمـاد القلـب علـىٰ الله، وتفويـض الأمـور إليـه، والرضـا بـه حسـيبًا ووكيـلًا.

---

(١) ينظر: مدارج السالكين (٢/ ٣٨٠). وللاستزادة ينظر: شفاء العليل (ص٢٦٨).

(٢) أخرجـه مسـلم، كتـاب صـلاة المسـافرين وقصرهـا، بـاب الدعـاء في صـلاة الليـل وقيامـه، حديـث رقـم (٧٧١).

كما يُثْمِرُ هذا المقام: ترك شكاية الخلق، وترك لومهم؛ فلا يشتكي المرء إلا إلىٰ الله، ولا يلوم الناس علىٰ شيء قد فعلوه به؛ بل يَرْضَىٰ بما قضاه الله وقدَّره له، ويستسلم لحكمه، ويسلِّم الأمر له؛ وهذا من مقامات العابدين، وهو من معاني الإلهية.

وقد فسر المؤلف الإلهية هاهنا تفسيرًا مجملًا، وسيفسرها لاحقًا بالتفصيل[1].

فالربوبية منه تعالىٰ لعباده تعني: كونه ربهم، والتألُّه من العباد له سبحانه؛ فالربوبية منه، والتألُّه بالعبادة منهم، وهم الذين يألهونه سبحانه، والرحمة هي: الوُصْلةُ بينهم وبينه عَزَّوَجَلَّ.

قال المصنِّف: (واعلم أن أنفَسَ الأعَمَال، وأجلَّها قدرًا: توحيدُ الله تعالىٰ)؛ فالتوحيد: أجلُّ العلوم والأعمال وأفضلُها؛ وذلك لأنه شرط في العبادات كلِّها؛ فلا تقبل أيُّ عبادة إلا بهذا الشرط.



---

(١) ينظر: (ص٤٦).

مظاهر التوحيد ولُبُّهُ

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[**غير أن التوحيد له قِشْرانِ**[(١)]:

الأول: أن تقول بلسانك: (لا إله إلا الله)، ويُسمَّىٰ هذا القول: توحيدًا، وهو مناقض للتثليث الذي تعتقده النصارىٰ.

وهذا التوحيد يصدر -أيضًا- من المنافق الذي يخالف سِرُّهُ جَهْرَه.

والقشر الثاني: ألَّا يكون في القلب مخالفةٌ ولا إنكارٌ لمفهوم هذا القول، بل يشتمل القلب علىٰ اعتقاد ذلك، والتصديق به. وهذا هو توحيد عامَّة الناس].

الشَّرح

التوحيد له قِشْران -أي: مظهران-.

القشر الأول: قول اللسان، أي: أن يقول المرء بلسانه: (لا إله إلا الله)، وهذا مظهر من مظاهر التوحيد، ويسمَّىٰ هذا القول: توحيدًا، وهو يناقض تثليث النصارىٰ، الذين يقولون: إن الآلهة ثلاثة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

وهذا التوحيد -الذي هو قول: (لا إله إلا الله)- قد يصدر من المنافق؛ فإن المنافقين يقولون: (لا إله إلا الله)، ولكنَّ قلوبَهم منكِرةٌ

(١) من هنا إلىٰ قوله في الفقرة التالية: (وهذا التوحيد مقامُ الصديقين) مستفاد من إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٣٣).

وهم مستكبِرون؛ يخالف سِرُّهم جَهْرَهم كما أخبر الله تعالىٰ عنهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

فإذا قالوها ظاهرًا، وعملوا بها، عصمتهم في الدنيا[١]؛ لقوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ**»[٢].

القشر الثاني: -يعني: العلامة الثانية- ألَّا يكون في القلب مخالفة لكلمة التوحيد.

فالأول: قول اللسان: (لا إله إلا الله)، **والثاني**: قول القلب: (ألَّا يكون في القلب مخالفة، ولا إنكار لمفهوم هذا القول)؛ بل يشتمل القلب علىٰ اعتقاد ذلك والتصديق به؛ وهذا هو توحيد عامة الناس، الذين خَلَصَتْ قلوبهم، فاعتقدوا وحدانية الله، واشتملت قلوبهم علىٰ التصديق بها.

---

(١) ينظر في ذلك: كتاب «الشهادتان» لسماحة الشيخ عبد الله بن جبرين رَحِمَهُ اللَّهُ (ص١٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ إلىٰ الإسلام والنبوة، حديث رقم (٢٩٤٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله...، حديث رقم (٢١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لباب التوحيد
ومقام الصِّدِّيقين وبعض ما يقدح فيه

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[**ولُبَابُ التوحيد**: أن يَرَىٰ الأمورَ كلَّها من الله تعالىٰ، ثم يَقْطَعَ الالتفاتَ عن الوسائط، وأن يعبده سبحانه عبادة يُفْرِدُهُ بها، ولا يعبُدَ غيره.

ويخرُجُ عن هذا التوحيد: اتِّباعُ الهوىٰ؛ فكلُّ من اتبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده[١]؛ قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وإذا تأملتَ عرَفتَ أن عابد الصنم لم يعبده، إنما عبد هواه، وهو ميل نفسه إلىٰ دين آبائه، فيتبع ذلك الميل، وميلُ النفس إلىٰ المألوفات: أحد المعاني التي يعبَّر عنها بالهوىٰ[٢].

ويخرُجُ عن هذا التوحيد: السَّخَطُ علىٰ الخلق، والالتفات إليهم؛ فإن من يرىٰ الكلَّ من الله، كيف يسخط علىٰ غيره، أو يأمُلُ سواه؟

وهذا التوحيد مقام الصدِّيقين[٣]].

---

(١) قال ابن القيم: (إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل متبع الهوىٰ بمنزلة عابد الوثن...) اهـ، وذكر الآية. ينظر: روضة المحبين (ص٤٧٥-٤٧٦).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٦٨)، وفتح القدير (٤/ ١١٢)، وأضواء البيان (٦/ ٢٢١-٢٢٣).

(٣) ينظر: طريق الهجرتين (ص٣٠).

الشَّرح

وللتوحيد **لُبَابٌ**، ولبابُ الشيء: خالصه؛ ومنه سُمِّيَتِ القلوب بالألباب؛ لأنها خلاصة الناس، ولبُّهم؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

قال المصنِّف: (**ولُبَابُ التوحيد: أن يَرَىٰ الأمور كلَّها من الله تعالىٰ**)؛ فالملكُ كلُّه ملك الله، والخلق خلق الله، والأمر أمره، والعبد عبده، والتصرُّف له.

قال المصنِّف: (**ثم يَقْطَعَ الالتفاتَ عن الوسائط**)، أي: لا يلتفتَ إلىٰ واسطة؛ فإن المشركين الذين يجعلون بينهم وبين الله وسائط، أصبحوا مشركين بذلك؛ لأن الله تعالىٰ لا يقاس بخلقه؛ فإنه: ﴿سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١]، ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩]، يسمع جهر القول وخفيَّ الخطاب؛ فلا حاجة إلىٰ أن يَجْعَلَ الخلقُ بينهم وبين الله واسطة؛ بل يتعبدون بما جاءتهم به الرسل عبادةً خالصةً يُفْرِدونه بها.

فمما يضادُّ التوحيد ولبَّه: أن يقولوا للرسول ﷺ بعد موته: (يا رسول الله، أنت واسطتنا)، أو يقولوا: (يا عليُّ، أنت واسطتنا؛ ندعوك وأنت تدعو الله لنا)، أو: (يا عبد القادر الجيلاني، أنت واسطتنا؛ ندعوك حتىٰ تدعو الله لنا)؛ فهذا لا يجوز؛ بل هو مما يضاد التوحيد وينافيه.

فإفراد الله تعالىٰ بالعبادة هو التوحيد؛ فلا يُعْبَدُ غيره أيًّا كان؛ لا مَلَكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسلًا.

ويخرُجُ عن هذا التوحيد: اتبّاع الهوىٰ؛ فالذين يتبعون أهواءهم لا شك أنهم لم يوحّدوا التوحيد الخالص؛ فكلٌّ من اتبع هواه فقد اتخذ هواه معبودًا مع الله تعالىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال بعضهم: (**مَا تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ إِلَـهٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ هَوًىٰ مُتَّبَعٍ**)(١)؛ فدلَّ ذلك علىٰ أنه لا بد أن يخالف المسلم ما يميل إليه الهوىٰ، والهَوَىٰ من الأعداء، وكونُ الإنسان لا يهوىٰ شيئًا إلا ركبه اتِّباعٌ للهوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣].

قال المصنِّف: (**وإذا تأمّلتَ عرَفْت عابد الصنم لم يعبده، وإنما عبد هواه...**).

فالذين يعبدون الأصنام، والذين يعبدون الأموات، ويعتمدون عليهم ويطلبون منهم الحاجات ويَضْرَعون إليهم، هم في الحقيقة: عبَّاد الشيطان وعبَّاد الهوىٰ؛ فالذين يعبدون غير الله ما عبدوا إلا الشيطان والهوىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

فما عَبَدَ مَن عَبَدَ غير الله إلا الشيطانَ والهوىٰ؛ فمال بنفسه إلىٰ دين آبائه وعقيدتهم، وكذلك النفس الأمّارة بالسوء تعتبر أيضًا من المعبودات.

---

(١) هذا القول روي حديثًا مرفوعًا؛ أخرجه ابن أبي عاصم في السنة، حديث رقم (٢)، والطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (٧٣٧٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ١١٨)، عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال السيوطي في اللآليء المصنوعة (٢/ ٢٧٢): «مَوْضُوع».

فالأعداء أربعة:

إِنِّـي بُلِيـتُ بِأَرْبَـعٍ مَـا سُـلِّطُـوا   إِلَّا لِأَجْـلِ شَـقَـاوَتِـي وَعَـنَـائِـي:
إِبْلِيسُ، وَالدُّنْيَا، وَنَفْسِيَ، وَالْهَـوَىٰ   كَيْـفَ الْخَـلَاصُ وَكُلُّهُـمْ أَعْدَائِـي؟!(١)

فالذين يعبدون غير الله يتبعون ما تميل إليه أنفسهم من دين الآباء والأجداد، والنفسُ تميل إلىٰ المألوفات وإلىٰ ما نشأت عليه؛ (وميلُ النفس إلىٰ المألوفات: هو أحد المعاني التي يعبَّر عنها بالهوىٰ).

قال المصنِّف: (**ويخرج عن هذا التوحيد: السخط علىٰ الخلق والالتفات إليهم**).

أي: مَن يجعل الخلق هم السبب، لا شك أنه ينسُبُ إلىٰ الخلق أعمالًا، وينسب إليهم إساءات، ولكن لابد أن لها أسبابًا من العبد؛ فالله تعالىٰ مسبِّب الأسباب؛ فلا يلتفِتُ إلىٰ الخلق، بل يُحاسِبُ نفسه.

وبكل حال: فهذا التوحيد هو مقام الصِّدِّيقين.



(١) ينظر: مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٨٩).

توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[ولا ريب أن توحيد الربوبية لم يُنْكِرْهُ المشركون؛ بل أقروا بأنه سبحانه وحده خالقهم وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الإلهيةِ والمحبَّةِ[1]؛ كما قد حكىٰ الله تعالىٰ عنهم في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فلما سَوَّوْا غيره به في هذا التوحيد، كانوا مشركين[2]؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، أي: يسوُّون غيره به[3]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠]].

الشَّرح

قال المصنِّف: (**ولا ريب أن توحيد الربوبية لم يُنْكِرْهُ المشركون؛ بل أقروا بأنه سبحانه وحده خالقهم وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله**).

الأدلة علىٰ ذلك في القرآن كثيرة؛ مثل قول الله تعالىٰ في سورة العنكبوت: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ (١٤/ ٣٨٠)، ومدارج السالكين (٣/ ٢٠).

(٢) ينظر: روضة المحبين (ص٣١٤)، ومدارج السالكين (٣/ ٢٠).

(٣) ينظر: الجواب الكافي (ص١٧٨).

فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ثم قال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، ومثلها أيضًا في سورة الزمر: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٣٨]، وكذلك في سورة الزخرف: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]، وفي آخر السورة: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وكذلك في سورة المؤمنون يقول تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥]، وكذلك في سورة يونس: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: ٣١].

فهذا اعتراف من المشركين: بأن الله هو الذي خلق هذه المخلوقات؛ وقد جعل الله اعترافهم هذا حجة عليهم في توحيد الإلهية؛ فيقال لهم: إذا كنتم تعترفون بأنه الخالق الرازق، فلماذا تعبدون غيره، وذلك الذي تعبدونه لم يشارِكْهُ في الخلق والتدبير؛ فأنتم تقرون بأن المخلوقات كلها خَلْقُهُ ومُلْكُهُ وتدبيره؛ فكيف تعظمونهم وتجعلون لهم شيئًا من خالص حق الله تعالىٰ الذي هو توحيده؟![1].

فتوحيد الربوبية لم ينكره المشركون؛ (**وإنما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة**)؛ وهو التوحيد المتضمن لمعنىٰ «لا إله إلا الله»، وهو: إفراد الله

---

(١) سيأتي مزيد بيان لمبحث الاحتجاج بدلالة توحيد الربوبية علىٰ توحيد الألوهية (ص ٥١).

تعالىٰ بالعبودية، ومن ذلك: إفراده بالمحبة القلبية؛ بأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما؛ فالشرك في المحبة هو شرك المشركين؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقد أورد هذه الآية الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «كتاب التوحيد» ثم قال بعدها: (فدلَّ علىٰ أنهم يحبون الله حبًّا شديدًا). انتهىٰ[١].

ولم يُدخِلهم في الإيمان؛ فكيف بمَن أحب الأنداد أكثر من حبِّ الله؟! وكيف بمن أحب الأنداد وحدها ولم يحب الله؟!

فقوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾:

قيل: معناهُ: يحبون الأنداد كحبهم لله، فحبهم للأنداد وحبهم لله متساوٍ.

وقيل: إن المراد يحبون أندادهم كالحب الواجب لله، أي: يحبون الأنداد مثل المحبة التي يجب أن يفردوها ويجعلوها لله تعالىٰ[٢].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾، معناه: أن المؤمنين يؤمنون بالله ويحبونه حبًّا أشدَّ من حب أهل الأنداد لأندادهم؛ لأن محبة أولئك لتلك الأنداد محبة ضعيفة مؤقتة.

وأما المؤمنون فإنهم يحبون الله محبة قلبية راسخة؛ فمحبة المؤمنين لله أقوىٰ من محبة أهل الأنداد لأندادهم، وأقوىٰ من محبَّتهم لله؛ لأن

(١) ينظر: كتاب التوحيد (ص٦٦).
(٢) ينظر: تفسير الطبري (٣/ ١٧).

محبتهم مشتركة: بعضها لله، وبعضها للأنداد؛ فقد أضعفها الاشتراك حيث جعلوها مشتركة، ومحبة المؤمنين محبة خالصة أقوىٰ من محبة أهل الأنداد لأندادهم.

فلما سَوَّوْا غيره به في هذا التوحيد، وهذه المحبة، كانوا مشركين؛ لأنهم سَوَّوْا بين الله وبين الأنداد[1].

وقد قال الله تعالىٰ في بداية سورة الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، أي: المنفردِ بذلك وحده، ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، أي: يجعلون لله عِدْلًا، أي: شبيهًا ومثيلًا، مع أنهم يعرفون أن الله هو الذي خلقهم وخلق السمواتِ والأرض، وجعل الظلمات والنور.

وقال تعالىٰ في أواخر سورة الأنعام أيضًا: ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠][2].

فهكذا تكون محبَّةُ المؤمنين: محبَّةً خالصة، ومحبةُ المندِّدين: محبَّةً مشتركة.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٣/ ٢٧٩)، وتفسير القرطبي (٢/ ٢٠٤)، وتفسير ابن كثير (١/ ٤٧٦).
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٥٢).

توحيد الألوهية:
مَفْرَقُ الطُّرُقِ بين المؤمنين والمشركين

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[وقد علَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عباده كيفية مباينة الشرك في توحيد الإلهية، وأنه تعالىٰ حقيق بإفراده وليًّا، وحَكَمًا، وربًّا؛ فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤]؛ فلا وليَّ، ولا حَكَمَ، ولا ربَّ إلا الله، الذي من عدَلَ به غيره، فقد أشرك في ألوهيته، ولو وحَّد ربوبيته[١].

فتوحيد الربوبية: هو الذي اجتَمَعَتْ فيه الخلائق؛ مؤمنها وكافرها.

وتوحيد الإلهيَّة: مَفْرَقُ الطرق بين المؤمنين والمشركين؛ ولهذا كانت كلمة الإسلام: (لا إله إلا الله)؛ فلو قال: «لا ربَّ إلا الله»، لما أجزأه عند المحقِّقين.

فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد؛ ولهذا كان أصل «الله»: الإله؛ كما هو قول سيبويه، وهو الصحيح، وهو قول جمهور أصحابه إلا من شذ منهم].

---

(١) ينظر: مدارج السالكين (٢/ ١٨١).

الشَّرح

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وقد علَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عباده كيفية مباينة الشرك في توحيد الإلهية...**).

فالشرك يباين التوحيد وينافيه؛ فلا يمكن أن يقال: «هذا موحِّد»، وهو مشرك؛ فمن كان مشركًا فلا يسمَّىٰ موحِّدًا، ولا يسمَّىٰ عابدًا لله؛ لأن عبادة الله تعالىٰ لا تُقْبَلُ إلا خالصة.

وقد علَّم الله العبادَ كيف يكون الشرك مباينًا لتوحيد الإلهية، وأخبر أنه تعالىٰ حقيق أن يفردوه بالعبادة، ويَرْضَوْا به وليًّا وحَكَمًا وربًّا؛ فلا يجعلوا معه شريكًا وندًّا في هذا كلِّه يتخذونه وليًّا دون غيره، أو يتخذونه حَكَمًا، أو يَرْضَوْنَ به ربًّا وإلهًا؛ قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤]، أي: لا يجوز أن تتخذ وليًّا غير الله فاطر السموات والأرض، وقال: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، أي: لا يجوز أن تبتغي حكمًا غير الله، بل عليك أن ترضىٰ بحكم الله، وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وكل هذه الآيات في سورة الأنعام، وهي سورة تدور آياتها حول: تحقيق التوحيد والعقيدة[1].

قال المصنِّفُ: (**فلا وليَّ، ولا حَكَمَ، ولا ربَّ إلا الله**) فهو وحده الذي يُفْرَدُ بذلك كله، (**فمن عدَلَ به غيره فقد أشرك في ألوهيته**)؛ لقوله: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، (**ولو وحَّد في ربوبيته**)؛ فإذا اعتقدَ أن الله واحد في الربوبية، أي: أنه ربُّ الناس وخالقهم ورازقهم، ولكنْ جعل

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢/ ٥٧٨).

معه وليًّا، أو جعل معه حَكَمًا، أوجعل معه إلهًا -: فهو مشرك، وليس بموحِّد.

قال المصنِّف: (**فتوحيد الربوبية: هو الذي اجتمعت فيه الخلائق؛ مؤمنها وكافرها**)؛ فكل الخلق معترفون بربوبية الله؛ إذْ إنهم يشاهدون هذا الخلق، فيعرفون أنه لا بد للمخلوق من خالق، وما شذَّ عن ذلك إلا الدهريُّون[١] -كما سيأتي- وإلا فإن الأصل: أن الخلق فُطِروا علىٰ توحيد الربوبية؛ فهم معتقدون أن الله تعالىٰ هو ربهم وحده، وهو الخالق الرازق وحده.

أما توحيد الإلهية: فهو -كما قال المصنِّف-: (**مَفْرَقُ الطرق بين المؤمنين والمشركين**)؛ وهو الذي أرسلت به الرسل؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]؛ فكل الرسل يقولون: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: وحِّدوه، ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، أي: الأصنامَ والطواغيت[٢].

وكلُّهم يَدْعُونَ إلىٰ شهادةِ أنْ لا إله إلا الله؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

---

(١) الدَّهْريُّ: من يقول بقدم الدهر، وإسناد الحوادث إليه. ينظر: الكليات لأبي البقاء (ص٧٦٥).

(٢) ذكر الطبري في تفسيره (٤/ ٥٥٨) عدة معان في تفسير الطاغوت، منها: الشيطان، والساحر، والكاهن، ثم قال: «والصواب من القول عندي في الطاغوت: أنه كل ذي طغيان علىٰ الله؛ فَعُبِدَ من دونه؛ إما بقهر منه لمن عبده، وإما بطاعةٍ مِمَّن عَبَدَهُ لَهُ، وإنسانًا كان ذلك المعبود، أو شيطانًا، أو وثنًا، أو صنمًا، أو كائنًا ما كان من شيء». و ينظر: إعلام الموقعين (١/ ٤٠).

قال المصنِّف: (**ولهذا كانت كلمة الإسلام: «لا إله إلا الله»**).

فالإلـهُ: هو الـذي تَأْلَهُـهُ القلـوب، ومعنـىٰ «لا إلـه إلا الله»، أي: لا أحد يستحقُّ الإلهيـة غير الله؛ فلو قـال قائـل: «لا ربَّ إلا الله»، ما كان موحِّدًا؛ لأن المشـركين يعترفـون بقولهـم: «لا ربَّ إلا الله»، وإنما أنكروا الإلهيـة، وجعلـوا لهـم آلهة تألهها قلوبهـم، فلو قـال النبي ﷺ لهـم أول بعثتـه: «لا ربَّ إلا الله» لأقـرُّوه، ولكنـه لمَّـا قـال: «قولـوا: لا إلـه إلا الله» أنكروا وقالوا: لنا آلهة كثيرة؛ ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، ﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦]، وقال تعالىٰ عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦].

فالذيـن يقولـون: «لا ربَّ إلا الله»: لا يُجْزِئُهـم ذلـك، ولا يكونـون موحِّدين عند أهل التحقيق؛ لأن توحيد الإلهية هو المطلوب من العباد، وهـو الـذي أُرْسِلَتِ الرسل بطلبه.

ولتوحيـد الألوهيـة عـدَّة أسـماء منهـا: التوحيـد الإلهـي، والتوحيـد الطلبـي، وهـو طلبـي؛ لأن الله طلبـه منـا، والتوحيـدُ القَصْـدي، والتوحيـد الإرادي العملي؛ وهو عملي؛ لأنه أعمال نعملها؛ كسجود وركوع ودعاء ومحبـة ونحوهـا، والتوحيـدُ الأمـري[1]؛ وهـو الـذي أمـر الله بـه، والـذي أُرْسِلت الرسـل بطلبـه منهـم؛ وهـذا التوحيـد هـو المطلـوب مـن العبـاد.

(١) ينظر: الصواعق المرسلة (٢/ ٤٠١)، ومعارج القبول (١/ ٩٨).

وأصل لفظ الجلالة «الله»: الإله؛ بمعنىٰ: المألوه؛ فِعَالٌ بمعنىٰ مفعول، أي: المحبوبُ المعظَّم؛ لاجتماع صفات الكمال فيه، يعني: هو الإله الحق؛ وهو الذي سمَّىٰ نفسه: «الله».

والنحويون -وأشهرهم سيبويه- يقولون: أصل كلمة «الله»: الإله، ولكنْ أُسقطت الهمزة، وأُدغمت اللام في اللام، وصارت: «الله»؛ وهو قول جمهور أصحاب سيبويه إلا من شذَّ منهم[1].

(١) ينظر: الكتاب (٢/ ١٩٥)، والمخصَّص (٥/ ٢١٦)، وبدائع الفوائد (٢/ ٢٤٩)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٩).

الاحتجاج بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[وبهذا الاعتبار الذي قرَّرنا به (الإله)، وأنه المحبوب؛ لاجتماع صفات الكمال فيه - : كان «الله» هو الاسمَ الجامعَ لجميع معاني الأسماء الحسنىٰ، والصفات العليا، وهو الذي ينكره المشركون.

ويحتجُّ الربُّ سبحانه عليهم بتوحيدهم ربوبيته علىٰ توحيد ألوهيته؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٥٩-٦٠][1].

وكلما ذكَرَ تعالىٰ من آياته جملةً من الجمل، قال عَقِيبها: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾؛ فأبان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذلك: أن المشركين إنما كانوا يتوقَّفون في إثبات توحيد الإلهية، لا الربوبية؛ علىٰ أن منهم من أشرك في ربوبيته -كما يأتي بعد ذلك إن شاء الله تعالىٰ[2]-.

وبالجملة: فهو تعالىٰ يحتج علىٰ منكري الإلهية بإثباتهم الربوبية].

الشَّرح

بهذا الاعتبار الذي قرَّره المصنِّف في معنىٰ (الإله)، فإن اسم «الله» هو الاسم الجامع الذي تَرْجِعُ إليه جميع الأسماء الحسنىٰ، والصفات العليا، وهو الذي ينكره المشركون، ويجعلون لهم آلهة أخرىٰ فيقولون: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾ [الأنبياء: ٥٩]، ويقولون: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦].

---

(١) ينظر: مدارج السالكين (١/ ٤٤٤)، وبدائع الفوائد (٢/ ٢٤٧-٢٤٨).

(٢) ينظر صفحة (٧٨)

قال المصنِّف: (**ويحتجُّ الربُّ سبحانه عليهم بتوحيدهم ربوبيته علىٰ توحيد ألوهيته؛ كما قال الله تعالىٰ:** ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩])، يعني: هل الله خيرٌ أم آلهتهم التي يجعلونها شريكة له؟!

ولا شك أنهم لو فكَّروا لعرفوا أن الله تعالىٰ -الذي هو ربهم وخالقهم ومالكهم- لا نسبة بينه وبين هذه الآلهة التي يَألهونها ويعبدونها.

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، يعني: خالق السموات والأرض، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، يعني: منزل هذا المطر، ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾، يعني: هذه الحدائق التي فيها هذه النباتات، وهذه الخضر، وهذه الفواكه، ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾: لا تقدرون علىٰ ذلك بقوَّتكم، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]: أتجعلون مع الله إلهًا، وأنتم تعترفون بأنه الذي خلق السموات والأرض، وأنه الذي أنزَلَ المطر، وأنه الذي أنبت هذه النباتات؟! ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، يعني: هل إلهٌ مع الله؟!

ثم قال كذلك في الآيات التي بعدها: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦١-٦٢]، وكذا في الآيات التي بعدها.

وكلَّما ذكر شيئًا من البراهين والحجج قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؛ فأبان سبحانه: أن المشركين إنما كانوا يتوقفون في إثبات توحيد الإلهية[1].

---

(١) ينظر -فيما يتعلق بدلالة توحيد الربوبية علىٰ توحيد الألوهية-: تفسير القرطبي (١/ ٢٢٥)، وتفسير ابن كثير (١/ ٧٦)، و(٣/ ٣٠٩).

معنى «الرّب» و«المَلِكِ» و«الإله» الواردة في سورة الفاتحة والفلق والناس ومقتضياتُها

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[(والمَلِكُ) هو: الآمر الناهي، الذي لا يخلُقُ خلقًا بمقتضى ربوبيته ويترُكُهم سُدًى معطَّلين؛ لا يؤمرون ولا يُنْهَوْن، ولا يثابون ولا يعاقبون؛ فإن الملك هو الآمر الناهي، المعطي المانع، الضار النافع، المثيب المعاقب[1].

ولذلك جاءت الاستعاذة في (سورة الناس)، و(سورة الفلق) بالأسماء الحسنى الثلاثة: (الرب، والملك، والإله)، فإنه لما قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، كان فيه إثباتُ أنه خالقهم وفاطرهم؛ فبقي أن يقال: لمَّا خلقهم، هل كلَّفهم، وأمرهم، ونهاهم؟

قيل: نعم؛ فجاء: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٢]؛ فأثبت الخلق والأمر: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فلما قيل ذلك، قيل: فإذا كان ربًّا مُوجِدًا، ومَلِكًا مكلِّفًا؛ فهل يُحَبُّ، ويُرغَبُ إليه، ويكون التوجُّه إليه غايةَ الخلق والأمر؟

قيل: ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٣]، أي: مألوهِهم ومحبوبِهم الذي لا يتوجه العبد المخلوق المكلَّف العابد إلا له؛ فجاءت الإلهية خاتمة وغاية، وما قبلها كالتوطئة لها.

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٤٩).

وهاتان السورتان أعظَمُ عُوذَةٍ[١] في القرآن[٢]، وجاءت الاستعاذة بهما وقت الحاجة إلىٰ ذلك، وهو حين سُحِرَ النبي ﷺ، وخُيِّلَ له أنه يفعل الشيء وما فعله، وأقام علىٰ ذلك أربعين يومًا؛ كما في «الصحيح»[٣].

وكانت عُقَدُ السحر إحدىٰ عَشْرةَ عقدةً؛ فأنزل الله «المعوِّذتين» إحدىٰ عشرة آية، فانحلَّت بكل آية عقدة[٤].

وتعلَّقت الاستعاذة في أوائل القرآن باسمه: (الإله)، وهو المعبود وحده؛ لاجتماع صفات الكمال فيه، ومناجاةُ العبد[٥] لهذا الإله الكامل ذي الأسماء الحسنىٰ، والصفات العليا، المرغوبِ إليه في أن يُعِيذَ عبده الذي يناجيه بكلامه من الشيطان الحائل بينه وبين مناجاة ربه.

---

(١) أي: أعظم رقية في القرآن، وجمعها: عُوذٌ. ينظر: القاموس المحيط مادة (ع و ذ)، ولسان العرب مادة (ع و ذ).

(٢) لحديث ابن عابس الجهني رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قَالَ لَه: «أَلاَ أَدُلُّكَ -أَوْ قَالَ- : أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا يَتَعَوَّذُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟»؛ «قَالَ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»؛ أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (١٥٤٤٨)، والنسائي، كتاب الاستعاذة، حديث رقم (٥٤٣٢)، وقال الألباني في صحيح النسائي: صحيح.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب السحر، حديث رقم (٥٧٦٦)، ومسلم، كتاب السلام، باب السحر، حديث رقم (٢١٨٩)؛ كلاهما دون زيادة: «وأقام علىٰ ذلك أربعين يومًا، أو أربعين ليلة». قال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٣٧): (وقع في رواية أبي ضمرة عند الإسماعيلي: «فأقام أربعين ليلة»، وفي رواية وُهَيْب عن هشام، عند أحمد: «ستة أشهر»، ويمكن الجمع بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه، والأربعين يومًا من استحكامه، وقال السهيلي: لم أقف في شيء من الأحاديث المشهورة علىٰ قدر المدة التي مكث النبي ﷺ فيها في السحر، حتىٰ ظَفَرْتُ به في جامع معمر، عن الزهري: أنه لبث ستة أشهر. كذا قال، وقد وجدناه موصولًا بإسناد الصحيح فهو المعتمد). اهـ.

(٤) ذكر الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٣٦): أنه جاء من حديث ابن عباس بسندٍ ضعيف أن عدد العقد إحدىٰ عشرة عقدة؛ أخرجه البيهقي في الدلائل، وجاء عنه مثل ذلك بسند آخر، لكنه منقطع عند ابن سعد.

(٥) قوله: (مناجاة العبد) مبتدأ، وخبرُهُ قوله :(لهذا الإله الكامل...) إلخ، أي: تكون أو تنبغي لهذا الإله الكامل سبحانه.

ثـم انسـحب التعلُّق باسـم (الإلـه) في جميـع المواطـن التـي يقـال فيهـا: (أعـوذ بـالله مـن الشيطان الرجيـم)؛ لأن اسـم «الله» تعالـىٰ هو الغاية للأسـماء؛ ولهـذا كان كل اسـم بعـده لا يتعـرَّف إلا بـه؛ فنقـول:(الله هـو السـلام المؤمـن المهيمـن)؛ فالجلالـة تعـرِّف غيرهـا، وغيرهـا لا يعرِّفهـا][1].

الشَّرح

في سـورة النـاس جـاءت الإلهيـة في قولـه تعالـىٰ: ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٣]، خاتمةً وغاية، ومـا قبلهـا كالتوطئة لهـا؛ وهـذا استنباط عجيب في الحكمـة مـن تقديـم (رَبِّ النَّاسِ)، ثـم التثنيـة بــ: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٢]، ثـم الانتهـاء بــ: ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٣].

وقـد فسَّـر هاتيـن السـورتين شيخ الإسـلام ابـن تيمية في المجلد السـابع عشر مـن «مجمـوع الفتـاوىٰ»[2]، وفسـرهما أيضًـا ابـن القيـم، وتوسـع في تفسيرهما في التفسير المسـمَّىٰ: «التفسير القيِّـم»[3]، وهـو تفسيرٌ مجمـوعٌ مـن كتبـه.

وكلامه في تفسير المعوِّذتين مأخوذ من كتابه «بدائع الفوائد»[4].

قـال المصنِّـف: **(وهاتـان السـورتان أعظَـمُ عُـوذَةٍ في القـرآن)**، وجـاء في الحديـث: «**مَا تَعَوَّذَ الْمُتَعَوِّذُونَ بِمِثْلِهِنَّ قَطُّ**»[5]، يعنـي: أنهما أفضل مـا يُتعوَّذ بـه، وأفضـل مـا جـاء في القـرآن مـن الاسـتعاذة.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١/ ١٢٣) ومدارج السالكين (١/ ٤١).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٥١١-٥١٨).

(٣) ينظر: التفسير القيم (ص٥٩٩).

(٤) ينظر: بدائع الفوائد (٢/ ٤٧٣).

(٥) أخرجه أبو داود، كتاب سجود القرآن باب في المعوذتين، حديث رقم (١٤٦٣)، والنسائي، كتاب الاستعاذة، حديث رقم (٥٤٣٠)، عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: نتائج الأفكار لابن حجر (٢/ ٣٤٧).

ثم قال: (**وجاءت الاستعاذة بهما وقت الحاجة إلىٰ ذلك**)، أي: أشدَّ ما تكون الحاجة إلىٰ ذلك، حين عمل أحد اليهود سحرًا للنبي ﷺ، ولم يؤثِّر السحر في عقله، ولا في تصرُّفه، ولا في عبادته، وإنما في أمر النِّسَاء.

قالت عائشة رضي الله عنها: **كان رسول الله ﷺ سُحِرَ، حتىٰ كان يَرَىٰ أَنَّهُ يأتي النِّسَاءَ ولا يَأْتِيهِنَّ -قال سفيان: وهذا أشدُّ ما يكونُ مِن السِّحْرِ، إذا كان كذا- فقال: «يَا عَائِشَةُ، أَعَلِمْتِ أَنَّ اللهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟ أَتَانِي رَجُلَانِ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلْآخَرِ: مَا بَالُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بن أَعْصَمَ -رَجُلٌ مِنْ بني زُرَيْقٍ حَلِيفٌ لِيَهُودَ كَانَ مُنَافِقًا- قَالَ: وَفِيمَ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاقَةٍ، قَالَ: وَأَيْنَ؟ قَالَ: فِي جُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ، تَحْتَ رَاعُوفَةٍ فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ»، قَالَتْ: فَأَتَىٰ النَّبِيُّ ﷺ الْبِئْرَ حَتَّىٰ اسْتَخْرَجَهُ**[1].

وقيل: إنه قرأ هاتين السورتين، وكان ذلك الساحر قد جعل سحره في إحدىٰ عَشْرة عقدة، فقرأ ﷺ هاتين السورتين استعاذة بهما، وكلما قرأ آية انحلَّت عقدة.

قال المصنِّف: (**وتعلَّقت الاستعاذة في أوائل القرآن باسمه: «الإله»**)؛ وكذلك في غيرها من الآيات؛ مثلُ قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨]، ومثلُ قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

قال المصنِّف: (**ومناجاة العبد**)، أي: دعاء العبد بدعاءٍ خفيٍّ؛ ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣]، إنَّما تكون (**لهذا الإله الكاملُ ذي**

---

(١) تقدم تخريجه (ص٥٤).

الأسماء الحُسنىٰ والصفات العليا)، أي: لأنه هو المعبود وحده الذي تجتمع فيه صفات الكمال، و«الله»: هو الاسم الذي يجمع الأسماء الحسنىٰ كلها؛ فتكون الاستعاذة به، وكذلك بقية العبادات.

وذكر المصنِّف: أنَّ الله هو المرغوب إليه في أن يُعِيذَ عبده -الذي يدعوه ويَرْغَبُ إليه ويناجيه بكلامه تعالىٰ- من الشيطان الذي يحول بينه وبين مناجاة ربه وسائر العبادات؛ ولهذا اشتملت سورة الناس علىٰ الاستعاذة منه؛ قال تعالىٰ: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]، والوسواس الخنَّاس: هو الشيطان[1].

قال المصنِّف: **(ثم انسحب التعلُّق باسم «الإله» في جميع المواطن التي يقال فيها: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»)**.

في جميع المواطن تكون الاستعاذة باسم «الله» لا بغيره، وكذا كثير من أحاديث الاستعاذة التي قد تبلغ ثلاثين حديثًا، جاءت فيها الاستعاذة من الشرور متعلِّقةً باسم «الله»، مثل: **«تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ جَهْدِ البَلَاءِ»**[2]، و**«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ»**[3]، و**«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ»**[4]، و**«اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ**

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٧٥٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب القدر، باب من تعوَّذ بالله من درك الشقاء وسوء القضاء، حديث رقم (٦٦١٦)، ومسلم، كتاب الذكر، باب في التعوذ من سوء القضاء، حديث رقم (٢٧٠٧)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، حديث رقم (٦٨٥)، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، حديث رقم (٢٧٣٩)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من الجبن والكسل، حديث رقم (٦٣٦٩)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ»[١]، و «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ»[٢]، و«أَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ»[٣]، و«إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ؛ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»[٤]، فلم يقل: أعوذ بالربِّ، ولا أعوذ بالرحمن؛ بل قال: «**أعوذ بالله**»؛ فأحاديث الاستعاذة -أغلبها- تأتي الاستعاذة فيها مقرونة باسم «الله».

قال المصنِّف: (**لأن اسم «الله» تعالىٰ هو الغاية للأسماء؛ ولهذا كان كل اسمٍ بعده لايتعرَّف إلا به؛ فنقول: الله هو السلام المؤمن المهيمن؛ فالجلالة تعرِّف غيرها، وغيرها لايعرِّفها**).

فاسم «الله» هو غاية الأسماء؛ فهو الذي ترجع إليه جميع الأسماء.

وكلُّ اسم بعده لا يتعرَّف إلا به؛ فيقال:(الله هو السلام، الله هو المؤمن المهيمن).

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوُّذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، حديث رقم (٢٧٢٢)، عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (٢٥١٣٧)، وابن ماجه، كتاب الدعاء، باب الجوامع من الدعاء حديث رقم (٣٨٤٦)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (١٤٨٣)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء، حديث رقم (١٤٨٠)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في القراءة في صلاة الليل، حديث رقم (١٣٥٢)، عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب التعوذ من عذاب القبر، حديث رقم (١٣٧٧)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، حديث رقم (٥٨٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلفظ الجلالة: «الله»، هو أعرف المعارف؛ يعرِّف غيره، ولا يعرِّفه غيره؛ فلا تقل مثلًا: (الرحمن هو الله، ولا المَلِك هو الله)؛ بل تقول: (الرحمن والملك من أسماء الله)[1].

(١) ينظر: بدائع الفوائد (١/ ٤١).

ربوبيته المطلقة
وبطلان مذهب المجوسيَّة والقدريَّة

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[والذين أشركوا به تعالىٰ في الربوبية، منهم مَنْ أثبت معه خالقًا آخر -وإن لم يقولوا: إنه مكافئ له- وهم المجوس[1]، ومن ضاهاهم من القدرية.

وربوبيته سبحانه للعالَم الربوبيَّةَ الكاملةَ المطلَقةَ الشاملةَ: تُبْطِلُ أقوالهم؛ لأنها تقتضي ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات والصفات، والحركات والأفعال.

وحقيقة قول القدريَّة المجوسيَّة: أنه تعالىٰ ليس ربًّا لأفعال الحيوان، ولا تتناولها ربوبيته؛ إذْ كيف تتناول ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه؟].

الشَّرح

يقول المصنِّف: (**والذين أشركوا به تعالىٰ في الربوبية منهم مَنْ أثبت معه خالقًا آخر**)؛ كالمَجُوس ونحوهم، ولكنهم لا يقولون: (إن الخالق الآخر مكافئ لله ومماثل له).

فيقولون: إن الخلق صادر عن خالقين: (النور، والظلمة)، و(النور): هو الذي خلق الخير، و(الظلمة): هي التي خلقت الشر، ولا يساوون بينهما؛ بل يقولون: إن الظلمة شريرة[2].

(١) في المطبوعات الثلاث: «المشركون»؛ ولعله سبق قلم، وصوابه: «المجوس»، أو: «المشركون من المجوس»؛ كما سيأتي في شرح الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) ينظر: الفِصَل في الملل والنحل (١/ ٣٥).

قال: (**وربوبيته سبحانه للعالَـمِ -الربوبيَّة الكاملةَ المطلَقةَ الشاملةَ- تُبْطِلُ أقوالهم**)؛ وهي أقوال شركية، فإذا قالوا: نحن نقول: إن الله الربُّ، قيل: فلِمَ تعبدون غيره؟! فقد بطلت أقوالكم باعترافكم بأن الله هو الربُّ؛ لأن هذا يقتضي ربوبيته لجميع ما في العالم من الذوات والصفات، والحركات والأفعال. فإذا اعترفتم بأن الله هو الربُّ الخالق، فاعترفوا بأن جميع الذوات والصفات، والحركات والأفعال، التي في الكون ملكه.

قال المصنِّف: (**وحقيقة قول القدريَّة المجوسيَّة: أنه تعالىٰ ليس ربًّا لأفعال الحيوان**)، والقدرية الثانية -وهم المعتزلة-: هم من المسلمين؛ يأتون بالشهادتين، ويقرون بالبعث، ويقرون باليوم الآخر، إلا أنهم يُخْرِجون أفعال المخلوقين عن قدرة الله؛ فيجعلون المخلوق هو الذي يَقْدِرُ علىٰ أن يفعل، وليس لله قدرة علىٰ أفعال العباد!

قال: (**ولا تتناولها ربوبيته؛ إذْ كيف تتناول ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه**)؛ وهذا قول باطل، وهو قول القدرية -الذين هم مجوس هذه الأمة- نعوذ بالله منهم[1].

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٥٥).

أنواع الشِّرْكِ في الأمم

النوع الأول: الشرك في الألوهية:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[وشركُ الأمم كلُّه نوعان:

شرك في الإلهية، وشرك في الربوبية[1].

فالشرك في الإلهية والعبادة هو الغالب على أهل الإشراك، وهو شرك عُبَّادِ الأصنام، وعُبَّادِ الملائكة، وعُبَّاد الجنِّ، وعُبَّاد المشايخ الصالحين الأحياء والأموات، الذين قالوا: (إنما نعبدهم ليقرِّبونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنا عنده، وينالَنا بسبب قربهم من الله وكرامته لهم قربٌ وكرامة)؛ كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة والزلفى لمن يخدُمُ أعوان المَلِك وأقاربه وخاصَّته].

الشَّرح

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن شرك الأمم ينحصر في نوعين: شرك في الإلهية، وشرك في الربوبية، ولكن الشرك في الربوبية: خاص بالمجوس، ويسمَّوْنَ الثَّنَوِيَّة. وأما بقية الأمم، فإنهم لا يشركون في الربوبية؛ بل يعترفون بالربوبية لله وحده.

وبدأ المصنِّف بالحديث عن الشرك في الإلهية، والشركُ مشتق من: (التشريك)، أو من: (الاشتراك)[2]، وهو: جعل العبادة مشتركة بين الله

(١) ينظر: مدارج السالكين (١/ ٧٤).

(٢) ينظر: لسان العرب (١٠/ ٤٤٨).

وبين أحد من العباد أو شيء من المخلوقات، ومنه سُمِّيَتِ الشركة التي يشترك فيها أكثر من واحد، وسُمِّيَ الذين يختلطون في المال ونحوه: شركاء؛ كما في قول الله تعالىٰ -لما ذكر العبد المملوك-: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]؛ فـ: ﴿شُرَكَآءُ﴾، أي: خلطاء متشاكسون.

فمن هنا كان اشتقاق الشِّرْك من التشريك، أو من الاشتراك؛ بحيث إنَّ المشرك يجعل لله شركاء في العبادة، أو يجعل عبادته مشتركة: بعضها للخالق، وبعضها للمخلوق.

فإذا دعا اللهَ ودعا المخلوقَ -فيما لا يَقْدِرُ عليه إلا الله- فقد جعل الدعاء مشتركًا، وإذا خاف اللهَ وخاف المخلوقَ -خوف العبادة- فقد جعل الخوفَ مشتركًا، وإذا أحبَّ اللهَ وأحبَّ غيرَهُ علىٰ حدٍّ سواء، فقد جعل محبته مشتركة؛ فيسمَّىٰ: مشرِكًا، ويسمَّىٰ ذلك الذي جعله مع الله: شريكًا.

والله تعالىٰ منزَّه عن ذلك؛ ففي الذكر المشهور: «**لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ**»[1]، أي: ليس له مشارك في نوع من أنواع العبادة؛ بل العبادة بجميع أنواعها حق الله، لا يشركه فيها أحد من المخلوقين؛ فمن جعل لله تعالىٰ شريكًا فقد أشرك؛ يقول الحِفْظِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]:

---

(١) ورد في أحاديث كثيرة، منها: الذكر بعد الصلاة؛ كما في حديث المغيرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ المتفق عليه؛ أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، حديث رقم (٨٤٤)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، حديث رقم (٥٩٣).

(٢) الشيخ محمد بن أحمد بن عبد القادر الحفظي الشافعي، مؤرخ نحوي أديب، من أهل عسير بجنوب المملكة العربية السعودية، كان مؤيدًا ومناصرًا لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وله مصنفات منها: الألفية الحفظية، ودرجات الصاعدين، والنفحات العنبرية، والهدية السنية، واللجام المكين، وغيرها. توفي سنة ١٢٣٧هـ. ينظر: الأعلام (٦/ ١٨)، ومعجم المؤلفين (٨/ ٢٧٨).

وَمَــنْ دَعَـا دُونَ الإِلَـهِ أَحَـدًا   أَشْـرَكَ بِـاللهِ وَلَـوْ مُحَمَّــدَا[١]

يعني: ولو دعا محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الله، فإنه يكون مشركًا؛ لأن محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدٌ من عبيد الله، له حقٌّ علينا، ولله تعالىٰ علينا حقٌّ أعظم؛ ولذلك يقول ابن القيِّم[٢]:

لِلرَّبِّ حَقٌّ لَيْسَ يُشْبِهُ غَيْرَهُ   وَلِعَبْدِهِ حَقٌّ هُمَا حَقَّانِ

فحق الله تعالىٰ هو: العبادة، وحق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو: الاتِّباع.

فعُرِفَ بذلك: أن المشركين هم الذين يجعلون العبادة مشتركة بين الخالق والمخلوق.

والشرك ينقسم إلىٰ قسمين: شرك أكبر، وشرك أصغر.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ الشرك الأكبر بقوله[٣]:

وَالشِّرْكَ فَاحْذَرْهُ؛ فَشِرْكٌ ظَاهِرٌ   ذَا الْقِسْمُ لَيْسَ بِقَابِلِ الْغُفْرَانِ

وَهُوَ اتِّخَاذُ النِّدِّ لِلرَّحْمَنِ أَيْـ   يًا كَانَ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ إِنْسَانِ

يَدْعُوهُ أَوْ يَرْجُوهُ ثُمَّ يَخَافُهُ   وَيُحِبُّهُ كَمَحَبَّةِ الدَّيَّانِ

فهذا هو الشرك الذي لا يُغْفَر، وهو الشرك الأكبر؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

---

(١) ينظر: الأرجوزة الجامعة للحفظي (ص١٠٤)، نظمها الشيخ محمد الحفظي في نصرة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ، وما جاءت به من إحياء التوحيد، والتحذير من الشرك.

(٢) ينظر: القصيدة النونية (ص٢٤٩).

(٣) ينظر: القصيدة النونية (ص٢٢٠).

والشرك في الإلهيَّة وفي العبادة هو الغالب علىٰ أهل الإشراك، وهو أكثر ما يوجد؛ فالمشركون في الأمم السابقة -وفي العرب قبل النبوَّة، وفي هذه الأمة- الغالب عليهم شرك الإلهية وشرك العبادة؛ وهو شرك عبَّاد الأصنام.

والأصنام: جمع صَنَم، وهو: كل ما عُبِدَ من دون الله؛ سواءٌ كان له جِرْمٌ وشَبَحٌ أو ليس له؛ كالذين يعبدون الملائكة، والذين يعبدون الكواكب، والذين يعبدون الجنَّ؛ كل هؤلاء جعلوهم أصنامًا(١). وكذلك الذين يعبدون المشايخ؛ كالذين يعبدون: الحسين(٢)، والجِيلاني(٣)، والبَدَويَّ(٤)، وابن عَلْوان(٥)، ونحوهم.

---

(١) ينظر: اللسان (١٢/ ٣٤٩).

(٢) هو: الحسين بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، اتخذ له عابدوه مشاهد في كل من: كربلاء، والقاهرة، ودمشق، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ٤٩٣): (بدن الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بكربلاء بالاتفاق).

(٣) هو: عبد القادر بن موسىٰ بن عبد الله بن جنكي دوست الحَسَني الجِيلاني، ولد في جيلان وراء طبرستان سنة ٤٧١هـ، ثم انتقل إلىٰ بغداد، وتفقه وسمع الحديث وتصدر للتدريس والإفتاء، وبرع في أساليب الوعظ واشتهر، وكان من كبار الزهاد، له تصانيف منها: الغنية لطالب طريق الحق، والفتح الرباني. ينظر: المنتظم (١٠/ ٢١٩)، وسير أعلام النبلاء (٢٠/ ٤٣٩).

(٤) هو: أحمد بن علي بن يحيىٰ أبو العباس البدوي، ولد بمدينة فاس بالمغرب سنة ٥٩٦هـ، من أئمة الصوفية يصفونه بأنه ثالث الأقطاب الأربعة عند المتصوفة، وتوفي في مدينة طنطا في مصر سنة ٦٧٥هـ، له مشهد في مسجد باسمه في طنطا، ويقام له احتفالان سنويًّا، وهما من أكبر الاحتفالات البدعية في مصر. ينظر: الطبقات الكبرىٰ للشعراني (١/ ١٥٨)، وشذرات الذهب (٧/ ٦٠٢).

(٥) هو: أحمد بن علوان، صفي الدين أبو العباس الصوفي اليماني، ولد في أواخر القرن السادس من الهجرة، قرأ شيئًا من النحو واللغة ونظم الشعر، وعمل كاتبًا في بعض الدواوين السلطانية وتوفي في شهر رجب سنة ٦٦٥هـ، ودفن بقرية «يفرس» من أعمال جبل حبشي محافظة تعز، وتقام زيارة سنوية لضريحه في منتصف شهر ربيع الأول من كل عام، باسم «يوم الجمع المبارك»! ينظر: الأعلام (١/ ١٧٠).

وكذلك الذين يعبدون الصالحين أحياءً وأمواتًا، قد زيَّن لهم الشيطان عبادتهم، ولكنْ لم يسمُّوها عبادة؛ لأنهم يَعْرِفون أن العبادة لاتنبغي إلا لله وحده؛ قال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ بل سمَّوْها: توسُّلًا، وتبرُّكًا، واستشفاءً، وتقرُّبًا؛ حتىٰ يتجنبوا كلمة العبادة، ولكنْ هي في الحقيقة عبادة.

فنقول لهم: سمُّوها ما شئتم؛ ألستم تتذلَّلون وتتضرَّعون وتتواضعون لهم؟! هذا التذلل والتضرع هو حقيقة العبادة؛ فقد عبدتموهم شئتم أم أبيتم.

وقد ذكر الله تعالىٰ أن الأولين يعترفون بأن فعلهم عبادة: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

فهم يعرفون دَلَالاتِ اللغة؛ ولذا اعترفوا وقالوا: ﴿نَعْبُدُهُمْ﴾، وسَمَّوْا فعلهم: عبادة، وذكروا الغرض الذي يعبدونهم من أجله، وهو: أن يقرِّبوهم إلىٰ الله، فيقولون: نحن مذنبون وبعيدون ومحجوبون، وهم مقرَّبون معزَّزون عند الله، فإذا عبدناهم ودعوناهم قربونا إلىٰ الله؛ ولذلك هم شفعاؤنا عنده؛ فهذه شبهتهم.

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، يدَّعون أنهم يَشْفَعون، أي: يطلبون شفاعتهم عند الله لهم، وقد أخبر الله أن شفاعتهم لا تنفعهم؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قال المصنِّف: (**كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة والزُّلفىٰ لمن يخدُمُ أعوان المَلِك وأقاربه وخاصَّته**)؛ فإذا كان لك حاجة عند الملك، ولم تَقْدِرْ علىٰ الوصول إليه، استشفَعْتَ بأولاده أو خدَّامه أو وزرائه أو حُجَّابه؛ حتىٰ تُقضىٰ حاجتك بواسطتهم.

وهؤلاء يقيسون الله تعالىٰ علىٰ الملوك، مع أن الملوك بشر مثلنا لا يعلمون الغيب ولا ما في القلوب؛ فكيف يقاسون بعلام الغيوب؟! والله تعالىٰ لا يحتاج إلىٰ من يعلمه بخلقه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].



الرَّدُّ على هذا الشرك من جميع الكتب الإلهيَّة وبيان أصله:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[والكتب الإلهية كلُّها من أولها إلىٰ آخرها تُبْطِلُ هذا المذهب وتَرُدُّه، وتقبِّح أهله، وتنصُّ علىٰ أنَّهم أعداء الله تعالىٰ، وجميع الرسل صلوات الله عليهم متفقون علىٰ ذلك من أولهم إلىٰ آخرهم، وما أهلَكَ الله تعالىٰ مَن أهلَكَ من الأمم إلا بسبب هذا الشرك ومن أجله[1].

وأصله: الشرك في محبة الله تعالىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ فأخبر سبحانه: أنه من أحب مع الله شيئًا غيره كما يحبُّه، فقد اتخذه ندًّا من دونه؛ وهذا علىٰ أصح القولين في الآية: أنهم يحبونهم كما يحبون الله.

وهذا هو العَدْلُ المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، والمعنىٰ علىٰ أصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة، فيسوُّون بينه وبين غيره في الحب والعبادة؛ وكذلك قول المشركين -في النار- لأصنامهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]].

الشَّرح

قال المصنِّف: (**والكتب الإلهية كلُّها -من أولها إلىٰ آخرها- تُبطلُ هذا المذهب وتَرُدُّه**) -وهو: جعل الأنداد مع الله، بعبادة المخلوقين- (**وتُقبِّح**

(١) من قوله: «والكتب الإلهية...» إلىٰ هنا، من إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/ ٣٢١-٣٢٢).

أهلَـه)؛ الذيـن يَدْعُـونَ هـؤلاء وتسـميهم: مشـركين **(وتَنُـصُّ علـىٰ أَنَّهـم أعـداء الله تعالـىٰ)**؛ لأنهـم لمـا جعلـوا عبادتهـم مشـتركة تنقَّصـوا الله تعالـىٰ وشـبهوه بالمخلوقـات وبملـوك الدنيـا وهـم بشـر.

وجميـع الرسـل عليهـم الصـلاة والسـلام -مـن أولهـم إلـىٰ آخرهـم- متفقـون علـىٰ تقبيـح هـذا الشـرك وأهلـه.

قـال: **(ومـا أهلَـكَ الله تعالـىٰ مَـن أهلَـكَ مـن الأمـم إلا بسـبب هـذا الشـرك ومـن أجلـه)**؛ فالأمـم الذيـن أهلكهـم الله كلهـم كانـوا يعبـدون غيـره؛ فقـوم إبراهيـم اعترفـوا وقالـوا: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١]؛ فقـد اعترفوا بأنهـم يعبـدون أصنامًـا، وقوم نـوح قالـوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ [نوح: ٢٣]؛ فـدلَّ علـىٰ أنَّ لهـم آلهـةً مـع الله، وقـوم هـود قالـوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ [الأعراف: ٧٠]، يعنـي: نـترك عبـادة آلهتنـا، وهكـذا قـال قـوم شُـعَيْب، وقـوم صالـح، وغيرهـم؛ فأهلَـكَ الله تعالـىٰ هـذه الأمـم بسـبب هـذا الشـرك ولأجلـه.

والأصـل في هـذا الشـرك: محبـةُ غيـر الله تعالـىٰ؛ والدليـل علـىٰ هـذا: هـذه الآيـة في سـورة البقـرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ فسـماها: أنـدادًا، والنِّـدُّ: هـو الشـبيه والمثيـل والنظيـر[1].

وفي قوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]: دلالة علىٰ أنَّهم يحبُّون الله حبًّا شديدًا، ولم يُدْخِلْهم هذا الحبُّ في الإسلام؛ لأنهم جعلوا محبة الأنداد ومحبة الله علىٰ حدٍّ سواء؛ فهم يحبُّون الأنداد مثل حبِّهم لله؛ فكيف بمن أحبهم أكثر من حب الله؟! وكيف بمن أحب الأنداد ولم يُحِبَّ الله؟!

---

(١) ينظر: اللسان (١٤/ ٨٩).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، أي: أشدُّ حبًّا لله من حب هؤلاء لله؛ لأن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة المشركين مشتركة قد أضعفها حبُّ آلهتهم؛ حيث صرَفُوا بعضها لتلك الآلهة.

والمحبة الخالصة أقوىٰ من المحبة المشتركة، ومن أحبَّ مع الله شيئًا غيره كما يحب اللهَ، فقد اتخذ ذلك المحبوب ندًّا من دون الله؛ وهذا علىٰ أصح القولين في الآية(١).

وهو -كما ذكر المصنِّف- معنىٰ العَدْل المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، هو: أنهم يجعلون لله عِدْلًا، أي: شبيهًا ونظيرًا، والمعنىٰ -علىٰ أصح القولين-: أنهم يَعْدِلُونَ به غيره في العبادة.

وأصل العَدْلِ: التسوية(٢)؛ كما في قولهم: علىٰ البعير عِدْلانِ، أي: كيسان متساويان علىٰ جَنْبَيِ البعير.

فالذين يعدلون بربهم يجعلون له عِدْلًا، أي: شبيهًا ومثيلًا، ويعدلون به غيره في العبادة؛ فيسوُّون بينه وبين غيره، يحبونهم كحب الله، ويدعونهم كدعائهم لله، ويخافونهم كما يخافون الله؛ حتىٰ إذا أُدخِلوا النار، قالوا لأصنامهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

وذلك لأن أصنامهم ومعبوداتهم تدخل معهم في النار؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

---

(١) سبق تفصيل الكلام في الآية (ص٤٢).

(٢) ينظر: المصباح المنير (٢/ ٥٤١).

وأما إذا كانوا يعبدون الأولياء والصالحين -ممن لم يرضَ بعبادتهم- فإن المراد بقوله: ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾: أنها تصوَّر لهم صورٌ شبيهةٌ بهم في النار[1].

وقيل: إنهم يعبدون الشيطان في الحقيقة؛ فما عبَدَ مَن عبَدَ غير الله سوىٰ الشيطان، فيقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]؛ فهل سوَّوْهم بالله تعالىٰ في الربوبية والخلق؟!

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٢/ ٥٣٩)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٢٤١)، وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة في هذا الكتاب (ص ١٦٤).

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[ومعلوم قطعًا: أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله في كونه ربَّهم وخالقهم؛ فإنهم كانوا -كما أخبر الله عنهم- مقرِّين بأن الله تعالىٰ وحده هو ربهم وخالقهم، وأن الأرض ومن فيها له وحده، وأنه رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، وأنه سبحانه هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه.

وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبينه تعالىٰ في المحبة والعبادة؛ فمن أحب غير الله تعالىٰ، وخافه، ورجاه، وذَلَّ له، كما يحب الله، ويخافه، ويرجوه، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله؛ فكيف بمن كان غيرُ الله آثَرَ عنده منه، وأحبَّ إليه، وأخوف عنده، وهو في مرضاته أشدُّ سعيًا منه في مرضاة الله؟![1].

فإذا كان المسوِّي بين الله وبين غيره في ذلك مشركًا، فما الظن بهذا؟! فعياذًا بالله من أن ينسلخ القلب من التوحيد والإسلام كانسلاخ الحية من قشرها، وهو يظن أنه مسلم موحِّد؛ **فهذا أحد أنواع الشرك**[2]].

الشَّرح

معلومٌ قطعًا: أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله تعالىٰ في الربوبية ولا في الخلق؛ بل هم معترفون بأن الله هو الربُّ الخالق؛ كما أخبر الله تعالىٰ عنهم في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[الزخرف: ٨٧]، ويعترفون بأن الأرض وما فيها لله

(١) ينظر: مدارج السالكين (١/ ٣٣٩).

(٢) وهو الشرك في العبادة والألوهية. ينظر: مدارج السالكين (٣/ ٢٠-٢٢).

وحده؛ قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٥]، وكذلك يعترفون بأن الله تعالىٰ رب السَّمَوَاتِ السبع ورب العرش؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧]، ويعترفون بأنه سبحانه بيده ملكوت كل شيء؛ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨-٨٩].

وهكذا تبيِّن هذه الآيات التي جاءت في سورة (المؤمنون): أنهم مقرون بربوبية الله، وأنهم لم يسوُّوا بين الله ومعبوداتهم في الربوبية والخلق، وأن هذه التسوية إنما كانت في المحبة والعبادة.

فمن أحب أو تذلَّل أو خاف أو رجا غير الله، فسوَّىٰ محبته لله بمحبته لهذا الند، أو خافه كما يخاف الله، أو رجاه كما يرجو الله، فهذا هو المشرك، وقد أشرك الشرك الذي لا يغفره الله.

هذا في التسوية؛ فكيف بمن كان غير الله -من الأنداد، والأولياء، والصالحين- أقرَبَ في قلبه، وأحب إليه، وأخوف عنده من الله؟!

وقد ذُكِرَ عن رجل كانت له قضية عند أحد القضاة، فقال خصمه: لا بد أن يَحْلِف؛ فحلف بالله أيمانًا بالغةً، فقال الخصم: لا أَرْضَىٰ إلا أن يحلف بالوَلِيِّ -أي: فلان الذي كان يعظِّمه-، فلما ألجأه إلىٰ ذلك أحجم وترك الحلف بالوليِّ، واعترف بالحق؛ فلمَّا كان قدر الله في قلبه ضعيفًا، وقدر الولي عظيمًا، حلف بالله كاذبًا، ولم يحلف بالولي وهو كاذب.

فإذا كان الذي يسوِّي بين الله وبين غيره في ذلك مشركًا، فما الظن بمن يفضِّل المخلوق علىٰ الخالق؟!

وعياذًا بالله من أن ينسلخ القلب من التوحيد؛ فإن القلب إذا انسلخ من معرفة الله وتوحيده، حلَّ فيه الشك والكفر. وعياذًا بالله أن ينسلخ القلب من الإسلام كانسلاخ الحيَّة من قِشْرها؛ لأنه إذا كان كذلك، لم يَبْقَ في القلب إيمان، وهو مع ذلك يقول: (أنا مسلم موحِّد)! وكيف يكون موحِّدًا والمخلوقون أعظم في قلبه من الله؟! هذا أحد أنواع الشرك: الشرك في الألوهية.



الأدلة على توحيد الإلهية:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[والأدلة الدالة على أنه تعالى يجب أن يكون وحده هو المألوه، تُبطِلُ هذا الشرك، وتُدْحِضُ حجج أهله، وهي أكثر من أن يحيط بها إلا الله تعالى؛ بل كل ما خلقه الله تعالى، فهو آية شاهدة بتوحيده، وكذلك كل ما أمر به.

فخَلْقُهُ وأمره، وما فطَرَ عليه عباده وركَّب فيهم من العقول: شاهد بأنه الله الذي لا إله إلا هو، وأن كل معبود سواه باطل، وأنه هو الحق المبين تقدَّس وتعالى:

وَوَاعَجبًا كَيْفَ يُعْصَىٰ الإِلَـ	ـهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ؟!
وَللهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ	وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ	تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ].

الشَّرح

قال المصنِّف: (**والأدلة الدالة على أنه تعالى يجب أن يكون وحده هو المألوه؛ تُبطِلُ هذا الشرك**)، وهي كثيرة جدًّا.

منها: الأدلة التي ورد فيها: (لا إله إلا الله)؛ مثل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

فهـذه الأدلـة وغيرهـا تُبطِـلُ الشـرك، وتُدْحِـضُ حجـج أهلـه الذيـن يقولـون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

والأدلـة أكثـر مـن أن يحيـط بهـا أحـد؛ ومنهـا قولـه تعالـىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]، وقولـه تعالـىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦].

وكلُّ شيء خلقه الله فإنه آية شاهدة علىٰ توحيده، وكذلك كلُّ ما أمر به فإنه آية دالَّة علىٰ توحيده؛ فخَلْقُ الله وأمره من آياته الدالة علىٰ توحيده، وما فطر الله عليه عباده -من معرفته وما ركَّبه فيهم من العقول- تشهد بأن الله تعالىٰ لا إله غيره، وتدل بأن كل معبود غيره باطل، وأن الله تعالىٰ هو الحق المبين، تقدَّس وتعالىٰ.

وقـد ذكـر المصنِّـف أبياتًـا تـدل علـىٰ هـذا المعنـىٰ أوردهـا ابـن كَثِيـر[(١)] عنـد تفسـير قولـه تعالـىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، ونسـبها لابـن المعتـز[(٢)] -وهـو شـاعر مُجِيـد مـن أبنـاء الخلفـاء من بنـي العبـاس- يقـول فيهـا:

فَيَـا عَجَبًـا كَيْـفَ يُعْصَـىٰ الْإِلَـ ـهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِـدُ؟!
وَلِلَّــهِ فِـي كُـلِّ تَحْـرِيكَةٍ وَتَسْكِينَـةٍ أَبَـدًا شَاهِـدُ

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٣١٢)، والمشهور أنها لأبي العتاهية، وهي في ديوانه (١٢٢)، ونسبها له أبو منصور الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص١١)

(٢) أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله، أمير المؤمنين محمد بن جعفر، كان متقدمًا في الأدب، غزير العلم، حسن الشعر، توفي مقتولًا سنة ٢٩٦هـ. ينظر: تاريخ بغداد (١٠/ ٩٥)، وسير أعلام النبلاء (١٤/ ٤٢).

وَفِـي كُـــلِّ شَـيْءٍ لَــــهُ آيَـةٌ تَـــدُلُّ عَلَــىٰ أَنَّــهُ وَاحِـــدُ!

يعنـي: عجيـبٌ مـن العاقــل أن يعصـي الله، وأن يجحـد حقـه! وكل مـا يكـون مـن الحـركات والسـكنات في هـذا الكـون شـاهد بأنـه تعالـىٰ هـو وحـده الإلـه الحق، وفي كل المخلوقـات -صغيرهـا وكبيرهـا- آيـةٌ تـدل علىٰ وحدانيـة الخالـق سـبحانه.

فـإذا تأمَّلـت البعوضـة، أو الـذرَّة، أو الفيـل، أو النَّعَـام، أو الجِمَـال، أو الجبال، أو السُّـحُب، ونحوهـا، وجـدتَّ فيهـا آيـةً تـدل علىٰ قـدرة خالقهـا وحكمتـه ووحدانيتـه.

ويقول أيضًا أحد الشعراء[1]:

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الأَرْضِ وَانْظُـرْ إِلَـىٰ آثَـارِ مَـا صَنَـعَ الْمَلِيـكُ

عُـيُونٌ مِـنْ لُجَيْـنٍ شَاخِصَـاتٌ بَأَحْـدَاقٍ هِـيَ الذَّهَـبُ السَّـبِيكُ

عَلَىٰ قُضُـبِ الزَّبَرْجَدِ شَـاهِدَاتٌ بِـأَنَّ اللهَ لَيْـسَ لَـهُ شَـرِيكُ

---

(١) نسـبها ابـن عسـاكر في تاريـخ دمشـق (١٣/ ٤٦٥)، وابـن كثيـر في التفسـير (١/ ١٩٨)، والبدايـة والنهايـة (١٤/ ٨٤)، إلـىٰ أبي نُـواسٍ.

النوع الثاني: الشرك في الربوبية:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[والنوع الثاني من الشرك: الشرك به تعالىٰ في الربوبية[(١)]:

كشرك من جعل معه خالقًا آخر؛ **كالمجوس وغيرهم**، الذين يقولون: بأن للعالم ربَّيْن:

أحدهما: خالق الخير، ويقولون له بلسان الفارسية: (يَزْدَان).

والآخر: خالق الشر، ويقولون له بلسانهم[(٢)]: (أَهْرَمَن)[(٣)].

وكالفلاسفة ومن تبعهم الذين يقولون: بأنه لم يصدُرْ عنه إلا واحد بسيط، وأن مصدر المخلوقات كلها عن العقول والنفوس، وأن مصدر هذا العالم عن العقل الفعَّال؛ فهو ربُّ كل ما تحته ومدبِّره[(٤)].

وهذا شرٌّ من شرك عُبَّاد الأصنام والمجوس والنصارىٰ، وهو أخبث شرك في العالم؛ إذ يتضمن -من التعطيل، وجحد إلهيته سبحانه وربوبيته، واستناد الخلق إلىٰ غيره سبحانه- ما لم يتضمنه شِرْكُ أمة من الأمم].

الشَّرح

تقدم النوع الأول -وهو: شرك العبادة أو الإلهية- وهذا هو النوع

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ (١/ ٩٢).

(٢) المثبت من إحدىٰ النسخ، وفي ط علي العمران: «ويقولون له المجوس» وهو جار علىٰ لغة أكلوني البراغيث، وفي النسخة الثالثة: «ويقول له المجوس بلسانهم»، وهي أيضًا صواب، ولكنَّ فيها تكرارًا.

(٣) ينظر: مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٩٧).

(٤) ينظر: مجموع الفتاوىٰ (٣/ ١١٣)؛ وفيه الرد عليهم.

الثاني: الشرك في الربوبية؛ فأصحاب هذا الشرك جعلوا معبوداتِهم أربابًا، أو جعلوا مع الله ربًّا يخلُقُ ويرزق ويدبر الأمر. وهؤلاء أكفر من الأولين الذين يقرون بأن الله هو الخالق الرازق وحده؛ كما أخبر الله عنهم في قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

فالمشركون الأولون يقرُّون بأن الله هو الخالق الرازق، أما هؤلاء المجوس وغيرهم، فجعلوا مع الله أربابًا يخلُقُون ويدبِّرون.

فيقولون: إن للعالم ربين:

أحدهما: خالق الخير، يسمونه: (يَزْدَان).

والثاني: خالق الشر، يسمونه: (أَهْرَمَن).

وأكثرهم يعبرون عنهما بـ: (النور والظلمة)؛ فالنور خلق الخير، والظلمة خلقت الشر؛ فهذا شرك المجوس جعلوا الخالق اثنَيْن[(١)].

كذلك الفلاسفة ومن تبعهم الذين يقولون: بأنه لم يصدُرْ عن الله إلا واحد بسيط، ويقولون: (إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد).

وهذه العبارة التي يردِّدونها مردودة عليهم؛ من جهة أنه ليس من المخلوقات أحد يصدر عنه شيء لا واحد ولا اثنان، وإنما الجميع بتقدير الله تعالىٰ.

---

(١) ينظر: الملل والنحل (٢/ ٣٨).

وهـؤلاء الفلاسـفة يُسَـمَّوْنَ: (الفلاسـفة الإلهييـن)؛[١] -وهـم أتبـاع أرسطو- يثبتون إلهًا خالقًا، ولكنهم يقولون: إن هذا الخلقَ قديم ليس له بداية، وليس للبشر أوَّل، وينكرون انقضاء الدنيا، ويدَّعون أن هذا الخلق لا يفنىٰ بل هو باقٍ؛ فينكرون بعث الأجساد، ويقولون: (إنما هي أرحام تدفع، وأرض تبلع)، وليس لهم بداية ولا نهاية.

وهؤلاء كفَّار؛ حيث أنكروا مبدأ الخلق، وقالوا: ليس هناك رجل اسمه آدم خُلِقَ من تراب، وأن جنسه موجود ليس له بدء. وكذلك أيضًا الحيوانات ليس لها أول؛ فالأنعام والحشرات ونحوها لم تزل موجودة من غير بدء.

وهناك قسم آخر من الفلاسفة وهم: (الطبائعيون)[٢]، الذين ينكرون الخالق، فيجعلون الأمر مستندًا للطبائع؛ فالطبيعة -عندهم- هي التي تؤثِّر في هذا الكون؛ ويقول فيهم بعض المعاصرين:

يَرَىٰ الطَّبِيعَةَ فِي الْأَشْيَا مُؤَثِّرَةً   أَيْنَ الطَّبِيعَةُ يَا مَخْذُولُ إِذْ وُجِدُوا؟![٣]

هؤلاء الفلاسفة يرون أن مصدر المخلوقات كلها عن العقول والنفوس، وأن هذا العالم يصدُرُ عن (العقل الفعَّال)، ويقصدون بـ (العقل الفعَّال): الخالق للعالم الذي نحن فيه.

---

(١) ينظر: الملل والنحل (٢/ ٦١)، وغاية المرام في علم الكلام (ص٢٩٣).

(٢) الطبائعيون: قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة، وزعموا أن النفس تموت ولا تعود، وجحدوا الآخرة والجنة والنار. ينظر: تلبيس إبليس (ص٤٩).

(٣) القائل هو: الشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والبيت من منظومته: الجوهرة الفريدة في تحقيق العقيدة (ص٣٤).

وقد ردَّ عليهم العلماء، ومنهم: شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المجلد الثالث من «مجموع الفتاوىٰ»[١]، وفي مواضع أخرىٰ من كتبه[٢].

وهذا الشرك شرٌّ من شرك عبَّاد الأصنام، ومن شرك المجوس.

فشرك هؤلاء الفلاسفة أخبث شرك في العالم؛ وذلك لأنه يتضمن: تعطيل الوجود عن خالق ومدبِّر، ويتضمن: جحد إلهية الله وربوبيته سبحانه؛ فأصحابه يُسْنِدُونَ الخلق إلىٰ غير الله تعالىٰ من العقول، أو الطبيعة، وهذا لم يتضمنه شرك أمةٍ من الأمم؛ بل الأمم كلها تعترف بربوبية الله، وإنما كان شركها في العبادة.

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ (٣/ ١١٣).

(٢) ينظر: الصفديَّة (١/ ٨-١٣٥)، (٢/ ٢٥١-٢٦٠، ٣٣٤-٣٣٧)، وبيان تلبيس الجهمية (٥/ ٢٢٠-٢٨٦)، ودرء تعارض العقل والنقل (٥/ ١٦٨، ٣٨٤)، وغيرها.

دخول شرك القدرية في هذا النوع:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[وشـرك القدريـة مختصَـرٌ مـن هـذا، وبـابٌ يُدخَـلُ منـه إليـه، ولهـذا شبههم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بالمجوس؛ كما ثبت عن ابن عمر[1] وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ[2]، وقد روىٰ أهل السنن فيهم ذلك مرفوعًا: «أَنَّهُمْ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ»].

الشَّرح

القدرية من هذه الأمة يعترفون بالله ربًّا وإلهًا وخالقًا، ولكنهم يقولون: إن الله لا يخلق أفعال العباد -ومنها المعاصي- لأنه لو خلقها ثم عاقب عليها، لكان ظالمًا؛ فلذلك يقولون: (إن العبد يخلق فعله، وإن الله لا يقدر علىٰ أن يَهْدِيَ، ولا أن يُضِلَّ)؛ فشرك القدرية مختصر من شرك المجوس.

وثبت أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ شبهوا القدرية بالمجوس؛ كما جاء ذلك عن ابن عمر، وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ أنهم يقولون: «**الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ**»، الذين يقولون: لا قَدَرَ.

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٢/ ٤٣٣)، والطبري في صريح السنة (ص٢١)، وابن بطة في الإبانة (٣/ ٢٢٤)، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦٤٣)، والبيهقي في القضاء والقدر (ص٢٨٢).

(٢) أخرجه اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٧٦٨).

وروي في ذلك حديث مرفوع رواه أهل السنن؛ أنهم: «**مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ**»؛ رواه أبو داود، وابن أبي عاصم في «السنة»، والحاكم، واللالكائي، عن ابن عمر، وقال الحاكم:(حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين؛ إن صح سماع أبي حازم من ابن عمر، ولم يخرِّجاه)[(١)].

وله شواهد عن جماعة من الصحابة لا تخلو أسانيدها من مقال.

وقال ابن القيِّم: (إنه قد روي عن جماعة من الصحابة، منهم: ابن عمر، وحذيفة، وابن عباس، وجابر، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ورافع بن خدِيج)[(٢)]، ثم تكلم علىٰ أسانيدها، وأنها لا تخلو من مقال.

والصحيح: أنه موقوف، ولم يثبت مرفوعًا[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، حديث رقم (٤٦٩١)، وابن أبي عاصم في السنة (٣٣٨)، والحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان (١/ ١٥٩) واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٧٠٧).

(٢) ينظر: تهذيب السنن (٤/ ٢١١١).

(٣) ينظر: العلل للدارقطني (١٣/ ١٠٢).

اجتماع شِرْكَيٍّ: الربوبيَّة والألوهيَّة، وانفرادهما

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[وكثيرًا ما يجتمع الشركان في العبد، وينفرد أحدهما عن الآخر.

والقرآن الكريم؛ بل الكتب المنزَّلة من عند الله تعالىٰ، كلها مصرِّحة بالرد علىٰ أهل هذا الإشراك؛ كقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥]؛ فإنه ينفي شرك المحبة والإلهية، وقولِهِ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]؛ فإنه ينفي شرك الخلق والربوبية.

فتضمَّنت هذه الآية تجريد التوحيد لرب العالمين في العبادة، وأنه لا يجوز إشراك غيره معه؛ لا في الأفعال، ولا في الألفاظ، ولا في الإرادات[1]].

الشَّرح

كثيرًا ما يجتمع شرك الربوبية وشرك الألوهية في العبد، وقد ينفرد أحدهما عن الآخر؛ فيكون هذا فيه شرك ربوبية، وهذا فيه شرك إلهية.

والصواب: أن أصحاب شرك الإلهية الذين يعبدون غير الله هم الأكثر، ومنهم القبوريون الذين يعبدون الأموات.

والقرآن والكتب المنزَّلة من عند الله تعالىٰ كلها مصرِّحة بالرد علىٰ أهل شرك الإلهية وشرك الربوبية:

---

(١) ينظر: الجواب الكافي (ص١٩٦-٢٠٠).

فالشرك في الإلهية يرده قول الله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

والشرك في الخلق والربوبية يرده قوله تعالىٰ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ فإن الربَّ هو المستعان، وهو الذي يَقْدِرُ علىٰ أن يعين عباده ويثيبهم.

وهذه الآية -﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]- تضمَّنت تجريد التوحيد كله لربِّ العالمين في العبادة.

فلا يجوز إشراك غير الله معه؛ لا في الأفعال، ولا في الألفاظ، ولا في الإرادات والنيَّات؛ لأن الله تعالىٰ له الإلهية والعبادة كلها:

* فلا يشاركه أحد في الأفعال -كالركوع والسجود وغيرهما- ولا يشاركه أحد في الكلمات التي يُتَعَبَّدُ بها لله؛ فلا يقال: (سبحان الله ورسوله)، ولا يقال: (الحمد لله ورسوله) ولا يقال: (الله ورسوله أكبر)، وأشباه ذلك.

* ولا يشاركه أحد في الإرادات والنيات؛ كما في الرياء وغيره؛ فلا ينبغي أن يراد بالعمل الصالح غير وجه الله تعالىٰ.

وسيأتي تفصيل ذلك كلِّه؛ إن شاء الله تعالىٰ[1]



(١) ينظر: (ص ١١٠).

١- الشرك في الأفعال:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[فالشـرك بـه في الأفعـال: كالسـجودِ لغيـره سـبحانه، والطـوافِ بغيـر البيـت المحـرَّم، وحَلْقِ الـرأس عبوديـةً وخضوعًـا لغيـره، وتقبيـلِ الأحجـارِ غيـرِ الحجـرِ الأسـودِ الـذي هـو يمينـه تعالـىٰ في الأرض، أو تقبيـلِ القبـور، واسـتلامِها، والسـجودِ لهـا.

وقـد لعـن النبـي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مـن اتخـذ قبـور الأنبيـاء والصالحيـن مسـاجد يصلِّي لله فيهـا؛ فكيـف مـن اتخـذ القبـور أوثانًـا تُعْبَـدُ مـن دون الله؟! فهـذا لـم يَعْلَـمْ معنـىٰ قـول الله تعالـىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وفي «الصحيـح»(١) عنـه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ أنـه قـال: «**لَعَـنَ اللهُ الْيَهُـودَ وَالنَّصَـارَىٰ؛ اتَّخَـذُوا قُبُـورَ أَنْبِيَائِهِـمْ مَسَـاجِدَ**»، وفيـه(٢) عنـه أيضًـا: «**إِنَّ مِـنْ شِـرَارِ النَّـاسِ مَـنْ تُدْرِكُهُـمُ السَّـاعَةُ وَهُـمْ أَحْيَـاءٌ، وَالَّذِيـنَ يَتَّخِـذُونَ الْقُبُـورَ مَسَـاجِدَ**».

---

(١) أخرجـه البخـاري، كتـاب الجنائـز، بـاب مـا يكـره مـن اتخـاذ المسـاجد علـىٰ القبـور، حديـث رقـم (١٣٣٠)، ومسـلم، كتـاب المسـاجد ومواضـع الصـلاة، بـاب النهـي عن بنـاء المسـاجد علـىٰ القبـور، حديـث رقـم (٥٢٩)، عـن عائشـة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، ولفظـه عنـد البخـاري (١٣٣٠): «**اتخـذوا قبـور أنبيائهـم مسـجدًا**»؛ بالإفـراد.

(٢) أخرجـه أحمـد في مسـنده، حديـث رقـم (٣٨٤٤)، وابـن خزيمـة، كتـاب الصـلاة، بـاب الزجـر عـن اتخـاذ القبـور مسـاجد (٧٨٩)، وابـن حبـان، كتـاب التاريـخ، بـاب البيـان بـأن مـن أدرك السـاعة وهـو حـي كان مـن شـرار النـاس، حديـث رقـم (٦٨٤٧)، والطـبراني في المعجـم الكبيـر (١٠/ ٢٣٢)، عـن ابـن مسـعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقـال ابـن تيميـة في اقتضـاء الصـراط المسـتقيم (٢/ ٦٧٤): «بإسـناد جيـد». وقول المصنِّف: (وفيه)، فيه إيهام بأن الحديث في الصحيح، وليس كذلك، كما سبق.

وفيه[1] أيضًا عنه ﷺ: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ؛ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

وفي مسند الإمام أحمد، وصحيح ابن حِبَّانَ عنه ﷺ: «لَعَنَ اللهُ زَوَّارَتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ»[2]، وقال: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[3].

وقال: «إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا إِذَا مات فيهمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكِ الصُّوَرَ؛ أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ»[4]].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد علىٰ القبور، حديث رقم (٥٣٢)، عن جندب بن عبد الله البَجَلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) هكذا أورد المصنف الحديث، وقد رواه أحمد في المسند بلفظ: **«أن رسول الله ﷺ لعن زورات القبور»**، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ برقم (٨٤٤٩)، ورواه من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، حديث رقم (٢٠٣٠)، بلفظ: **«لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور..»**، الحديث. وروىٰ ابن حبان حديث أبي هريرة في كتاب الجنائز، باب لعن المصطفىٰ ﷺ زائرات القبور، حديث رقم (٣١٧٨)، بلفظ: **«لعن الله زائرات القبور»**، وروىٰ حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بلفظ أحمد في كتاب الجنائز، باب الزجر عن زيارة القبور، حديث رقم (٣١٨٠). وأما لفظ المؤلف فلم أجده بتمامه، وإنما روىٰ أوله فقط أبو داوود الطيالسي في مسنده، حديث رقم (٢٤٧٨)، ورواه أبو يعلىٰ الموصلي في مسنده، حديث رقم (٥٩٠٨)، كلاهما بلفظ: **«لعن الله زوارات القبور»** من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. [وكتبه عبد الرحمن ابن الشيخ عبد الله بن جبرين عفا الله عنه وعن والديه].

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٧٢)، عن عطاء بن يسار، مرسَلاً. وأخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٥٨٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (٧٥٤٤)، عن زيد بن أسلم، مرسَلًا.

(٤) لم أجده بهذا اللفظ، وقد أخرج البخاري، كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد، حديث رقم (٤٢٧)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد علىٰ القبور، حديث رقم (٥٢٨)، حديثًا عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وصدره: (أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا....). الحديث.

الشَّرح

السجود لغير الله، والطواف تعبُّدًا بغير بيت الله: شرك في الأفعال، وكذلك حلق الرأس عبوديةً لغير الله: شرك في الأفعال؛ لأن حلقه بعد النسك عبادة؛ فالذين يحلقون رؤوسهم عند القبور، أو يصلُّون أو يطوفون ويخضعون لها ويتذللون، فإنهم بذلك قد عبدوها وأشركوا بالله، وكل هذه الأفعال شرك؛ لأنها عبادات صُرِفَتْ لغير الله.

ومثله: تقبيل العَتَبات والقبور والأنصاب، واستلامها أو السجود لها تعبُّدًا؛ فهو أيضًا شرك بالله؛ لأن الميت انتقل من الدنيا وانقطع عمله، والقبر إنما هو تراب أو أحجار، فليس شيء من الجمادات يقبَّل تعبدًا إلا الحجر الأسود؛ قال ابن عباس: «**الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللهِ فِي الْأَرْضِ**»[(١)]، فلا تُقَبَّلُ علىٰ وجه الأرض -تعبُّدًا- بنايةٌ إلا هذا الحَجَرَ.

وقد لعن النبي ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلِّي لله فيها، ثبت ذلك في آخر حياته؛ كما في حديث عائشة رضي الله عنها: لما نُزِلَ برسول الله ﷺ، طَفِقَ يَطْرَحُ خميصةً علىٰ وجهه، فإذا اغتمَّ كشَفَها، فقال وهو في سَكَراتِ الموت: «**لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ؛ يُحَذِّرُ مِثْلَ الَّذِي صَنَعُوا**»؛ فمن اتخذها مساجد يصلي فيها لله، استحق هذا اللعن؛ فكيف بمن اتخذها أوثانًا تعبد من دون الله؟!

---

(١) أخرجه الأزرقي في أخبار مكة (١/ ٢٥٨)، موقوفًا علىٰ ابن عباس، وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ٣٢٨)، عن ابن عباس مرفوعًا. قال ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢٣٦): «وهو معروف من كلام ابن عباس، ورُوِيَ مرفوعًا؛ وفي رفعه نظر»، وقال ابن حجر في المطالب العالية (٦/ ٤٣٢): «هذا موقوف صحيح». وانظر الكلام عليه في: العلل المتناهية (٢/ ٥٧٥)، وفيض القدير (٣/ ٤١٠).

وهذا يقع في الذين جعلوا القبور داخل المساجد، وإن قصدوا التبرُّك ببقعة في المساجد؛ لأن ذلك قد يؤول إلىٰ عبادتها والتمسح بها وندائها من دون الله؛ فهؤلاء لم يعلموا معنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ولم يستحضروا أن العبادة لله تعالىٰ وحده، ولا عَرفُوا المراد من: ﴿نَعْبُدُ﴾.

وقوله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ**»؛ وإنما كانوا شرار الناس؛ لأنهم عظَّموا القبور واتخذوها مساجد يُصلَّىٰ ويُسجَدُ عندها.

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**وفيه أيضًا عنه** ﷺ: «**إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ؛ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»)، وفي رواية: «**اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**».

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «كتاب التوحيد»[1]: (فقد نهىٰ عنه آخر حياته قبل موته بخمسٍ، ثم إنه لعَنَ -وهو في السِّيَاق- مَن فعله. والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يُبْنَ مسجدٌ).

فالذين يَتَحَرَّوْنَ الصلاة عند القبور، قد اتخذوها مساجد، فإذا قالوا: ما بنينا عليها مسجدًا بمحراب، قلنا لهم: إن كل موضع يُتَحَرَّىٰ للصلاة، فإنه مسجد، وكل موضع يصلَّىٰ فيه يسمَّىٰ مسجدًا؛ فقد قال ﷺ: «**وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**»[2].

(١) ينظر: كتاب التوحيد (ص٤٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التيمم، باب التيمم، حديث رقم (٣٣٥)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم (٥٢١)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وفي «مسند الإمام أحمد»، و«صحيح ابن حِبَّانَ» عنه ﷺ؛ أنه قال: «**لَعَنَ اللهُ زُوَّارَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ**». واللعنُ: الطَّرْدُ والإبعاد من رحمة الله، والزَّوَّاراتُ: هن النساء اللاتي يُكْثِرْنَ زيارة القبور.

والحديث دليل علىٰ أنَّ فعلهنَّ هذا ذنب ومعصية، والمتخذون عليها المساجد: هم الذين يبنون عليها مساجد، أو: الذين يدفنون موتاهم في المساجد.

والذين يُسْرِجُونها، أي: يجعلون عليها سُرُجًا ومصابيح بالليل، وكل ذلك سبب في تعظيمها.

وفي قوله ﷺ: «**اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»: دليل علىٰ أنهم يستحقُّون غضب الله الذي يقتضي عقوبته، والحديث في «موطَّأ مالك»، و «مصنف عبد الرزاق»[1]، وله شاهد عند الإمام أحمد بلفظ مقارب، وإسناده لا بأس به[2].

وفي «الصحيحين»، عن عائشة أمِّ المؤمنين؛ أن أمَّ حبيبة وأمَّ سلمة ذكرتا كنيسةً رأَيْنَهَا بالحَبَشةِ فيها تصاويرُ، فذكَرَتا للنبيِّ ﷺ، فقال: «**أُولَئِكِ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، فَأُولَئِكِ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»، أي: كلما مات واحد ودُفِنَ نصبوا صورته عليه، ثم لا يزالون يعظِّمونه، فأخبر أنهم: «**شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ**»؛ وذلك لتعدِّيهم وتسبُّبهم في عبادة تلك الصور وأولئك الأموات.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٧٢)، عن عطاء بن يسار، مرسَلًا، وأخرجه عبد الرزاق في المصنِّف برقم (١٥٨٧)، وابن أبي شيبة في المصنف برقم (٧٥٤٤)، عن زيد بن أسلم، مرسَلًا.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (٧٣٥٨)، وقال أحمد شاكر في تعليقه علىٰ المسند: «صحيح».

أقسام الناس في زيارة القبور:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[والناس في هذا الباب -أعني: زيارة القبور- ثلاثة أقسام:

قومٌ يزورون الموتىٰ؛ فيَدْعُون لهم؛ وهذه هي الزيارة الشرعية.

وقومٌ يزورونهم؛ يَدْعُون بهم؛ وهؤلاء هم المشركون، وجَهَلةُ العوامِّ والطَّغَامُ من غلاتهم.

وقومٌ يزورونهم؛ فيَدْعُونهم أنفسهم، وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**»(١)؛ وهؤلاء هم المشركون في الربوبية].

الشَّرح

الناس في زيارة القبور ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قوم يزورون الموتىٰ، ويدعون الله لهم؛ وهذه هي الزيارة الشرعية التي حث عليها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه، وكان في أول الأمر قد نهاهم عنها؛ لأنهم حديثو عهد بالإسلام، ثم بعد ذلك رخَّص لهم فيها، وقال: «**كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الْآخِرَةَ**»(٢)، أي: يتذكَّرون بها الموت وما بعده.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (٧٣٥٨)، والحميدي في مسنده، حديث رقم (١٠٥٥)، وأبو يعلىٰ في مسنده، حديث رقم (٦٦٨١)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار، حديث رقم (٧٨٢٢)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. قال البوصيري في إتحاف الخيرة (٣/ ٢٦٠): «رجاله ثقات».

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربَّه عَزَّ وَجَلَّ في زيارة قبر أمه، حديث رقم (٩٧٧)، والترمذي، كتاب الجنائز، باب الرخصة في زيارة القبور، حديث رقم (١٠٥٤)، واللفظ له، عن بُرَيْدة بن الحُصَيْب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وعلَّمهم أن يقولوا: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ؛ أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ، وَنَحْنُ لَكُمْ تَبَعٌ؛ فَنَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ**»[1]، وأن يقولوا: «**اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُمْ، وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُمْ**»[2]، وإن زاد فقال: «**اغْفِرْ لَنَا وَلَهُمْ**»، كان حسنًا[3]؛ فتكون الزيارة لمقصدين: تذكُّر الآخرة، والدعاء للموتىٰ.

القسم الثاني: من يزورون الموتىٰ يَدْعُونَ بهم، يعني: يتوسَّلون بهم، ويقولون: أسالك بحق السيد فلان، أو: بحق الميت فلان، فهم يدعون الله، ولكنهم يجعلون الموتىٰ وسائط يدعون بهم، وهؤلاء مشركون ومن جهلة العوام والطغام الذين لا علم عندهم ولا بصيرة، ولو كانوا غير قاصدين عبادتهم؛ فإنهم إذا دَعَوُا الله بهم فقد توسَّلوا بمخلوق لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، وكان عليهم أن يَدْعُوا الله تعالىٰ وحده بأسمائه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، أي: ادعوه بأسمائه.

القسم الثالث: قوم يزورون القبور، فيَدْعُونَ الأموات أنفسهم إذا زاروهم؛ فيقولون: (يافلان، انفعنا يافلان، ارفع درجاتنا، اشف مرضانا، رُدَّ غائبينا)؛ وهؤلاء هم المشركون في الربوبية؛ لأنهم جعلوهم أربابًا من دون الله، وقد تقدم قول النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**».

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، حديث رقم (٩٧٥)، والنسائي، كتاب الجنائز، باب الأمر بالاستغفار للمؤمنين، حديث رقم (٢٠٤٢)، واللفظ له، عن بُرَيْدة بن الحُصَيْب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده حديث رقم (٢٤٤٢٥)، والنسائي في السنن الكبرىٰ، كتاب عشرة النساء، باب الغيرة، حديث رقم (٨٨٦٣) وابن ماجه، كتاب الجنائز، باب فيما يقال إذا دخل المقابر، حديث رقم (١٥٤٦)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) ينظر: المغني (٣/ ٥١٨).

فالحاصل: أن هؤلاء يدعون الأموات؛ فيكونون مشركين تجاوزوا شرك الألوهية إلىٰ الشرك في الربوبية.





حماية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَنَابَ التوحيد:

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

[وقد حَمَىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جانب التوحيد أعظم حماية؛ تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

حتىٰ نهىٰ عن الصلاة في هذين الوقتين[1]؛ لكونها ذريعة إلىٰ التشبه بعبَّاد الشمس الذين يسجُدُونَ لها في هاتين الحالتين.

وسدَّ الذريعةَ بأنْ منَعَ من الصلاةِ بعد العصر والصبح؛ لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجُدُ المشركون فيهما للشمس.

وأما السجود لغير الله، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، إِلَّا لِلَّهِ**»[2].

و(لا ينبغي) في كلام الله ورسوله، إنما يُستعمَلُ للذي هو في غاية الامتناع؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: ١٨]].

---

(١) لم يسبق للوقتين ذكر في كلام صاحب المتن، وهي عبارة ابن القيم في إعلام الموقعين (٣/ ١١٢)، ونقلها عنه المصنِّف هنا بتصرف.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وقد ذكر الشيخ في الشرح ألفاظه المشهورة.

الشَّرح

قال المصنِّف: (**وقد حَمَىٰ النبيُّ ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية؛ تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾** [الفاتحة: ٥]).

فمن حمايته لجناب التوحيد: النهيُ عن الصلاة عند القبور، والنهيُ عن إسراجها وتشييدها ورفعها فوق المعتاد، فأمر بتسويتها؛ كما في حديث: «**لَا تَدَعْ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ**»(١)؛ وذلك مخافة أن يُظَنَّ أنَّ هذا القبرَ له خصوصية، فإذا رُئِيَ مُسرجًا طوال الليل، أو مجصَّصًا أو مرفوعًا، ظَنَّ الجاهل أنه قبر سيِّد له خصوصية دون غيره؛ فيكون في ذلك فتنة.

ومن حماية النبيِّ ﷺ لجانب التوحيد: أنه نهىٰ عن الصلاة في وقتين: بعد العصر، وبعد الفجر؛ مخافة أن تكون الصلاة ذريعةً إلىٰ التشبه بعبَّاد الشمس؛ فإن المشركين يسجدون للشمس عند طلوعها وعند غروبها؛ فنهىٰ عن الصلاة في هذين الوقتين حتىٰ لا يُتشبَّهَ بهم(٢).

والمسلم لا يُظَنُّ به أنه يعظِّم الشمس، ولا أنه يسجُدُ لها، ولكنه ﷺ خاف علىٰ الأمة أن يتمادىٰ بهم الأمر إلىٰ أن يتوهَّم جهلتهم أنهم يعبدون الشمس.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر، حديث رقم (٩٦٨)، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) وذلك لأحاديث كثيرة، منها: حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، المتفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة بعد الفجر حتىٰ ترتفع الشمس، حديث رقم (٥٨١)، و مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأوقات التي نُهِيَ عن الصلاة فيها، حديث رقم (٨٢٦)، وفيه أيضًا حديث رقم (٨٣٢)، عن عمرو بن عَبَسة رضي الله عنه، وهو حديث طويل، وفيه: «**فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ؛ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الكُفَّارُ**».

فالسجود لله: عبادة له، والسجود لغيره: شرك به؛ قال النبيُّ ﷺ: «**مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا؛ لِمَا عَظَّمَ اللهُ عَلَيْهَا مِنْ حَقِّهِ**»(١)؛ فلم يأمر بالسجود لأحد؛ بل شدَّد في الإنكار.

ولما قَدِمَ بعض الصحابة من الشام، وقد رآهم يسجدون لملوكهم؛ فسجد للنبي ﷺ؛ فأنكر عليه ﷺ، وقال: «**لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللهِ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا...**» الحديث(٢).

وكلمة: (لا ينبغي) إذا وردت في كلام الله وفي كلام الرسول ﷺ، فلا تستعمل إلا للممنوع الذي هو في غاية الامتناع(٣)؛ كما في قول الله تعالىٰ في سورة مريم: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]، أي: مستحيلٌ وممتنِعٌ غاية الامتناع أن يتخذ ولدًا، وكذلك قول الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩]، أي: ليس هو من أهل الشعر، ولا ينبغي له الشعر؛ لمَّا قال المشركون: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤١].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه. كتاب النكاح، باب معاشرة الزوجين، حديث رقم (٤١٦٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (١٩٤٠٣)، وابن ماجه، كتاب النكاح، باب حق الزوج علىٰ المرأة، حديث رقم (١٨٥٣)، عن عبدالله بن أبي أوفىٰ، وفيهما أن القادم من الشام هو معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٣) قال ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ٣٤): (وقد اطرد في كلام الله ورسوله استعمالُ «لا ينبغي» في المحظور شرعًا أو قَدَرًا، وفي المستحيل الممتنع). وينظر: بدائع الفوائد (٤/ ٣).

كذلك قول الله تعالىٰ في سورة الشعراء: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١١]، أي: مستحيل وممتنع أن يكون هذا القرآن تنزَّلت به الشياطين.

وقال تعالىٰ في سورة الفرقان عن الملائكة: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٨]، أي: ممتنعٌ ومستحيل أن نَتَّخِذَ من دونك أولياء.



٢- الشرك في الألفاظ:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[ومن الشركِ باللهِ تعالىٰ المبايِنِ لقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]:

الشركُ به في اللفظ؛ كالحَلِفِ بغيره؛ كما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أنه قال: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ**»[١]؛ صحَّحه الحاكم، وابن حِبَّان:

قال ابن حِبَّان: أخبرنا الحسن بن سفيان، ثنا عبد الله بن عمر الجُعْفي، ثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن الحسن بن عبيد الله النَّخَعي، عن سعد بن عُبَيْدة، قال: كنت عند ابن عمر، فحلف رجل بالكعبة،فقال ابن عمر: ويحك لا تفعل؛ فإني سمعتُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ**».

ومن الإشراك: قول القائل لأحد من الناس: (ما شاء الله وشئت)؛ كما ثبت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه قال له رَجُلٌ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «**أَجَعَلْتَ لِلَّهِ نِدًّا؟! قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[٢].

هذا مع أن الله سبحانه قد أثبت للعبد مشيئة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]؛ فكيف بمن يقول: (أنا متوكِّل علىٰ الله وعليك)، و(أنا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (٥٣٧٥) وأبو داود، كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، حديث رقم (٣٢٥١)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الأيمان، باب الزجر عن أن يحلف المرء بشيء سوىٰ الله جل وعلا، حديث رقم (٤٣٥٨)، والحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان (١/ ٦٥)، وقال: (هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين).

(٢) بهذا اللفظ أخرجه البخاري، في الأدب المفرد، حديث رقم (٧٨٣)، وسيذكر الشيخ الألفاظ المشهورة في الشرح.

في حَسْبِ الله وحَسْبك)، و(مالي إلا الله وأنت)، و(هذا من الله ومنك)، و(هذا من بركات الله وبركاتك)، و(الله لي في السماء وأنت لي في الأرض)؟!(١)].

الشَّرح

من أنواع الشرك: الشرك في الألفاظ، يعني: الكلمات التي تجري على الألسن، ولو كان الذي تكلَّم بها لم يتعمَّد، ولم يخطُرْ بباله أنها تُوقِعه في الشركِ. والشركُ في الأقوال يباين ويخالف قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ لأن كلمة: ﴿إِيَّاكَ﴾ تفيد الحصر، أي: (لا نعبد إلا إياك).

ومن أمثلة الشرك في الألفاظ: العبارات التالية(٢):

العبارة الأولىٰ: الحلف بغير الله؛ يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -فيما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وصحَّحه الحاكم وابن حِبَّان-: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ**».

ويكون الحلف بغير الله شركًا؛ لأن الحلف تعظيم للمحلوف به؛ فلا يَحْلِفُ إلا بشيء له عظمة في نفسه؛ فإذا حلف بالسماء فقد عظَّمها، وإذا حلف بالسيد فقد عظم ذلك السيد، وإذا حلف بالولي فإنه عظيم في نفس الحالف، وهكذا يكون الحلف بغير الله شركًا؛ لأنه تعظيم لذلك المحلوف به تعظيمًا لا ينبغي إلا لله.

والله تعالىٰ يَحْلِفُ بما يشاء من مخلوقاته؛ لأنه خالقها، ولأنه جعل لها مكانة بين مخلوقاته؛ مثلُ قوله تعالىٰ: ﴿وَالصَّٰفَّٰتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١]، وقوله: ﴿وَالذَّٰرِيَٰتِ

---

(١) ينظر: كتاب الروح (ص ٥٨٠).
(٢) وقد رتَّبها الشيخ علىٰ حسب ورودها في كلام المصنف.

ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١]، وقوله: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١]، وقوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ [النازعات: ١]، ومثلُ قوله: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ [الطور: ١]، وقوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١]، وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١]، وقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١]، وقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [الضحىٰ: ١]؛ فهذا قَسَمٌ من الله تعالىٰ بهذه المخلوقات.

وقد أُمِرَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يحلف بربه؛ كما في قول الله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ﴾ [يونس: ٥٣]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى﴾ [سبأ: ٣]؛ فالمخلوق لا يحلف إلا بالله؛ حتىٰ لا يشرك بالله: بتعظيم المخلوق تعظيمًا لا يستحقه إلا الله؛ لأن التعظيم الحق يكون لله تعالىٰ وحده.

وعن سعد بن عُبَيْدة، قال: كنت عند ابن عمر، فحلف رجل بالكعبة، فقال: والكعبةِ أو بالكعبة، فأنكر عليه ابن عمر، قال: ويحك لا تفعل؛ فإني سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله، فَقَدْ أَشْرَكَ**». مع أن الكعبة بيت الله، وكان الجاهليون يَحْلِفون بها؛ كما في قول أبي طالب[(١)]:

كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ نُبْزَىٰ مُحَمَّدًا ... وَلَمَّا نُطَاعِنْ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ

وأنكر النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ الذين يحلفون بها، فقال: «**لا تَقُولُوا: وَالْكَعْبَةِ، وَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ**»[(٢)].

(١) ينظر: ديوان أبي طالب (ص٦٦)، وسيرة ابن إسحاق (ص١٦١). ونُبْزَىٰ محمدًا، أي: نُسْلَبُهُ ونُغْلَبُ عليه.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (٢٧٠٩٣)، والنسائي، كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بالكعبة، حديث رقم (٣٧٧٣)، والحاكم في المستدرك، كتاب الأيمان والنذور (٤/ ٢٩٧)، وقال: «صحيح الإسناد».

العبارة الثانية: أن يقول لأحد الناس: (ما شاء الله وشئتَ)؛ فقد ثبت عن النبي ﷺ أن رجلًا قال له: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ عَدْلًا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[١]، وفي رواية: «**أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عَدْلًا**»[٢]، أي: مساويًا له.

وقد صار هذا القول شركًا وتنديدًا؛ لأنه عَطْفٌ بالواو، والواو تقتضي المساواة والمشاركة؛ فإذا قال: (ما شاء الله وشئتَ)، فقد جعلهما سواء.

والإنسان له مشيئة، ولكنها مسبوقة بمشيئة الله؛ كما قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ**﴾ [الإنسان: ٣٠]، وكما قال: ﴿**وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ**﴾ [المدثر: ٥٦]؛ فالذي يقول: (ما شاء الله وشئت)، أو: (ما شاء الله وشاء فلان)، كأنه يجعل المشيئتين متساويتين.

وقد كان بعض الصحابة يقولون: (ما شاء الله وشاء محمد)، فأنكر عليهم ﷺ، وقال: «**قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ**»[٣]؛ لأن (ثُمَّ) تقتضي الترتيب والمهلة، بخلاف الواو فإنها تقتضي الجمع والمساواة[٤].

والله تعالىٰ قد أثبت للعبد مشيئة؛ فقال تعالىٰ: ﴿**لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ**﴾ [التكوير: ٢٨]، ولكنه جل وعلا أخبر أن مشيئته مرتبطة بمشيئة الله: ﴿**وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [التكوير: ٢٩]؛ فدلَّ ذلك علىٰ أن مشيئة العبد لا تكون إلا بعد أن يشاء الله.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (٢٥٦١)، والنسائي في السنن الكبرىٰ، كتاب عمل اليوم والليلة، حديث رقم (١٠٧٥٩)؛ واللفظ له، عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (١٨٣٩)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ، كتاب الجمعة، باب ما يكره من الكلام في الخطبة (٣/ ٣٠٧)، عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (٢٣٣٣٩)، وابن ماجه، كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت، حديث رقم (٢١١٨).

(٤) ينظر: الجنىٰ الداني في حروف المعاني (ص١٦٢، ٤٢٦)؛ ومغني اللبيب (ص١٥٨، ٨٧١).

العبارة الثالثة: قول القائل: (أنا متوكِّل على الله وعليك)؛ فالتوكُّل عبادة لا تصلح إلا لله؛ فلا يجوز أن يتوكل على مخلوق؛ بل يقول: (توكلت على الله)؛ قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقال: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وحقيقة التوكل: تفويض الأمور إلى الله، واعتماد القلب عليه، والرضا به حسيبًا ووكيلًا.

العبارة الرابعة: (أنا في حَسْبِ الله وحَسْبك)؛ فالواو تقتضي المساواة والمشاركة؛ وهذا أيضًا خطأ؛ بل تقول: (حسبنا الله)؛ كما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]؛ ففي الآية تشريك في فعلٍ واحدٍ، وتخصيص في فعلين.

تشريك في فعل الإيتاء: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، و ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾؛ لأن الرسول قد يؤتيهم من المال؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧][1]؛ فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، وقوله: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾؛ جعل فيهما الإيتاء -وهو الإعطاء- مشتركًا لله ولرسوله.

والتخصيصُ في الحَسْبِ والرغبة؛ فهما مختصان بالله دون ما سواه؛ فقد قال عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾، ولم يقولوا: (ورسوله)، والحَسْبُ هو: الكافي، ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾، يعني: كافينا الله، ثم قال: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾؛

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٥٢٢).

كما قال: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٨]؛ لأن الرغبة عبادة، فجعلها لله وحده، ولم يقولوا: إنا إلىٰ الله ورسوله راغبون.

فالذي يقول: «أنا في حَسْبِ الله وحَسْبك»، أو: «أنا راغب إلىٰ الله وإليك»، يكون قد أشرك بهذا اللفظ.

العبارة الخامسة: (ما لي إلا الله وأنت)؛ وهي خطأ؛ لأن فيها تسوية بين الله وبين المخلوق بالعطف بالواو.

العبارة السادسة: (هذا من الله ومنك)؛ وهذا خطأ أيضًا؛ فكل شيء من الله، ولا يصح أن يُسَاوَىٰ المخلوقُ -وهو لا يملك شيئًا- بالله؛ بل يقال: (مِنَ اللهِ ثم منك).

العبارة السابعة: (هذا مِن بركات الله وبركاتك)؛ وهي قول خاطئ أيضًا، وإذا قال: (من بركات الله ثم بركاتك) فلا مانع، والبَرَكة: كثرة الخير.

العبارة الثامنة: (الله لي في السماء وأنت لي في الأرض)، لا يجوز هذا القول؛ لأن فيه تسوية بين الله وبين المخلوق، فمعناه: أن المخلوق في الأرض يَفْعَلُ كما يَفْعَلُ الله في السماء.[1]

---

(١) هذه العبارات لايجوز فيها استعمال الواو؛ كما ذكر الشيخ. أمَّا استعمالُ ثُمَّ فيجوز فيما لا يختص بالله منها؛ كما في العبارة الثانية والخامسة والسادسة والسابعة، ولا يجوز استعمال «ثم» فيما هو مختص بالله تعالىٰ؛ كما في بقية العبارات، فلا يقال: «أحلف بالله ثم بك»، ولا: «أنا متوكِّل علىٰ الله ثم عليك»، ولا: «أنا في حَسْب الله ثم حَسْبِك»، ولا: «الله لي في السماء ثم أنت لي في الأرض»؛ لأن كل ذلك عبادات مختصة بالله تعالىٰ، فلا يجوز فيها استعمال الواو ولا ثم؛ كما لا يقال: «أعبد الله ثم أعبدك».

عبارات الناس اليوم أشدُّ في شرك الألفاظ ممَّا نهى عنه النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

قال المصنِّف رَحِمَهُاللَّهُ:

[وَازِنْ بين هذه الألفاظ الصادرة من غالب الناس اليوم، وبين ما نُهِي عنه مِن: (ما شاء الله وشئتَ)، ثم انظر أيها أفحش؟! يتبيَّنْ لك أن قائلها أولىٰ بالبعد من: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وبالجواب من النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لقائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعَلَ رسولَ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ندًّا، فهذا قد جعَلَ من لا يدانيه لله ندًّا].

الشَّرح

قال المصنِّف رَحِمَهُاللَّهُ: **(وازِنْ بين هذه الألفاظ الصادرة من غالب الناس اليوم، وبين ما نُهِيَ عنه مِن: (ما شاء الله وشئتَ)، ثم انظر أيها أفحش؟!)**.

فإذا قال: (أنا في حسب الله وحسبك)، فقد تكون أشد من قوله: (ما شاء الله وشئتَ)؛ لأن الله تعالىٰ قد أثبت للإنسان مشيئة، لكنْ ليس للعبدِ حَسْبٌ.

كذلك قوله: (أنا متوكل علىٰ الله وعليك)؛ هذه أشد من قول: (ما شاء الله وشئتَ)؛ فتأملها وسيتبين لك أن قائلها أولىٰ بالبعد من ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، أي: أنه ما حقَّق ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾؛ بل وقع في الشرك،

وفي خلاف تحقيق العبادة، وقائلُها أولىٰ بالجواب الذي صدر من النبي ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟!» للرجل الذي قال له: (ما شاء الله وشئتَ).

فإذا كان قائلها قد جعل رسولَ اللهِ ﷺ نِدًّا لله تعالىٰ، مع ما له من مكانة رفيعة عند الله، ومع ذلك شدَّد عليه، فكيف بمن جعل مخلوقًا عاديًّا نِدًّا لله فقال له: (ما شاء الله وشئتَ)، أو: (ما لي إلا الله وأنت)؛ وهو إنسان ضعيف، ولو كان ثريًّا وجيهًا؟!





أنواع العبادات المذكورة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[وبالجملة: فالعبادة المذكورة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، هي: السجود، والتوكُّل، والإنابة، والتقوىٰ، والخشية، والتوبة، والنذور، والحَلِف، والتسبيح، والتكبير، والتهليل، والتحميد، والاستغفار، وحَلْق الرأس خضوعًا وتعبُّدًا، والدعاء؛ **كل ذلك محض حق الله تعالىٰ**.

وفي «مسند الإمام أحمد»: أن رجلًا أتي به النبيَّ قد أذنب ذنبًا، فلما وقف بين يديه، قال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ، وَلَا أَتُوبُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ**»، وخرَّجه الحاكم؛ من حديث الحسن، عن الأسود بن سَرِيع، وقال: حديث صحيح[(١)]].

الشَّرح

العبادة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، تدخُلُ فيها: جميع القربات التي هي حقٌّ محضٌ لله؛ ومن ذلك:

أولًا: السجود: فلا يسجد العبد إلا لله؛ لأن السجود تذلل وخضوع لا ينبغي إلا لله؛ قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾ [النجم: ٦٢].

ثانيًا: التوكُّل: وهو عبادة قلبية يَكِلُ فيها العبد جميع الأمور إلىٰ الله وحده؛ قال تعالىٰ: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١].

ثالثًا: الإنابة: وهي عبادة قلبية أيضًا؛ قال الله تعالىٰ: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، أي: كما أتوكَّل عليه وحده، فإني أنيب إليه وحده؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (١٥٥٨٧)، والحاكم في المستدرك، كتاب التوبة والإنابة (٤/ ٢٥٥). وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرَّجاه»، وتعقبه الذهبي في التلخيص، فقال: «ابن مصعب ضعيف»، والذي في الحديث أن الرجل أسير.

رابعًا: التقوىٰ: وهي عبادة قلبية، ولكنها عملية أيضًا، ويظهر مقتضاها علىٰ الجوارح؛ يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]، أي: لا تتقوا غيري، ويكثُرُ في القرآن: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]؛ فالتقوىٰ: تَقِي غضب الله وعذابه.

خامسًا: الخشية: وهي شدة الخوف، وهي عبادة لا تصلح إلا لله؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٣]، أي: لا تخشوا أيَّ مخلوق كخشية الله؛ بل اجعلوا خشيتكم لله وحده.

سادسًا: التوبة: وهي الرجوع عن المعاصي؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]؛ فلا يقال: (توبوا إلىٰ فلان)؛ فالتوبة إنما تكون إلىٰ الله وحده.

سابعًا: النذر: والنذر هو إلزام المكلَّف نفسَهُ ما ليس واجبًا عليه؛ تعظيمًا للمنذور له.

فالنذر عبادة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، فإنه إن نذر لله فقد عَبَدَهُ؛ كأن يقول: (لله عليَّ نذر أن أصلي في هذه الليلة عشر ركعات)؛ فهذا النذر عبادة.

وإن نذر لغير الله؛ كأن يقول: (للسيِّد فلانٍ عليَّ نذر أن أُهْرِقَ علىٰ قبره سمنًا أو زيتًا، أو أن أصلي عنده كذا وكذا، أو أن أُسْرِج قبره)، فهذا شرك.

ثامنًا: الحَلِفُ: وقد تقدم أنه لا يصلح إلا بالله[1].

---

(١) تقدم (ص٩٨).

تاسعًا: التسبيح: لا يصح إلا لله؛ لأنه تنزيه مطلَقٌ، فإذا قلت: (سبحان الله)، أي: أنزِّه الله عن الشركاء والأمثال وعما لا يليق به؛ قال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلىٰ: ١].

عاشرًا: التكبير: وذلك لأنه تعظيم مطلَقٌ؛ فلا يصح إلا لله؛ فإذا قلت: (الله أكبر)، أي: أكبر من كل شيء؛ فلا تقل (فلان أكبر)، ولو كان كبير القدر.

حاديَ عشرَ: التهليل: وهو قول: (لا إله إلا الله)؛ فلا يقال: (لا إله إلا فلان).

ومما ذُكِرَ عن النُّصَيْرِيَّة أنهم يجعلون الإله عليًّا؛ فيقول شاعرهم[(١)]:

أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا حَيْدَرَةُ الأَنْزَعُ الْبَطِينُ

وَلَا حِجَابَ عَلَيْهِ إِلَّا مُحَمَّدُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ

وَلاَ طَرِيقَ إِلَيْهِ إِلَّا سَلْمَانُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ

ثانيَ عشرَ: التحميد: وهو قول (الحمد لله)، ولا يجوز صرف الحمد لغير الله، وثَمَّةَ فرق بين الحمد والمدح؛ فلا بأس أن يُمْدَحَ المخلوق[(٢)]، أما الحمد المطلق، فلا يكون إلا لله وحده؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

---

(١) نسب شيخ الإسلام هذه الأبيات لشاعر من أكابر فرقة النصيرية من أهل القرن الثامن دون تعيين. ينظر: مجموع الفتاوىٰ (٣٥/ ١٤٧)، ومنهاج السنة (٢/ ٥١٢).

(٢) ينظر الفرق بين الحمد والمدح في: الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري (ص٥٠)، وبدائع الفوائد (٢/ ٩٣).

ثالثَ عشَرَ: الاستغفار: فلا تقل: (أستغفر السيِّد)؛ بل الله تعالىٰ وحده هو الذي يغفر الذنوب ويمحوها؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

رابعَ عشَرَ: حلق الرأس خضوعًا وتعبدًا: وذلك يعتبر تذللًا؛ فلا يصح إلا لله، والمشركون من القبوريين ونحوهم يحلقون رؤوسهم خضوعًا وتعبدًا لغير الله عند القبور التي يعظِّمونها؛ وهذا شركٌ.

خامسَ عشَرَ: الدعاء؛ بنوعَيْه: فالدعاء ينقسم إلىٰ قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وكله من حقه تعالىٰ؛ فلا يصلح إلا لله.

وقد ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث الرجل الذي قال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ، وَلَا أَتُوبُ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ**»، أي: لا يجوز أن يقول: أتوب إليك يا محمد، أتوب إليك ياسيِّدي عبد القادر؛ بل التوبة إلىٰ الله وحده؛ قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣١].

فهذه بعض الأمثلة التي يمثِّلون بها علىٰ الشرك في العبادات؛ لأن العبادة لا تصلُحُ إلا لله.



٣- الشرك في الإرادات والنِّيَّات:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[وأما الشرك في الإرادات والنيَّات: فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقلَّ من ينجو منه؛ فمن نوىٰ بعمله غير وجه الله تعالىٰ، فلم يقم بحقيقة قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإن: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم، ولا يَقْبَلُ من أحد غيرها، وهي حقيقة الإسلام: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فاستمسِكْ بهذا الأصل، ورُدَّ ما أخرجه المبتدعة والمشركون إليه، تُحَقِّقْ معنىٰ الكلمة الإلهية].

الشَّرح

الشرك ينافي التوحيد، ومَنْ عرَفَ الشرك تجنَّبه؛ علىٰ حد قول الشاعر:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا لِلشَّرْ ... رِ لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ[(١)]

وفي حديث حذيفة يقول: «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي**»[(٢)]، فكان يسأله عن الفتن والمعاصي والمحرَّمات؛ لأجل أن يتوقاها.

---

(١) ينسب لأبي فراس الحَمْداني؛ وهو في ديوانه (ص٤٣١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٦٠٦)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، حديث رقم (١٨٤٧).

والمصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر هنا: الشركَ في الإرادات والنيات، ويدخُلُ فيه: الرياء؛ كما يدخل فيه أيضًا: عبادةُ الدنيا وعبادةُ المال؛ فإن كل هذا شرك في النيات.

فأما الرياء: فهو أن يعمل المرء عملًا صالحًا، ونيته مراءاة الناس؛ فيكون شركًا، أيًّا كان عمله، فإذا صلَّىٰ أو تصدَّق أو جاهد أو حج أو اعتمر، وعمل ذلك العمل الصالح رياءً، وقد يرفع صوته بالقراءة أو بالذكر أو بالدعاء لأجل ذلك، وكذلك إذا أمر بالمعروف أو نهىٰ عن المنكر لأجل أن يُمدَح ويَشْتهِر: فهذا شرك في الإرادات والنيات.

وأما عبادة المصالح: فهي إرادة الدنيا بعمل الآخرة؛ وهذا شرك، كأن يعمل عملًا صالحًا من الأعمال الأخروية لا يريد به وجه الله، وإنما قصده مصلحة دنيوية، وفي الحديث: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ؛ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ**»[(١)]؛ فهو يحب ويبغض لأجل الدينار، ويوالي ويعادي لأجله، وهكذا أيضًا كل الذين يعملون أعمالًا صالحة يريدون بها عَرَضًا من عرض الدنيا.

وقول المصنِّف عن هذا الشرك: (**فذلك البحر الذي لا ساحل له**)، أي: أنه كثير متمكِّن في الناس؛ فقلَّ من يَسْلَمُ من الرياء، و قل من يسلم من إرادة الدنيا.

فكثير من الناس في هذه الأزمنة قد تكون لهم في بعض الأعمال الدينية نيات دنيوية، فإذا كانوا بحاجة إلىٰ الدنيا، وكان قصدها تابعًا لقصد الآخرة، فلعلَّ ذلك مما يُعْفَىٰ عنه؛ مثل: الأئمة والخطباء والمؤذِّنين والمعلِّمين والدعاة إلىٰ الله والمرشدين.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، حديث رقم (٢٨٨٧)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فالواجب: أن يقصدوا بذلك وجه الله والدار الآخرة، وإذا أخذوا مكافأة من بيت المال لسدِّ حاجتهم، فإن ذلك تابع، ولا يكون مقصودًا بالأصالة، وهكذا بقية الأعمال.

وقد توسَّع بعض العلماء ممن شرح كتاب (التوحيد) في شرح: (باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا)، وبينوا كثيرًا مما يتعلق بهذه المسألة(١).

ومن نوىٰ بعمله الصالح غير وجه الله تعالىٰ، فأراد مدحًا وثناءً عند الناس، أو أراد مصلحة دنيوية، فإنه لم يقم بحقيقة قول الله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥].

فمعنىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾: هو إخلاص العبودية لله، وهو الحنيفيَّة، والحنيفيَّة: ملة إبراهيم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗا﴾ [البقرة: ١٣٥]، وقال تعالىٰ: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وهي التي أمر الله تعالىٰ بها عباده كلهم؛ فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]؛ وهي حقيقة الإسلام، وهي الملة التي قال الله تعالىٰ عنها: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فاستمسِكْ بهذا الأصل -الذي هو إخلاص العبادة، وإرادة وجه الله تعالىٰ- ورُدَّ ما أخرجه المبتدعة والمشركون من عبادات وقُرُبات؛ حتىٰ تحقِّق معنىٰ كلمة الإلهية والعبادة، فتكون عابدًا حقيقيًّا.

---

(١) ينظر: تيسير العزيز الحميد (ص٤٧٣)، وفتح المجيد (ص٤٠٧).

بعضُ شُبه المشركين وجوابها

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[**فإن قيل**(١): المُشْرِكُ إنما قصد تعظيمَ جناب الله تعالىٰ، وإنه -لعظمته- لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء؛ كحال الملوك؛ فالمُشرك لم يقصد الاستهانة بجانب الربوبية، وإنما قصد تعظيمه، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وإنما أعبُدُ هذه الوسائط لتقرِّبني إليه، وتدخُلَ بي عليه؛ فهو الغاية، وهذه وسائل.

فلِمَ كان هذا القدر مُوجِبًا لسخط الله تعالىٰ، وغضبه، ومخلِّدًا في النار، وموجبًا لسفك دماء أصحابه، واستباحة حريمهم وأموالهم؟!

وهل يجوز في العقل أن يشرع الله تعالىٰ لعباده التقرُّب إليه بالشفعاء والوسائط؛ فيكون تحريم هذا إنما استُفِيدَ بالشرع فقط؟ أم ذلك قبيح في الشرعِ والعقلِ؛ يمتنع أن تأتي به شريعة من الشرائع؟(٢).

وما السر في كونه لا يُغْفَرُ من بين سائر الذنوب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]؟!

قلنا: الشرك شركان:

شركٌ متعلِّق بذات المعبود، وأسمائه وصفاته وأفعاله.

---

(١) قوله: (فإن قيل ...)، إلىٰ قوله: (فتارة تكثر الوسائط، وتارة تقلُّ)، الآتي (ص١٢٤)، مستفاد من كتاب: الجواب الكافي (ص١٩١-١٩٤)، مع بعض التصرف.

(٢) ينظر في هذه المسألة، مع تحقيق الحقِّ فيها: مدارج السالكين (٣/ ٥٠٩).

وشـركٌ في عبادتـه ومعاملتـه؛ وإن كان صاحبـه يعتقـد أنـه سـبحانه لا شـريك لـه في ذاتـه، ولا في صفاتـه.

فأما الشرك الثاني: فهـو الـذي فرَغْنا من الكلام فيه، وأشرنا إليه الآن، وسنُشْبِعُ الكلام فيه إن شاء الله تعالىٰ.

وأما الشرك الأول: فهو نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك؛ كشرك فرعون في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال لهامان: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾[غافر: ٣٦-٣٧].

والشرك والتعطيل متلازمان؛ فكل مشركٍ معطِّلٌ، وكل معطِّل مشركٌ، لكنَّ الشرك لا يستلزم أصل التعطيل؛ بل قد يكون المشرك مقرًّا بالخالق سبحانه وصفاته، ولكنه معطِّلٌ حقَّ التوحيد].

الشَّرح

يزعم المشركون أنهم إنما قصدوا تعظيم جناب الله؛ ولذا يقولون: (لا ينبغي لنا أن ندخل عليه -ونحن من البعيدين المذنبين- إلا بالوسائط وبالشفعاء)؛ فهم يقيسونه علىٰ ملوك الدنيا؛ لأن الملوك في الدنيا لا يدخل عليهم آحاد الناس إلا بواسطة، فالملك يثق بوزيره أو وكيله أو خادمه أو ولده، ومِنْ آثار ثقته: أن يقبل وساطته.

فهكذا شبهوا الخالق سبحانه بملوك الدنيا، ونَسُوا أن ملوك الدنيا بشر كبقية البشر لا يَطَّلِعونَ علىٰ الغيب، ولا يعلمون ما في النفوس، ويحتاجون إلىٰ من يعرِّفُهُم بحاجة هذا وهذا؛ ولأجل ذلك هم محتاجون للوسائط.

ولا يجوز أن يقاس الربُّ تعالىٰ بالمخلوقين؛ لأن الله أعلم بالعباد، ولأنه عَزَّوَجَلَّ سميع قريب؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]؛ فلا يقاس علَّام الغيوب بملوك الدنيا الذين لا يعلمون الصادق من الكاذب، ولا يعلمون ما في القلوب.

وهؤلاء المشركون يَدْعُونَ الوليَّ، ويدعون الشجر والحجر، ويدعون الوسائط، ودعاؤهم يعتبر تعظيمًا لها، وهذا التعظيم يكون شركًا، وقصدهم بذلك: أن يتقربوا بهم، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

فالقبوريون يقولون: نحن مذنبون، ونحن بعيدون، وهذا الشيخ الكَرْخِيُّ[١]، أو الجيلانيُّ، أو الرفاعيُّ[٢]، أو البدويُّ، مثلًا له مكانة وله قربة عند الله؛ فلأجل ذلك نتقرب إليه، فنجعله واسطة بيننا وبين الله.

ونحن نقول لهم: إنَّ الله لا يحتاج إلىٰ وسائط.

فإذا استدلوا علىٰ جواز فعلهم بالشفاعة في الآخرة، فالجواب: أنَّ الله تعالىٰ هو الذي أذن للشافع؛ ولذلك قال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وأما في الدنيا، فما أَذِنَ لأحد أن يشفع؛ بل أَمَرَ المذنبين وغيرَهم أن يتوجَّهوا إليه تعالىٰ ويطلبوه.

(١) الكرخي: أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي البغدادي، من أعلام الزهد والصلاح، توفي سنة ٢٠٠هـ، وقيل غير ذلك. ينظر: وفيات الأعيان (٥/ ٢٣١)، وسير أعلام النبلاء (٩/ ٣٣٩).

(٢) الرفاعي: أحمد بن علي بن أحمد بن رفاعة البطائحي المغربي الأصل، تنسب إليه الطريقة الرفاعية، ويقال لأتباعه: الرفاعية والبطائحية والأحمدية، توفي سنة ٥٧٨. ينظر: طبقات الشافعية الكبرىٰ (٦/ ٨)، والوافي بالوفيات (٢/ ٤٥٣).

ثـم ذكـر المصنـف: (**فالمشـرك لـم يقصـد الاسـتهانة بجانـب الربوبيـة، وإنمـا قصـد تعظيمـه**)؛ فهـؤلاء الذيـن يتوسـطون، إنمـا قصـدوا تعظيـم الله، فيقـول أحدهـم: أعظِّـم الله فـلا أدخـل عليـه مباشـرة؛ بـل أتوسـط بهـذا الـذي هـو مقـرب عنـد الله، (**وقـال:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، **وإنمـا أعبـد هـذه الوسـائط لتقربنـي إليـه**)؛ فهـؤلاء الأوليـاء والسـادة ونحوهـم وسـائط لتقربنـا إليـه، فهـو الغايـة وهـذه وسـيلة.

يقـول المصنـف: (**فلمـا كان هـذا القـدر موجبًـا لسـخط الله تعالـىٰ ؟**)، كيـف تقولـون: إن هـذا التوسـط يسـخط الله ويغضبـه، ويخلِّـد في النـار، ويوجـب سـفك دمـاء أصحابـه، واسـتباحة حريمهـم وأموالهـم؟ (**وهـل يجـوز في العقـل أن يشـرع الله تعالـىٰ لعبـاده التقرُّب إليـه بالشـفعاء والوسـطاء**)؛ هـل ذلـك جائـز عقـلًا؟ (**فيكـون تحريـم هـذا إنمـا اسـتُفِيدَ بالشـرع فقـط، أم ذلـك قبيـح في الشـرع والعقـلُ؛ يمتنـع أن تأتـي بـه شـريعة مـن الشـرائع؟**).

يقـول المصنـف: (**ومـا السـر في**) كـون الله تعالـىٰ (**لا يغفـر**) هـذا الشـرك (**مـن بيـن سـائر الذنـوب؟**) كمـا دلت عليه هـذه الآيـة التي وردت في موضعين مـن سـورة النسـاء: قولـه تعالـىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٨]، وفي آيـة أخـرىٰ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦]، كان هـذا اعتراضهـم.

قـال المصنِّـف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**الشـرك شـركان: شـرك متعلـق بـذات المعبـود، وأسـمائه وصفاتـه وأفعالـه، وشـرك في عبادتـه ومعاملتـه**).

فالشـرك الأول: الـذي يتعلـق بالـذات هـو: شـرك المجوس الذيـن يجعلـون مـع الله خالقًـا، وكذلـك شـرك الفلاسـفة ونحوهـم، وكذلـك الذيـن يسـمون

معبوداتهم بأسماء الله، ويُشْرِكون في ذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ويجعلون له من يشابهه في الذات و الصفات؛ فهذا شرك يتعلق بالذات.

والشرك الثاني: يتعلق بالعبادة والمعاملة التي هي أفعال العبد، وإن كان صاحبه يعتقد أن الله سبحانه لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته.

فالقبوريون ومشركو الجاهلية الأولون لا يجعلون لله شريكًا في ذاته، ولا يجعلون مع الله خالقًا؛ بل يعتقدون أن الخالق هو الله وحده، وكذلك أيضًا لا يجعلون لله شبيهًا في صفاته.

قال المصنِّف: (**فأما الشرك الثاني -أي: الشرك في العبادة- فهو الذي فرغنا من الكلام فيه**)؛ فكل ما تقدم فيما ينافي تحقيق: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وسوف يعود المصنِّف ليفصِّل أمثلة الشرك، ويذكر: الخوف والرجاء والتوكل والإنابة والتوبة والنذر والذبح، وما أشبه ذلك من العبادات التي يكون صرفها لغير الله شركًا.

ورجع المصنِّف إلىٰ الكلام عن الشرك في الذات، أي: الذي يتعلق بذات الله، وهو القسم الأول، فقال: **إنه نوعان: أحدهما**: شرك التعطيل.

والمعطِّلة هم الذين عطَّلوا الربَّ تعالىٰ عن صفات الكمال؛ وهذا أقبح أنواع الشرك.

فهناك تعطيل للذات، وتعطيل للصفات.

ففرعون منكر للذات؛ ولذلك كان يقول: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]؛ كأنه ينكر أن يكون هناك ربٌّ للعالمين، وأمر وزيره أن يبنيَ له بناية لِيَطَّلِعَ إلىٰ الله تعالىٰ؛ فقال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]، والصرح: البناء المرتفع المَشِيد؛ كما في قول سليمان: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النمل: ٤٤]، أي: بناء مرتفع؛ فشِرْكُ فرعون شركٌ في الذات.

قال المصنِّف: (**والشرك والتعطيل متلازمان؛ فكل مشركٍ معطِّلٌ، وكل معطِّلٍ مشركٌ، لكنَّ الشرك**)، أي: الذي يُجعَلُ فيه مع الله شريك بنوع من أنواع العبادة، (**لا يستلزم أصل التعطيل**) الذي هو النفي المحض، ولكن قد يقال: معه نوع من التعطيل؛ (**بل قد يكون المشرك مقرًّا بالخالق سبحانه وصفاته، ولكنه معطِّلٌ حقَّ التوحيد**)، الذي هو: إفراد الله وحده بالعبادة.

قد يقولون: نحن نقول:(لا إله إلا الله)، ونصلِّي له ونصوم له، فكيف تقولون: (إننا معطِّلون)؟!

والجواب: أنكم عطلتم وحدانية الله؛ حيث جعلتم معه شريكًا يستحق مثل ما يستحقه الله؛ فتكونون بذلك معطلين.

وقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الحموية»[1]: أن المعطِّلة الذين نفوا الصفات مشبِّهة، مع أنهم يفرون من التشبيه، فهم ينفون الصفات؛ لأنهم زعموا أنهم بإثباتها يصيرون مشبِّهة، فيقال لهم: (أنتم مشبِّهة؛ لأنه لم يرتسم في أذهانكم أولًا إلا صفات تشابه صفات المخلوق؛ فوقعتم في التشبيه، ولو هربتم منه).

---

(١) ينظر: الحموية (ص٢٦٧).

وذكر أيضًا: أن المشبِّهة الذين يبالغون في إثبات الصفات يصدُقُ عليهم أنهم معطِّلة؛ لأنهم عطلوا الله عن كماله.

أقسام التعطيل:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو: التعطيل.

وهو ثلاثة أقسام:

- **أحدها:** تعطيل المصنوع عن صانعه.
- **الثاني:** تعطيل الصانع عن كماله الثابت له.
- **الثالث:** تعطيل معاملته عما يجب علىٰ العبد من حقيقة التوحيد.

ومن هذا: شرك أهل الوحدة، ومنه: شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأن الحوادث بأسرها مستندة إلىٰ أسباب ووسائط اقتضت إيجادها، يسمونها: العقول، والنفوس، ومنه: شرك معطلة الأسماء والصفات؛ كالجهمية، والقرامطة، وغلاة المعتزلة].

الشَّرح

ذكر المصنِّف أن: (**أصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو: التعطيل**)؛ وذلك لأن جميع المشركين معطلون؛ حيث عطلوا الله تعالىٰ عن كماله الذي به يستحق جميع أنواع العبادة.

وذكر أن التعطيل ثلاثة أقسام:

أحدها: تعطيل المصنوع عن صانعه؛ وهذا فعل الطبائعيين[1] الذين يقولون: (إن الطبيعة هي التي أوجدت هذه الأشياء، وليس لها خالق)، ويقولون: (إن الطبيعة مؤثرة في هذه الموجودات)؛ وهؤلاء هم غلاة المعطلة؛ كالشيوعيين[2]، ونحوهم.

---

(١) تقدم التعريف بهم (ص٨٠).

(٢) **الشيوعية:** مذهب فكري يقوم علىٰ الإلحاد وإنكار وجود الخالق وجميع الغيبيات، وأن المادة هي أساس كل شيء، ويفسر التاريخ بصراع الطبقات والعامل الاقتصادي، أسَّسه اليهودي الألماني كارل ماركس، وقام علىٰ أساسه الاتحاد السوفييتي. ينظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ٩١٩).

التعطيل الثاني: تعطيل الصانع عن كماله، أي: تعطيل الربِّ تعالىٰ عن كماله الثابت له؛ فإن له صفاتِ الكمال؛ فالذين ينفون صفاته قد عطلوه عن الكمال؛ فإذا نفوا السمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة والمحبة ونحوها، صدق عليهم أنهم عطَّلوه عن كماله.

التعطيل الثالث: تعطيل معاملته عما يجب علىٰ العبد من حقيقة التوحيد؛ وهو أن يصرف من الأعمال شيئًا لغيره؛ كأن يجعل الدعاء أو الرجاء أو المحبة لغيره، أو يجعل الخوف من غيره، أو التوكل علىٰ غيره؛ هذا تعطيل معاملته، والواجب علىٰ العبد: صرف جميع أنواع العبادة لله وحده.

قال المصنِّف: **(ومن هذا)**، أي: شرك التعطيل **(شرك أهل الوحدة، ومنه: شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته)**.

وبعض أهل الوحدة يُسَمَّوْنَ: (الحلوليين)؛ يقولون: (إن الخالق حلَّ في المخلوق)، ويسمَّون: (أهل وحدة الوجود)، فليس عندهم إلا وجود واحد؛ فهم يقولون: (وجود المخلوق عين وجود الخالق)[1].

(١) **وحدة الوجود**: عقيدة إلحادية قال بها فلاسفة اليونان القدماء، وتبعهم بعض غلاة الصوفية، وتقوم هذه المقولة علىٰ الوحدة الذاتية لجميع الأشياء، مع تعدد صورها في الظاهر؛ فكل شيء هو الله، واختلاف الموجودات هو اختلاف في الصور والصفات. ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان (٢/ ١١٦٨).

فأهل الوحدة يقولون: (إن الوجود كله واحد، وإن كل ما رأته عيناك فهو الله)؛ تعالىٰ الله عن ذلك.

وأما أهل الحلول، فهم الذين يقولون: (إن الله يَحُلُّ في مخلوقاته)؛ تعالىٰ الله عن ذلك؛ وهم قسمان: أحدهما يقترب من قول أهل الوحدة. ينظر: الجواب الصحيح (١/ ٩٥) و(٤/ ٣٠٠).

وقد اشتهر هذا المذهب عن بعض المتقدِّمين؛ كالحسين الحلَّاج[١] الذي ذُكِرَتْ عنه كلمات نابية، منها قوله: (ما في الجبة إلا الله)[٢].

كما نُقِلَتْ أيضًا كلمات عن بعض تلاميذه ومَنْ سبقه من أهل نحلته؛ فقد نُقِلَ عن (البِسْطاميِّ)[٣] أنه سُمِعَ يقول: (سبحاني سبحاني، ما أعظم شاني)، وأنه مرة كان يسير وخلفه أناس من مريديه، فالتفت وقال: (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدون).

وهذا كله -ولا شك- من القول الذي تقشعر منه الجلود.

وقد كثر هؤلاء وانتشروا، وكان من أشهرهم: ابن عربي الاتحادي[٤]، يقول فيه الحافظ الحَكَمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

مَعْبُودُهُ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ بَدَا ... الْكَلْبُ وَالْقِرْدُ وَالْخِنْزِيرُ وَالْأَسَدُ[٥]

---

(١) الحلَّاج: الحسين بن منصور بن محمي، من أئمة الزنادقة والمرتدِّين، صُلِبَ ببغداد، ونودي عليه: (هذا أحد دعاة القرامطة؛ فاعرفوه)، وقتل مرتدًّا سنة ٣١١هـ، قال ابن تيمية: (من اعتقد ما يعتقده الحلَّاج من المقالات فهو كافر مرتد باتفاق المسلمين). ينظر: مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٤٨٠)، وسير أعلام النبلاء (١٤/ ٣١٣)، ووفيات الأعيان (٢/ ١٤٠).

(٢) ينظر: وفيات الأعيان (٢/ ١٤٠)، وكثير من المصادر تنسبها للبسطامي. ينظر: منهاج السنة النبوية (٥/ ٣٥٧)، ومدارج السالكين (١/ ١٧٥)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٨٨).

(٣) طيفور بن عيسىٰ بن آدم بن شروسان، أبو يزيد البسطامي، ولد في بسطام، من أصل مجوسي، قد حُكِيَ عنه كلمات فيها شطح، وتدلُّ علىٰ اعتقاد فاسد كامن في القلب ظهر في أوقاته؛ توفي سنة (٢٦١هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٤٢)، والبداية والنهاية (١٤/ ٥٥٦).

(٤) محمد بن علي بن عربي أبو بكر الطائي الأندلسي، المعروف بمحيي الدين ابن عربي، قدوة القائلين بوحدة الوجود، له مؤلفات عدة منها: «الفتوحات المكية»، و«ديوان شعر»، أكثره في التصوف، و«فصوص الحكم» في التصوف أيضًا؛ قال ابن كثير: (فيه أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح)، مات في دمشق سنة (٦٤٠). ينظر: البداية والنهاية (١٧/ ٢٥٣)، وفوات الوفيات (٣/ ٤٣٥)، وابن عربي لدغش العجمي.

(٥) البيت من منظومة الجوهرة الفريدة (ص٣٤).

وقد ناقش هؤلاء شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في المجلد الثاني من«مجموع الفتاوىٰ» في «رسالة وحدة الوجود»[١]، ورسائل كثيرة رَدَّ بها أقوالًا تُحْكَىٰ عنهم.

وهكذا شرك الملاحدة الذين يقولون بقدم العالم، وقد سُمُّوا ملاحدة؛ لأنهم مالوا عن الحق[٢]، وهم من غلاة الفلاسفة، وكان معلِّمهم الأول: أرسطو[٣].

وتلاميذه يُسَمَّوْنَ: المشَّائين[٤]؛ لأنه كان يعلِّمهم وهو يمشي في الطريق؛ فصاروا بعد ذلك يتعلمون مشاة. وأرسطو عندهم المعلم الأول، وله كتب مطبوعة الآن.

ثم جاء في الأمة معلِّمهم الثاني، ويقال له: الفارابي[٥]، وله مؤلَّفات مطبوعة.

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٩٨).

(٢) ينظر: لسان العرب مادة (ل ح د).

(٣) أرسطو طاليس، فيلسوف من أشهر فلاسفة اليونان، ولد في إستاغير في مقدونيا، أسس علم المنطق، وهو تلميذ أفلاطون يلقَّب بالمعلِّم الأول؛ لأنه واضع التعاريف المنطقية ومخرجها، توفي سنة ٣٢٢ ق.م. ينظر: الملل والنحل (٢/ ١١٨)، والموسوعة العربية العالمية (١/ ٥٠٦).

(٤) المشَّاؤون: لقب لتلامذة أرسطو، لقبوا بذلك؛ لأنه كان يلقي عليهم الدروس من العلم، وهو يمشي حول البساتين التي وقفها عليه ذيون، فيأخذون عنه مَا يلقيه عليهم وهم عَلَىٰ تلك الحالة.
ينظر: إخبار العلماء بأخبار الحكماء (ص٢٧٥).

(٥) محمد بن محمد الفارابي، تركي الأصل، مستعرب، ولد في فاراب، واتصل بسيف الدولة بن حمدان، كان من أكبر الفلاسفة في الإسلام، وعرف بالمعلِّم الثاني، لشرحه مؤلفات أرسطو الذي يسمَّىٰ: (المعلم الأول)، نقل ابن حجر عن العلماء تكفيره من أجل اعتقاد قدم العالم، وأن الفيلسوف أكمل من النبيِّ، وغيرها من المسائل، توفي بدمشق سنة ٣٣٩ هـ.
ينظر: مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٦٧)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٤١٦)، ولسان الميزان (٣/ ١٧٩).

وقد ردَّ عليهم الغزالي في كتابه: «تهافت الفلاسفة»[١]، ثم انتصر لهم ابن رشد[٢]، ورد علىٰ الغزالي في كتابه «تهافت التهافت»[٣].

ولا شك أن أقوالهم بعيدة عن الصواب، فهم يقولون: (إن هذا العالم ليس له بداية ولا نهاية؛ بل هو قديم وأبدي)، وينكرون آدم، وأنه خُلِقَ من تراب، و ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

ويقولون: (إن الحوادث بأسرها مستندة إلىٰ أسباب ووسائط اقتضت إيجادها، يسمونها: العقول، والنفوس)، ولا يعترفون بإيجاد الموجد الذي هو الخالق.

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ومنه)** -أي: النوع الثاني من التعطيل-: **(شرك معطلة الأسماء والصفات)**؛ وهؤلاء أيضًا يصدُقُ عليهم أنهم مشركون، وإن كانوا لا يعبدون مخلوقًا، ولكن لما عطَّلوا اللهَ عن صفات الكمال التي يستحقها، صاروا بذلك شبيهين بالمشركين الذين تَنَقَّصُوه.

ومن هؤلاء: الجهمية، وهم: غلاة المعطِّلة، ينتسبون إلىٰ الجَهْم بن صَفْوان، وهو أشهر من عرف بهذا التعطيل، وقد أخذه من الجَعْد بن دِرْهَم.

ومنهم: القرامطة، وهم: قوم من الباطنية ينسبون إلىٰ رجل يقال له: (حَمْدان قِرْمِط)[٤] من أهل العراق أو ما حوله، ذكروا أنه كان متوجِّهًا من

---

(١) طبع في دار المعارف بالقاهرة بتحقيق الدكتور سليمان دنيا.

(٢) محمد بن أحمد أبو الوليد، الحفيد، تولىٰ قضاء قرطبة، توفىٰ سنة (٥٩٥هـ)، اشتهر باشتغاله وتأليفه في الفلسفة، قال عنه شيخ الإسلام: (هو من أتبع الناس لأقوال أرسطو). أ.هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٠٧)، وبيان تلبيس الجهمية (١/ ١٥٦)، ومجموع الفتاوىٰ (١٩/ ١٥٧).

(٣) طبع في دار المعارف بالقاهرة بتحقيق الدكتور سليمان دنيا.

(٤) رأس القرامطة من الباطنية، وإليه تُنْسَب، وأصله من خوزستان في إيران التي تسمىٰ عربستان، وقرمط لقبه، عرف في سواد الكوفة سنة (٢٥٨هـ) بالزهد والتقشف، ثم أظهر دعوته، قتله المكتفي بالله العباسي سنة (٢٩٣)هـ. ينظر: تاريخ الطبري (١٠/ ٢٣)، وتاريخ ابن خلدون (٣/ ٤١٩)، وبغية الطلب في تاريخ حلب (٢/ ٢٢٩).

العراق إلىٰ البحرين أو القَطِيف، ثم إنه في الطريق صادف أحد الدعاة من الباطنية، فتلقَّىٰ عنه هذا العلم، وأظهره في القَطِيف وفي البحرين؛ فنسبت هذه العقيدة إليه[1].

ومنهم أيضًا: غلاة المعتزلة، الذين بالغوا في نفي الصفات.

فهؤلاء كلُّهم مشركون شرك تعطيل.

(١) ينظر تفصيل القصة في: إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا للمقريزي (١/ ١٥١ وما بعدها)، وهؤلاء القرامطة هم الذين نهبوا الحجيج واستباحوا قتلهم بمكة وسرقوا الحجر الأسود، قاتلهم الله، ينظر: البداية والنهاية (١٥/ ٣٧).

النوع الثاني: شركُ التمثيل:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[النوع الثاني: شرك التمثيل:

وهو شركُ مَن جعل معه تعالىٰ إلهًا آخر؛ كالنصارىٰ في المسيح، واليهود في عُزَيْر، والمجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلىٰ (النور)، وحوادث الشر إلىٰ (الظلمة)، وشركُ القدرية -المجوسية- مختصر منه، وهؤلاء أكثر مشركي العالم، وهم طوائف جَمَّة:

منهم من يعبد أجزاءً سماوية، ومنهم: من يعبد أجزاءً أرضية، ومن هؤلاء: من يزعم أن معبوده أكبر الآلهة، ومنهم: من يزعم أنه إله من جملة الآلهة، ومنهم: من يزعم أنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه، أقبل عليه، واعتنىٰ به، ومنهم: من يزعم أن معبوده الأدنىٰ يقرِّبه إلىٰ الأعلىٰ الفَوْقاني، والفوقاني يقرِّبه إلىٰ من هو فوقه، حتىٰ تقرِّبه تلك الآلهة إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فتارة: تكثر الوسائط، وتارة: تقل.

فإذا عرَفْتَ هذه الطوائف، وعرَفْتَ اشتداد نكير الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ من أشرك به تعالىٰ في الأفعال، والأقوال، والإرادات -كما تقدم ذكره- انفتح لك باب الجواب عن السؤال].

الشَّرح

النوع الثاني من أنواع الشرك: شرك التمثيل:

قال المصنِّف: (**وهو شركُ مَن جعل معه تعالىٰ إلهًا آخر؛ كالنصارىٰ في المسيح**)، أي: اتخذوا المسيح إلهًا، (**واليهود في عُزَيْر**)، أي: عبدوا

عزيرًا، وقالوا: إنه ابن الله، (**والمجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلىٰ «النور»، وحوادث الشر إلىٰ «الظلمة)**؛ فجعلوا مع الله شريكًا، وجعلوا الخلق صادرًا عن اثنين.

وكذلك شرك القدرية الذين يأتون بالشهادتَيْنِ إلا أنهم ينفون قدرة الله تعالىٰ علىٰ أفعال العباد، ويقولون: (إن العبد يخلُق فعله، وإن الله لا يقدر علىٰ الهداية ولا الإضلال، وإن قدرة العباد أقوىٰ من قدرة الله، (**وشرك القدرية المجوسية**)، وهم الذين يُسَمَّوْنَ: (مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ مختصَرٌ منه)، أي: من شرك من قبلهم من المجوسية.

قال المصنِّف: (**وهؤلاء**)، أي: وأهل هذا الشرك هم (**أكثر مشركي العالم، وهم طوائف جمة**)، أي: كثيرة.

منهم -كما ذكر المصنف-: (**من يعبد أجزاءً سماوية**)؛ فيمثِّلون الكواكب والشمس والقمر والنجوم، ويبنون لها الهياكل ويعبدونها[(١)].

(**ومنهم: من يعبد أجزاءً أرضية**)؛ كالبقاع، والقباب، والأحجار، والأشجار، وما أشبهها.

(**ومن هؤلاء: من يزعم أن معبوده أكبر الآلهة**)؛ حتىٰ ولو كان يعبد صنمًا، أو صورة، أو شجرة، أو حجرًا، أو تمثالًا.

(**ومنهم: من يزعم أن**) معبوده (**إله من جملة الآلهة**)؛ وهم الذين يجعلون مع الله آلهة أخرىٰ، الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

---

(١) ينظر: الملل والنحل (٢/ ٩٢).

(ومنهم: **من يزعم أنه إذا خصه**) أي: خص معبوده (**بعبادته والتبتل إليه- أقبل عليه، واعتنىٰ به**)؛ حتىٰ إنَّ بعضهم قال: (**لَوْ أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ ظَنَّهُ بِحَجَرٍ، لَنَفَعَهُ**)[1].

(**ومنهم: مَن يزعم أن معبوده الأدنىٰ يقرِّبه إلىٰ الأعلىٰ الفَوْقاني، والفوقاني يقرِّبه إلىٰ من هو فوقه**)، ومن هو فوقه يقرِّبه إلىٰ من هو فوقه؛ (**حتىٰ تقرِّبه تلك الآلهة إلىٰ الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ **فتارة: تكثُرُ الوسائط، وتارَةً: تقل**).

وهم في هذا يقيسون أيضًا علىٰ الوسائط في الدنيا؛ فإن الوسائط التي بينك وبين الملوك قد تكثر؛ فقد تعرف فلانًا، فتشتكي إليه حاجتك، وهو يعرف آخر مقرَّبًا عند أحد الوزراء، فيفضي إليه بحاجتك، وذلك الوزير يعرف وزيرًا آخر أكبر منه، فيفضي إليه بحاجتك، ولا تزال واسطة بعد واسطة إلىٰ أن يصل أمرك إلىٰ المَلِك.

ومعتقدوا هذا المذهب يقولون: (نحن نعبد الولي فلانًا، والوليُّ فلان يتوسَّط بيننا وبين وليٍّ أكبر منه، والأكبر يتوسَّط إلىٰ أكبر منه، إلىٰ أن يصل إلىٰ الله)؛ وهكذا قد تكثر الوسائط، وقد تقل.

قال المصنِّف: (**فإذا عرَفْتَ هذه الطوائف**)، أي: التي فصَّل المصنِّف الحديث عنها، (**وعرَفْتَ اشتداد نكير الرسول** صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **علىٰ من أشرك به تعالىٰ في الأفعال، والأقوال، والإرادات -كما تقدم ذكره- انفتح لك باب الجواب عن السؤال**)؛ يعني: الذي ذكره المصنِّف عن المشركين القائلين: (إنهم إنما قصدوا تعظيم جناب الله تعالىٰ).

---

(١) هذا لفظ حديث موضوع؛ قال ابن القيم في المنار المنيف (ص١٣٩): (وهو من وضع المشركين عبَّاد الأوثان).

حقيقة الشرك

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[فنقول: اعلم أن حقيقة الشرك: تشبيه الخالق بالمخلوق[1]، وتشبه المخلوق بالخالق:

أما الأول[2]: فإن المشرك شبَّه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، وهي: التفرُّد بملك الضر والنفع، والعطاء والمنع؛ فمن علَّق ذلك بمخلوق، فقد شبَّهه بالخالق تعالىٰ، و سوَّىٰ بين التراب وربِّ الأرباب[3].

فأيُّ فجورٍ، وذنبٍ أعظم من هذا؟!

واعلم: أن من خصائص الإلهية: الكمالَ المُطْلَقَ من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه؛ وذلك يوجب أن تكون العبادة له وحده؛ عقلًا، وشرعًا، وفطرة.

فمن جعل ذلك لغيره، فقد شبَّه الغير بمن لا شبيه له.

ولشدة قبحه وتضمُّنه غاية الظلم؛ أخبَرَ مَن كتب علىٰ نفسه الرحمة: أنه لا يغفره أبدًا].

---

(١) من هنا، إلىٰ قوله:(كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله) الآتي (ص ١٦٤)، مستفاد بتصرف من الجواب الكافي (ص٢٠٠-٢١٠).

(٢) سيأتي بيان الثاني في (ص ١٣٨).

(٣) ينظر: مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٥٢٦-٥٣٠).

الشَّرح

يتعلق هذا الكلام بالشرك الذي ينافي التوحيد وأمثلته، والذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ٣١]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

ويمكن تقسيم حقيقة الشرك إلىٰ قسمين:

القسم الأول: تشبيه الخالق بالمخلوق.

القسم الثاني: تشبُّه المخلوق بالخالق.

فالقسم الأول: التشبيه؛ وهو نوعان:

النوع الأول: هو أن يشبِّه العبادُ المخلوق بربِّ العالمين؛ سواءٌ بالفعل، أو بالقول.

النوع الثاني: هو أن يشبِّه العبادُ ربَّ العالمين بالمخلوق، فيتنقَّصون الخالق؛ حيث يشبِّهونه بالمخلوق، أو يدَّعون أن لله شبيهًا من خلقه.

فأما تشبيه المخلوق بربِّ العالمين بالفعل: فيكون إذا عظَّموه كما يعظَّم الله بعبادة؛ كالذبح، والطواف، أو إذا صرفوا له شيئًا من خالص حق الله؛ كبعض الأعمال القلبية؛ من محبة، وخوف، ورجاء.

وأما تشبيه المخلوق بربِّ العالمين بالقول: فيكون إذا قالوا فيه ما لا يصحُّ قوله إلا في الله؛ كما حصل من كثير من الذين يعظِّمون المخلوق ويجعلون له شيئًا من صفات الربِّ تعالىٰ؛ ولو كان نبيًّا مرسلًا، أو كان مَلَكًا مقرَّبًا، أو سيِّدًا من السادة، أو وليًّا من الأولياء.

والأمثلة على ذلك مشهورة؛ فمثلًا يقول صاحب البُرْدَةِ[1] في مدح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا ... وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ[2]

إذا كانت الدنيا -وضَرَّتُها الآخرة- كلها من جُود النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فماذا بقي لله تعالى؟! والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَرْضَى بمثل ذلك؛ لأنه لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت؛ قال: «**أجَعَلْتَنِي لله نِدًّا؟ قل: ما شاء اللهُ وحَدَهُ**»، وأمر الذين يقولون: ما شاء الله وشاء محمَّدٌ أن يقولوا: (ما شاء اللهُ، ثُمَّ شاء محمَّدٌ).

فكيف بهذا الذي يدعي أن الدنيا كلها من جوده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُعْطِي فيها مَن يشاء، ويمنع من يشاء، والآخرة أيضًا مِن جوده؛ يُدْخِلُ من يشاء الجنة، وينجي من يشاء من النار، وكذلك الميزان، والصراط، والحساب، كلها ملكه؛ وهذا لا شك يُعَدُّ من تشبيه المخلوق بالخالق.

كذلك اشتهَرَ عن غلاة الصوفية: أنهم يجعلون للوليِّ تصرُّفًا في الكون، ويدَّعون أنه يَطَّلِعُ على اللوح المحفوظ، ويعلم ما فيه، وأنه يحيي الأموات، ويمنع ويعطي، ونحو ذلك؛ ومعنى ذلك: أنهم جعلوا له

(١) محمد بن سعيد بن حماد البوصيري، نسبة إلى قرية (أبو صِير) في مصر، توفي سنة ٦٩٦هـ. ينظر: الأعلام للزِّرِكْلي (٦/ ١٣٩)، وهو غير الشهاب البوصيري المحدث المشهور صاحب مصباح الزجاجة، وإتحاف الخيرة المهرة، المولود سنة ٧٦٢ هـ والمتوفى سنة ٨٤٠هـ ينظر: إنباء الغمر (٤/ ٥٣).

(٢) ينظر: البردة (ص١٣٢)، وهي قصيدة يمدح فيها الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد غلا في بعض أبياتها غُلُوًّا عظيمًا، وتلبس بجملة من المزالق والمآخذ، فهو يستشفع ويتقرب إلى الله تعالى بشرك وابتداع وغلو واعتداء. ينظر: الرد على البردة، لأبي بطين.

شيئًا من خصائص الربِّ تعالىٰ؛ كما عند بعض الرافضة في عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول قائلهم:

وَأَنْتَ السَّمِيعُ وَأَنْتَ الْبَصِيرْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرْ

وقائل هذا البيت الشنيع شاعرٌ معاصر، وقد نُشِرَتْ قصيدته الرائية هذه[1]، وفيها -والعياذ بالله- رفَعَ عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وهو عبد مخلوق- فوق منزلته، وجعَلَ له مطلَقَ التصرُّفِ في الكون.

وهذا لا يكون إلا لله المتفرِّد بالملك لا يملكه غيره حتىٰ الأنبياء، والله تعالىٰ يقول للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١-٢٢]، ويقول تعالىٰ له أيضًا: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]؛ فإذا كان محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو أشرف الخلق- لا يملك لنفسه شيئًا، فغيره لا يملك لنفسه شيئًا بطريق الأولىٰ.

ويقول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٣]، وكذلك يقول أيضًا: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٦].

والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لأقاربه: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا-

---

(١) نشرت قصيدته في إحدىٰ الصحف، ومن ضمن أبياتها الكفرية:

إِلَيْكَ تَصِيرُ جَمِيعُ الْأُمُورْ وَأَنْتَ الْعَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورْ
وَأَنْتَ الْمُبَعْثِرُ مَا فِي الْقُبُورْ وَحُكْمُ الْقِيَامَةِ بِالنَّصِّ لَكْ!

اشْـتَرُوا أَنْفُسَـكُمْ، لا أُغْنِـي عَنْكُـمْ مِـنَ اللهِ شَـيْئًا، يَا بني عَبْـدِ مَنَـافٍ، لا أُغْنِـي عَنْكُـمْ مِـنَ اللهِ شَـيْئًا...»[١].

وكل هـذه الأدلـة تؤكـد أنَّ الله تعالـىٰ هـو المتفـرد بالضـرِّ والنفـع، والعطـاء والمنـع، والخفـض والرفـع، ومـن علَّـق شيئًا مـن ذلـك بمخلـوق وجعلـه يَضُـرُّ أو ينفـع مـن دون الله فقـد شبَّهه بالخالـق تعالـىٰ، وسـوَّىٰ بيـن الـتراب ورب الأربـاب، وأيُّ فجورٍ وأيُّ ذنـب أعظـم مـن رفـع المخلـوق إلـىٰ رتبـة الخالـق اعتقـادًا أو عمـلًا؛ كمـا ذكـر المصنِّـف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومـن خصائـص الإلهيـة: الكمـال المطلـق مـن جميـع الوجـوه للـرب تعالـىٰ، فصفاتـه كلهـا صفـات كمـال لا نقـص فيهـا بـأي وجـه؛ وذلـك يوجـب أن تكـون العبـادة كلهـا لله وحـده عقـلًا، وشـرعًا، وفطـرة؛ لأن كل عاقـل إذا وصَـفَ الله تعالـىٰ بصفـات الكمـال اسـتلزم ذلـك أن يَدِيـنَ لله تعالـىٰ بـأن العبـادة لـه وحـده؛ كمـا أن الشـرع الـذي تضمنـه الوحـي يقضـي بـأنَّ العبـادة ينبغـي أن تكـون لله وحـده؛ وكذلـك الفطـرة؛ فـإذا تأمـل الإنسـان بفطرتـه السـليمة، عَلِـمَ أن الـذي خلـق هـذا الخلـق، ودبَّـر هـذا الكـون، هـو الـذي يسـتحق العبـادة وحـده.

وقـد نقـل الشـيخ محمد بـن عبد الوهـاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عـن ابـن كَثِيرٍ في تفسـير قول الله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، أنـه قـال: (الخالـق لهـذه الأشـياء هو المسـتحِقُّ للعبادة)[٢].

---

(١) أخرجه البخاري مطوَّلاً في كتاب التفسير، باب: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ ﴾: أَلِنْ جانِبَكَ، حديث رقم (٤٧٧١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب في قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾، حديث رقم (٢٠٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٩٤)، والأصول الثلاثة (ص١٠).

ففطـرة الإنسـان -إذا لـم تتغيَّـر- تقتضي صـرف العبـادة لله وحده، ومـن صرف شـيئًا من أنـواع العبادة لغيـر الله فقد شـبَّهه بـالله؛ والله تعالىٰ لا شبيه له.

قـال المصنِّـف: (**ولشـدة قبحـه**)، أي: هـذا الشـرك، (**وتضمُّنِـهِ غايـةَ الظلـم؛ أخبَـرَ مَـن كتـب علىٰ نفسـه الرحمـة: أنـه لا يغفـره أبـدًا**)؛ وذلـك لأن الشـرك أقبـح القبيـح، وأظلـم الظلـم، وقـد فسَّـر النبـيُّ ﷺ الظلـم في قولـه تعالـىٰ: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، بأنـه: الشـرك؛ واسـتدل بقـول لقمـان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣][(١)].

فالشـرك غايـة الظلـم؛ ولذلـك أخبـر تعالـىٰ بأنـه لا يغفـره أبـدًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، مـع أنـه تعالـىٰ قـد كتـب علـىٰ نفسـه الرحمـة، ولكـنَّ رحمته لا تَنَـالُ هـؤلاء المشـركين؛ فهـم ليسـوا أهـلًا لرحمـة الله تعالـىٰ.

---

(١) يشير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال: لمَّا نزَلَت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، شق ذلك علىٰ المسلمين؛ فقالوا: يارسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: (ليس ذلك، إنما هو: الشرك؛ ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يَعِظُهُ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]). أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب ظلم دون ظلم، حديث رقم (٣٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، حديث رقم (١٢٤).

خصائص الإلهية في جانب التشبيه:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[**ومن خصائص الإلهية**: العبودية التي لا تقوم إلا علىٰ ساقَي الحُبِّ والذُّلِّ، فمن أعطاهما لغيره، فقد شبَّهه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خالص حقه؛ وقُبْحُ هذا مستقر في العقول والفطر.

ولكنْ لمَّا غيَّرت الشياطين فِطَرَ أكثر الخلق، واجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزِّل به سلطانًا -كما رَوَىٰ ذلك عن الله أعرفُ الخلق به وبخلقه- عَمُوا عن قبح الشرك حتىٰ ظنوه حَسَنًا.

ومن خصائص الألوهية: السجود؛ فمن سجد لغيره، فقد شبَّهه به.

ومنها: التوكل؛ فمن توكل علىٰ غيره، فقد شبهه به.

ومنها: التوبة؛ فمن تاب لغيره، فقد شبهه به.

ومنها: الحلف باسمه تعظيمًا؛ فمن حلف بغيره، فقد شبهه به.

ومنها: الذبح له؛ فمن ذبح لغيره، فقد شبهه به.

ومنها: حلق الرأس، إلىٰ غير ذلك.

هذا في جانب التشبيه].

الشَّرح

من خصائص الإلهية: العبودية:

والعبوديَّةُ لها ركنان هما: غاية الحب، وغاية الذل.

فيجب أن يكون العبد مُحِبًّا للربِّ تعالىٰ، وأن يكون مع ذلك متذلِّلًا له.

وقد ذكر ذلك شيخ الإسلام في كثير من كتبه[1].

ومعنىٰ غاية الحب: أن يحب الله، ويقدِّم محبته علىٰ كل محبوب.

ومعنىٰ غاية الذل: أن يتذلل، ويخشع، ويخضع، ويستكين، ويتواضع، وينقاد لربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وقد نظم ذلك ابن القيِّم في «النونية»[2] بقوله:

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ

وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّىٰ قَامَتِ الْقُطْبَانِ

وَمَدَارُهُ بِالْأَمْرِ أَمْرِ رَسُولِهِ ... لَا بِالْهَوَىٰ وَالنَّفْسِ والشَّيْطَانِ

فمن أعطىٰ غاية الحب والذلِّ لغيره فقد شبَّه ذلك الغير بالله سبحانه في خالص حقه.

قال المصنِّف: **(وقُبْحُ هذا مستقر في العقول والفطر)**؛ فكل ذي فطرة لم تتلوث بالشبهات، وكل ذي عقل سَوِيٍّ فإنه يستقبح أن يسوِّيَ المخلوق برب العالمين، وأن يرفع المخلوق إلىٰ رتبة الخالق.

قال المصنِّف: **(ولكنْ لمَّا غيَّرت الشياطين فِطَرَ أكثر الخلق، واجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزِّل به سلطانًا - عَمُوا عن قبح الشرك حتىٰ ظنوه حَسَنًا)**.

---

(١) منها: قاعدة في المحبة (ص١٠)، وينظر: مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٣٧٨).

(٢) ينظر: الكافية الشافية (ص٤٣).

كما روىٰ ذلك النبيُّ ﷺ عن الله -وهو أعرف الخلق به وبخلقه- في الحديث القدسي؛ يقول الله تعالىٰ: «**إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**»[(١)].

ومعنىٰ (حنفاء): علىٰ الحنيفية، أي: علىٰ الفطرة، ولكن اجتالتهم الشياطين وتسلطت عليهم، فانتكست فطر كثير من الناس الذين صدَّقوا الشياطين، واجتالتهم، أي: نحَّتهم وأبعدتهم عما خُلِقُوا له، وأزالتهم عما كانوا عليه.

وذكر المصنِّف أن من خصائص الإلهية: العبوديَّةَ، التي هي: غاية الذل والخضوع، وكذلك: السجود؛ فإنه مظهر من مظاهر التذلل؛ فالساجد يضع وجهه علىٰ الأرض، وذلك غاية التذلل والتواضع، والخضوع والاستكانة.

فمن سجد لغير الله فقد شبَّه ذلك الذي سجد له بربه؛ فيكون مشركًا؛ لأن من خصائص الألوهية: ألَّا يسجد المرء إلا لله؛ هكذا جاء في شريعتنا، لكنْ في الشرائع الأولىٰ كان هذا جائزًا؛ كما سجد إخوة يوسف له، أما في هذه الشريعة فالنبيُّ ﷺ حرَّم السجود لأي مخلوق[(٢)].

ومن خصائص الإلهية: التوكُّل، وهو: تفويض الأمور إلىٰ الله، والاعتماد بالقلب عليه، والرضا به حسيبًا ووكيلًا؛ ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]؛ فمن توكَّل علىٰ غير الله فقد أشرك؛ لأنه صرف شيئًا من العبادة لغير الله وشبَّه ذلك الغير بالله تعالىٰ؛ فيكون مشركًا.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يُعْرَفُ بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، حديث رقم (٢٨٦٥)، عن عِيَاض بن حِمَار المجاشعي رضي الله عنه.

(٢) ينظر: أحكام القرآن للجصَّاص (١/ ٣٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ١٠٠).

ومن خصائص الإلهية: التوبة؛ فالله تعالىٰ أمر بالتوبة إليه؛ فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: ٣١]؛ فمن تاب لغيره، فقد أشرك، وشبَّه ذلك الغير بالله تعالىٰ.

ومن خصائص الإلهية: الحَلِفُ؛ فالحَلِفُ لايكون إلا بأحد أسماء الله تعالىٰ، أو بصفة من صفاته تعالىٰ؛ قال ﷺ: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»[1].

فمن حلف بغير الله فقد عظَّمه وشبَّهه بالله؛ لأن كل محلوف به معظَّم، ومثل هذا التعظيم لا يصح إلا لله وحده.

ومن خصائص الإلهية: الذبح له سبحانه؛ فمَن ذبح لغير الله فقد شبَّه ذلك الغير بربه؛ ففي الحديث: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ**»[2]، والمراد: أن يذبح تعظيمًا لهذا المخلوق ولو شيئًا يسيرًا؛ وقد رُوِيَ أن رجلًا دخل النار في ذباب[3]؛ لمَّا عظَّم صنمًا بسبب ذباب قربَّه إليه.

ومن خصائص الإلهية: حلق الرأس علىٰ وجه التعبد والتعظيم؛ فحلق الرأس إذا كان لله -كما في الحج والعمرة- يعتبر عبادة، ومن عظَّم غير الله بالحلق فقد شبَّه ذلك الغير بالله.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم، حديث رقم (٦٦٤٦)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالىٰ، حديث رقم (١٦٤٦)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله، حديث رقم (١٩٧٨)، عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٣٣٣٧٩)، وأحمد في الزهد (ص١٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٦٩٦٢)، عن سلمان موقوفًا.

كما يحصل من القبوريين الذين يفعلون ذلك؛ فمثلًا في كَرْبَلاءَ عند قبر يقال: (إنه قبر الحُسَيْن)[١]، وفي النَّجَفِ عند قبر يقولون: (إنه قبر علي)[٢]؛ يأتون إليه من أماكن بعيدة، ثم يطوفون حوله ويخضعون، ثم يكشفون رؤوسهم ويَحْلِقونها؛ تعظيمًا لذلك القبر.

---

(١) تقدم ذكره (ص ٦٥).

(٢) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٥٠٢): (الصحيح: أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دُفِنَ بالكوفة بقصره في دار الإمارة، والذي بالنجف ليس قبره باتفاق).

خصائص الإلهية في جانب التشبُّه:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[وأما في جانب التشبُّه:

فمن تعاظم، وتكبَّر، ودعا الناس إلىٰ إطرائه، ورجائه، ومخافته، فقد تشبَّه بالله ونازعه في ربوبيته؛ وهو حقيق بأن يُهِينَهُ الله غاية الهوان، ويجعله كالذر تحت أقدام خلقه[1].

وفي الصحيح[2] عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أنه قال: «**يَقُولُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: **الْعَظَمَةُ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي؛ فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ**».

وإذا كان المصوِّر الذي يصنع الصور بيده من أشد الناس عذابًا يوم القيامة؛ لتشبُّهه بالله في مجرد الصنعة، فما الظن بالمتشبِّه بالله في الربوبية والإلهية؟!

كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْمُصَوِّرُونَ؛ يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ**»[3]، وفي الصحيح عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أنه قال: يقول

---

(١) يشير المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ النَّاسِ، يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ، حَتَّىٰ يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ: بُولَسُ، فَتَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ، عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ**». أخرجه أحمد في مسنده حديث رقم (٦٦٧٧)، والبخاري في الأدب المفرد، حديث رقم (٥٥٧)، والترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بابٌ، حديث رقم (٢٤٩٢)، وقال: (حديث حسن صحيح).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، حديث رقم (٢٦٢٠)، وأبو داود، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، حديث رقم (٤٠٩٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) هو بهذا اللفظ في مسند الإمام أحمد، حديث رقم(٤٧٩٢)، وأصله في الصحيحين، فهو عند البخاري، في كتاب البيوع، باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء، ومسلم، كتاب اللباس، باب لاتدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة، حديث (٢١٠٧).

الله عَزَّوَجَلَّ: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؛ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، فَلْيَخْلُقُوا شَعِيرَةً**»(١)؛ فنبَّه بالذرَّة والشعيرة علىٰ ما هو أعظم منها.

وكذلك مَن تشبَّه به تعالىٰ في الاسم الذي لا ينبغي إلا له؛ كمَلِكِ الملوك، وحاكم الحكَّام، وقاضي القضاة، ونحوه، وقد ثبت في الصحيح(٢)، عن النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ أنه قال: «**إن أَخْنَعُ الأَسْمَاءِ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّىٰ بشاهان شاه، ملك الملوك، لا مالك إلا الله**»، وفي لفظ(٣): «**أَغْيَظُ رَجُلٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّىٰ مَلِكَ الأَمْلَاكِ**»].

الشَّرْح

ذكر المصنِّف القسم الثاني من نوعي حقيقة الشرك، وهو: تشبُّه المخلوق بالخالق الذي يقع إذا تشبَّه المخلوق بالله في شيء من خصائصه؛ كأنْ يتعاظم ويترفَّع ويدعو الناس إلىٰ إطرائه ورجائه ومخافته، ويرىٰ أنه أرفع من الناس، ويحتقر الخلق وينظر إليهم كأنهم ذرٌّ يوطأ بالأقدام، ولذلك نُهِيَ عن الكِبْرِ؛ ففي الحديث قال صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»(٤).

---

(١) هو قريب من هذا اللفظ في البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾، حديث رقم (٧٥٥٩)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة، حديث رقم (٢١١١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب أبغض الأسماء إلىٰ الله، حديث رقم (٦٢٠٦)، ومسلم، كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك وبملك الملوك، حديث رقم (٢١٤٣)، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك وبملك الملوك، حديث رقم (٢١ / ٢١٤٣)، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، حديث رقم (٢٦٧)، عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقال صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمْثُلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[(١)]؛ أي: الذي يُلْزِمهم إذا دخل أن يقوموا له، ومن لم يقم فإنه يحتقره، أو يهينه؛ فهذا تعاظم، ودعوة للناس إلىٰ الإطراء.

والإطراء: هو زيادة في المدح، وكذلك الذي يدعوهم إلىٰ أن يخافوه أو يرجوه؛ فالخوف والرجاء عبادة لله.

فمن تشبَّه بالله ونازع الربَّ تعالىٰ في ربوبيته وعظمته، فهو حقيق بأن يُهِينَهُ الله.

ففي الحديث: «**مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللهُ دَرَجَةً، حَتَّىٰ يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَىٰ اللهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللهُ دَرَجَةً، حَتَّىٰ يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ**»[(٢)]؛ فالذين يتكبَّرون ويتعاظمون يُعاقَبُونَ عاجلًا أو آجلًا؛ فيضع الله قدرهم، ويُلْقِي في قلوب الناس تحقيرَهم، ويُهِينُهم غاية الهوان، ويجعلهم كالذرِّ تحت أقدام الناس يوم القيامة؛ فلا يراهم الناس شيئًا.

وفي الصحيح[(٣)] عنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أنه قال: «**يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي؛ فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ**».

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٩٧٧)، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في قيام الرجل للرجل، حديث رقم (٥٢٢٩)، والترمذي، كتاب الأدب، باب كراهية قيام الرجل للرجل، حديث رقم (٢٧٥٥)، عن معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال الترمذي: (حديث حسن).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (١١٧٢٤)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع، حديث رقم (٤١٧٦)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، نحوه؛ قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء (٥/ ٢٣٥٨)»: (سنده حسن).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، حديث رقم (٢٦٢٠) وأبو داود، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، حديث رقم (٤٠٩٠)، واللفظ له، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فالعظمة والكبرياء من خصائص الله تعالىٰ، عبَّر عنهما بالرداء والإزار تنبيهًا علىٰ اختصاصه بهما[١]، أي: أنهما من خصائصه سبحانه؛ كما أن من خصائص الإنسان رداءه وإزاره؛ فمن نازع الله تعالىٰ في هذا التعاظم وفي هذه الكبرياء استحق العذاب.

قال المصنِّف: (**وإذا كان المصوِّر الذي يصنع الصور بيده من أشد الناس عذابًا يوم القيامة؛ لتشبُّهه بالله في مجرَّد الصنعة، فما الظن بالمتشبِّه بالله في الربوبية والإلهية؟!**).

وقد جاء في الحديث قولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ: المُصَوِّرُونَ**»[٢]، وفي رواية: «**يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ**»[٣]، ولا يَقْدِرون.

وفي الحديث الثاني: يقول الله عَزَّوَجَلَّ: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؛ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ شَعِيرَةً**»[٤]، ومعنىٰ: «**ذَهَبَ**

---

(١) قال شيخ الإسلام في بيان تلبيس الجهميَّة (٦/ ٢٧٠): (وليس ظاهر هذا الحديث أن لله إزارًا ورداءً من جنس الأُزُرِ والأَرْدِيَةِ التي يلبسها الناس؛ بل الحديث نص في نفي هذا المعنىٰ الفاسد؛ لأن تركيب اللفظ يمنع ذلك، ويبين المعنىٰ الحق).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب عذاب المصوِّرين يوم القيامة، حديث رقم (٥٩٥٠)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة، حديث رقم (٢١٠٩)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب عذاب المصوِّرين يوم القيامة، حديث رقم (٥٩٥١)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة ، حديث رقم (٢١٠٧)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، حديث رقم (٧٥٥٩)، ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة، حديث رقم (٢١١١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَخْلُقُ»، أي: حاول أن يتشبَّه بالخالق فيصوِّر مثل خلق الله تعالىٰ، وهو لا يقدر أن يخلق ذَرَّةً حيَّةً، ويركِّبَ فيها أعضاءها، ولا أن يخلق شعيرة. والشعيرةُ[1] التي خلقها الله وجعل عليها هذه القشور التي تغطيها إذا دُفِنَتْ وسُقِيَتْ نبَتَتْ وأنبَتَتْ سنبلًا، لا يَقْدِرون علىٰ خلقها.

وقد نبَّه بالذَّرَّةِ والشعيرة علىٰ ما هو أعظم منهما؛ يعني: إذا لم يقدروا علىٰ أن يخلقوا ذرَّة أو شعيرة، فلا يقدرون علىٰ أن يخلقوا جَمَلًا أو فِيلًا أو نحو ذلك من المخلوقات مِن باب أولىٰ[2].

قال المصنِّف: (**وكذلك مَن تشبَّه به تعالىٰ في الاسم الذي لا ينبغي إلا له**)؛ فالله تعالىٰ: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]؛ فمن قال: (أنا الله، أو: أنا الرحمن)، فقد نازع الله في أسمائه التي هي من خصائصه.

وكذلك أيضًا: مَن تشبَّه به في الصفات؛ مثل: (ملك الملوك)، و(حاكم الحكَّام)، و(قاضي القضاة)؛ فلا مالك إلا الله، وهو الذي يحكُمُ بين خلقه، ويقضي بينهم.

ويكثُرُ ذكر: (قاضي القضاة) في كتب التراجم؛ للإشارة إلىٰ كبير القضاة الذي يرجع إليه قضاة البلد، ولكنْ مع ذلك: فالذي يظهر: أنه لا يجوز إطلاق هذا الوصف علىٰ أحد من البشر؛ كما لا يجوز إطلاق وصف (حاكم الحكَّام)، و(ملك الملوك) علىٰ أحد من البشر؛ وقد جاء هذا في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**أَخْنَعُ الأَسْمَاءِ**

---

(١) واحدة الشعير، وهي الحبة المعروفة. ينظر: تاج العروس مادة (ش ع ر).

(٢) ينظر: شرح مسلم للنووي (١٤/ ٩٠)، وفتح الباري لابن حجر (١٠/ ٣٩٥).

عِنْدَ اللهِ: رَجُلٌ تَسَمَّىٰ بِمَلِكِ الأَمْلاَكِ»، ثم إن أحد الرواة -وهو سُفْيَانُ- قال: مثل: (شَاهَانْ شَاهْ)؛ بلسان الفرس يُسَمُّونَ (شاهانْ شاهْ)، أي: ملك الملوك؛ فلا يجوز أن يسمَّىٰ بذلك، ولو ملَكَ ما ملَكَ.

وفي رواية: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَىٰ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ وَأَغْيَظُهُ عَلَيْهِ: رَجُلٌ كَانَ يُسَمَّىٰ: مَلِكَ الأَمْلَاكِ؛ لَا مَلِكَ إِلَّا اللهُ»[1].

(١) تقدَّم تخريجها (ص١٤١).

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[**وبالجملة**: فالتشبيهُ والتشبُّهُ هو حقيقة الشرك؛ ولذلك كان من ظن أنه إذا تقرب إلىٰ غيره بعبادةٍ مَّا يقرِّبه ذلك الغير إليه تعالىٰ فإنه مخطئ؛ لكونه شبَّهه به، وأخَذَ ما لا ينبغي أن يكون إلا له، فأشرك معه سبحانه فيه غيره، فبَخَسَهُ سبحانه حقَّه؛ فهذا قبيح عقلًا وشرعًا؛ ولذلك لم يُشْرَعْ ولم يُغْفَرْ؛ فاعلمه].

الشَّرح

ذكر المصنِّف أن التشبيه هو: أن يُشَبَّهَ المخلوق بالخالق، ويعطىٰ شيئًا من حق الله؛ وهذا حقيقة الشرك، كما يفعله القبوريون الذين يرفعون أولياءهم ويجعلونهم أندادًا لله تعالىٰ، والله تعالىٰ يقول: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

والتشبيه -كما مرَّ بنا سابقًا[١]- يشمل نوعين:

- **النوع الأول**: تشبيه المخلوق بالخالق في خصائصه من الألوهية والربوبية؛ سواء أكان بالفعل أم بالقول.
- **والنوع الثاني**: تشبيه صفات وأفعال الخالق بصفات وأفعال المخلوق.

وأما التشبُّه: فهو كالذي يرفع نفسه ويتعاظم، ويَدَّعِي أنه يعلم الغيب، وأنه يقضي الحوائج، وأنه يشفع بلا إذن؛ فقد تشبَّه بالربِّ، وهو شرك؛ حيث إنه نازع الرب تعالىٰ في خصائصه.

---

(١) تقدم (ص١٢٩، ١٣٩).

ولذلك: فمن ظنَّ أنه إذا تقرَّب إلىٰ غير الله بعبادةٍ مَّا، وأنَّ ذلك الغير يقرِّبه إلىٰ الله تعالىٰ فإنه مخطئ؛ وهذا هو ظنُّ القبوريين والمشركين الأولين؛ فهم يقولون: (نحن نتقرَّب إلىٰ أوليائنا وآلهتنا بهذه العبادة؛ حتىٰ يقرِّبونا إلىٰ الله تعالىٰ)؛ كما ذكر الله تعالىٰ ذلك عنهم في قولهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ويقول الله عن مؤمن آل يس: ﴿لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣]؛ فدلَّ ذلك علىٰ أنهم يطلبون شفاعتهم عند الله.

فالذي يظن ذلك لا شكَّ أنه خاطئ، وقد أشرك مع الله سبحانه في هذه العبادة فبخَسَ اللهَ سبحانه حقَّه، ورفع المخلوق إلىٰ رتبة الخالق بجعله يَمْلِكُ الشفاعة بغير إذن من الله، والله تعالىٰ لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه؛ وهذا الفعل الشركي قبيح عقلًا وشرعًا، والله تعالىٰ لا يغفره؛ كما أخبر سبحانه.



من أعظم الذنوب: سوءُ الظنِّ بالله
وهو من تشبيه الخالق بالمخلوق

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[واعلم أن الذي ظنَّ أنَّ الربَّ سبحانه لا يسمع له، أو لا يستجيب له إلا بواسطة تُطْلِعُهُ على ذلك، أو تَسْأَلُ ذلك منه-: فقد ظن بالله ظن السَّوْء.

فإنَّه إنْ ظنَّ أنَّه لا يَعْلَمُ، أو لا يسمع إلا بإعلام غيره له وإسماعِهِ، فذلك نَفْيٌ لعلم الله ولسمعه، وكمال إدراكه، وكفى بذلك ذنبًا.

وإن ظنَّ أنَّه يَسْمَعُ ويَرَى، ولكنْ يحتاج إلى من يليِّنه، ويعطِّفه عليهم، فقد أساء الظن بإفضال ربه، وبره، وإحسانه، وسَعَةِ جُوده.

وبالجملة: فأعظم الذنوب عند الله تعالى: إساءة الظن به؛ ولهذا يتوعَّدهم في كتابه على إساءة الظن به أعظم وعيد؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وقال تعالى عن خليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦-٨٧]، أي: فما ظنكم أن يُجَازِيَكم إذا عبدتم معه غيره، وظننتم أنه يحتاج في الاطلاع على ضروريَّات عباده لمن يكون بابًا للحوائج إليه، ونحو ذلك؟!

وهذا بخلاف الملوك؛ فإنهم محتاجون إلى الوسائط ضرورةً؛ لحاجتهم، وعجزهم، وضعفهم، وقصور علمهم عن إدراك حوائج المضطرين.

فأمَّا مَن لا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عن سمعٍ[١]، وسبَقَتْ رحمتُهُ غضبَهُ[٢]، وكتَبَ علىٰ نفسه الرحمة[٣]، فما تصنع الوسائط عنده؟! فمن اتخذ واسطة بينه وبين الله تعالىٰ، فقد ظن به أقبح ظن، ومستحيل أن يشرعه لعباده؛ بل ذلك يمتنع[٤] في العقول والفطر].

الشَّرح

قال المصنِّف: (**واعلم أنَّ الذي ظنَّ أنَّ الربَّ سبحانه لا يسمع له، أو لا يستجيب له إلا بواسطة تُطْلِعُهُ علىٰ ذلك، أو تَسْأَلُ ذلك منه -: فقد ظن بالله ظن السوء**)؛ كمن قال: (أنا أحتاج إلىٰ من يتوسَّط لي؛ لأن الربَّ لا يسمعني لكوني بعيدًا؛ فلا بد أن أتوسَّط بوليٍّ حتىٰ ينقُلَ إلىٰ الله كلامي ودعوتي وحاجتي، ويقرِّبني إليه)؛ فقد ظن بالله ظنًّا سيئًا، ودخل في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦].

ونحن نقول لمن هذا حاله: إن ظَنَنْتَ أن الله لا يعلم بحالك حتىٰ تُعْلِمَهُ تلك الواسطة فقد تنقَّصت اللهَ، ووصفته بأنه لا يعلم إلا ما عُلِّمَ، وأنكرت قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

---

(١) أخرج أحمد في مسنده، حديث رقم (٢٤١٩٥)، والبخاري تعليقًا، كتاب التوحيد، باب قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، في قصة المجادلة عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: (**الحَمْدُ للهِ الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأصواتَ؛ فأنزَلَ الله تعالىٰ علىٰ النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿**قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا**﴾).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، حديث رقم (٧٤٢٢)، ومسلم، كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالىٰ وأنها سبقت غضبه، حديث رقم (٢٧٥١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في آية سورة الأنعام: ٥٤، وينظر: بدائع الفوائد (٢/ ١٦١، ١٦٢).

(٤) في نسخة دار القبس (ممتنع).

فهذا نفيٌ لعلم الله وسمعه وكمال إدراكه؛ وذلك التنقُّصُ مِن أكبر الذنوب.

قال المصنِّف: (**وإن ظن أنه**)، أي: من اعتقد أن الله (**يَسْمَعُ ويَرَىٰ**)؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، (**ولكنْ**) ظن أن الله (**يحتاج إلىٰ من يليِّنه ويعطِّفه عليهم**) -أي: علىٰ عباده- (**فقد أساء الظن بإفضال ربه وبره وإحسانه وسَعَةِ جُوده**).

وهؤلاء شبَّهوه بالملوك والأثرياء الذين يحتاجون إلىٰ من يليِّنهم علىٰ غيرهم ويشفع عندهم؛ وفي هذا إساءة ظنٍّ برب العالمين.

قال: (**وبالجملة: فأعظم الذنوب عند الله تعالىٰ: إساءة الظن به**)[1]؛ كما يحصل من المنافقين، ومنه: أنهم ظنوا بالله ظن السَّوْءِ في غزوة أحد؛ حين ظنوا أن الله سيخذل نبيَّه ﷺ، وأنه لن ينصره ولن يؤيِّده؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ (**ولهذا توعدهم**) الله تعالىٰ (**في كتابه علىٰ إساءة الظن به**) بأعظم وعيد، (**كما قال تعالىٰ**: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ﴾)؛ وهذا وعيد أول، (﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾)، وهذا وعيد ثانٍ، (﴿وَلَعَنَهُمۡ﴾)؛ وهذا وعيد ثالث، (﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ [الفتح: ٦])؛ وهذا وعيد رابع.

وتوعَّد الله تعالىٰ الكفار والمنافقين الذين يظنُّون به ظَنَّ السَّوْءِ، فقال: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ [الفتح: ٦].

---

(١) قال ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ٦٢): (فالشرك والتعطيل مبنيان علىٰ سوء الظن بالله تعالىٰ).

وقد تكلَّم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه الآية من سورة آل عمران: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وذكر أمثلة كثيرة لظن السَّوْءِ في (زاد المعاد)[1] في نحو خمس صفحات، وأدخل في جملة ذلك:

المشركين الذين يظنون أن الله لا يسمع حتىٰ ينقُلَ له غيره من الأولياء، والذين يظنون أن الله لا ينصر أنبياءه ورسله بل يَخْذُلُهم، والذين يقولون: إن هذا الحق سوف يضمحِلُّ؛ كما في سورة الفتح: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢].

قال: (**وقال تعالىٰ عن خليله**)، أي: علىٰ لسان خليله (**إبراهيم** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦-٨٧])؛ فسمَّىٰ الآلهة: إفكًا، يعني: كذبًا، أي: أتجعلون هذه الآلهة وتختلقونها وتعبدونها من دون الله؛ ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟! أي: أتظنون أن الله يرضىٰ بذلك؟! وأنه تعالىٰ لا يَغَارُ؟! (**أي: فما ظنُّكم أن يُجَازِيَكم إذا عبدتم معه غيره؟!**[2])؛ فهو لا يرضىٰ بذلك؛ كما أخبر عن نفسه في قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧].

وإذا (**ظننتم أنه يحتاج**) إلىٰ واسطة، ويحتاج (**في الاطلاع علىٰ ضروريَّات عباده لمن يكون بابًا للحوائج إليه**)؛ فهذا ظنٌّ سيِّئٌ يدخُلُ في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) ينظر: زاد المعاد (٣/ ٢٢٨-٢٣٥).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٧)، وتفسير السعدي (٧٠٥).

قال: (**وهذا بخلاف الملوك**)، أي: ملوك الدنيا؛ (**فإنهم محتاجون إلىٰ الوسائط ضرورة**)؛ لأنهم عاجزون عن معرفة أحوال الخلق وما في الضمائر من حوائج المضطرين؛ فهم محتاجون إلىٰ قَبُولِ هؤلاء الشافعين.

(**فأمَّا مَن لا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عن سمعٍ**)، وهو الربُّ تعالىٰ، فكيف يحتاج إلىٰ واسطة؟! (**وسبَقَتْ رحمتُهُ غضَبَهُ**)؛ كما أخبر بذلك في قوله تعالىٰ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، (**فما تصنع عنده الوسائط**) التي لم يأذن بها، وهو العليم بذات الصدور، والكريم الرحيم؟!

وهؤلاء الذين يقولون: ندعو الأولياء والأولياء يَدْعُونَ الله لنا، نقول لهم: ما الدليل علىٰ مشروعية فعلكم هذا؟ فالله عَزَّوَجَلَّ أمركم أن تدعوه، فقال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]، ومستحيل أن يشرع لعباده ما أمرهم بخلافه؛ بل ذلك ممتنعٌ في العقول والفطر.



من أعظم الذنوب: عدَمُ قَدْرِ اللهِ حَقَّ قَدْرِه وهو من تشبيه الخالق بالمخلوق

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

[واعلم: أن الخضوع والتألُّهَ الذي يجعله العبد لتلك الوسائط قبيحٌ في نفسه -كما قرَّرناه- لا سيما إذا كان المجعول له ذلك عَبْدًا للمَلِكِ العظيم الرحيم، القريب المجيب، ومملوكًا له؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، أي: إذا كان أحدكم يأنفُ أن يكون مملوكُهُ شريكَهُ في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفردٌ به، وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري، ولا تصلح لسواي؟! فمن زعم ذلك فما قدَرَني حقَّ قدري، ولا عظَّمني حق تعظيمي[(١)].

وبالجملة: فما قدَرَ اللهَ حقَّ قَدْرِهِ مَنْ عبَدَ معه من ظن أنه يوصِّل إليه؛ قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾[(٢)] الآيةَ، إلىٰ أن قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

فما قدَرَ القويَّ العزيزَ حقَّ قَدْرِهِ مَنْ أشرَكَ معه الضعيفَ الذليلَ].

---

(١) ينظر: الجواب الكافي (ص٢٠٥)، ومدارج السالكين (١/ ٢٣٩)، وإعلام الموقعين (١/ ١٥٩).

(٢) ينظر: إعلام الموقعين (١/ ١٨١)، والروح (ص٣١٣)، ومفتاح دار السعادة (٢/ ٨، ٩).

الشَّرح

قال المصنِّف: (**واعلم: أن الخضوع والتألُّه الذي يجعله العبد لتلك الوسائط قبيحٌ في نفسه -كما قررناه- لا سيما إذا كان المجعول له ذلك**)، أي: التألُّهُ: (**عبدًا للمَلِكِ العظيم الرحيم، القريب المجيب**)، الذي لا يشغله سمعٌ عن سمع.

فإذا كان عبدًا مملوكًا، فكيف يجعلونه شريكًا لمالك كل شيء؟!

قال الله تعالىٰ في سورة الروم: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]؛ وفي هذه الآية ضرَبَ الله مَثَلًا للمشركين، فقال لهم: إذا كان أحدكم لا يرضىٰ أن يكون مملوكُهُ شريكَهُ في ماله وأهله ورزقه، يخافه كما يخاف نفسه؛ فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا منفرد به؟![(١)].

فإن أولياءكم هؤلاء -ولو كانوا أنبياء، أو ملائكة، أو سادة، أو قادة، أو أشرافًا- فكلهم عبيد لله. والله تعالىٰ لا يرضىٰ أن يُشْرَكَ معه في عبادته أحدٌ لا ملَكٌ مقرَّب، ولا نبيٌّ مرسل؛ لأن العبادة حقُّه تعالىٰ؛ فلا يُصرَفُ منها شيء لغيره.

فالملائكة عبيده؛ قال الله تعالىٰ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

والرسل عبيده؛ قال تعالىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، أي: لا يأنفون ولا يترفَّعون عن العبودية لله تعالىٰ؛ بل يفتخرون بأنهم عبيد لله.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٢)، وتفسير السعدي (ص٦٤٠).

وقد وصف الله تعالىٰ نبيه محمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوصف العبوديَّة في أشرف المقامات:

ففي مقام التحدِّي، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي مقام الإسراء، قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١].

وفي مقام الدعوة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

فالوصف بالعبودية لله تعالىٰ شرَفٌ واعتزازٌ وفضيلة.

قال المصنِّف: (**وبالجملة: فما قَدَرَ اللهَ حقَّ قَدْرِهِ مَنْ عَبَدَ معه من ظن أنه يوصِّل إليه**)، والذين يعبدون الأولياء يقولون: (إنهم يُدْخِلوننا علىٰ الله، ويوصِّلون حاجاتنا إليه)، مع أنَّهم أموات وعاجزون؛ قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤]؛ فجميع الذين يدعون مِن دون الله لا يَقْدِرُونَ علىٰ خلق ذباب، ولا ينفُخُونَ فيه الروح.

وهؤلاء ما عرَفُوا قَدْرَ الله، ولا عرَفُوا عظمته ومكانته، وعزَّته وجلاله؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقد ذُكِرَ في الأثر عن ابن عبَّاس قال: (ما السموات السبعُ، والأَرَضُونَ السبعُ في يَدِ الله إلا كحَبَّةِ خردلٍ في يَدِ أحدِكم)[1]، وماذا تشغل حبَّة خردل، أو مائةُ حبَّة، أو ألف حبة يقبضها الإنسان في كفِّه؟!

وفي سورة الزمر يقول الله تعالىٰ مخاطبًا نبيَّه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٧]؛ **(فما قدَرَ القويَّ العزيزَ حقَّ قَدْرِهِ مَنْ أشرَكَ معه الضعيفَ الذليلَ)**.

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة برقم (١٠٩٠)، والطبري في التفسير (٢٠/ ٢٤٦).

أصلُ ضلالِ الضُّلَّالِ والمبتدعةِ شيئان: سوءُ ظنِّهم بالله تعالى، وعدَمُ قَدْرِهِمُ اللهَ حقَّ قَدْرِه:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[**واعلَمْ**: أنك إذا تأمَّلت جميع طوائف الضلال والبدع، وجَدتَّ أصل ضلالهم راجعًا إلىٰ شيئَيْن:

أحدهما: ظنُّهم بالله ظنَّ السوء.

والثاني: أنهم لم يَقْدُروا الربَّ حقَّ قدره.

فلم يَقْدُرْهُ حقَّ قدرِهِ مَن ظن أنه لم يُرسِلْ رسولًا، ولا أنزَلَ كتابًا؛ بل ترك الخلق سُدًىٰ، وخلقهم عبثًا.

ولا قدَرَهُ حقَّ قدرِهِ من نفىٰ عموم قدرته، وتعلُّقها بأفعال عباده من طاعاتهم ومعاصيهم، وأخرجها عن خَلْقه وقُدْرته.

ولا قدَرَ الله حقَّ قدرِهِ أضدادُ هؤلاءِ الذين قالوا: (إنه يعاقِبُ عبده علىٰ ما لم يفعله؛ بل يعاقبه علىٰ فعله هو سبحانه).

وإذا استحال في العقول أن يُجبِرَ السَّيِّدُ عبدَهُ علىٰ فعل، ثم يعاقبَهُ عليه، فكيف يصدُرُ هذا من أعدل العادلين؟! وقولُ هؤلاء شرٌّ من أشباه المجوس القدرية الأذلِّين.

ولا قدَرَهُ حقَّ قدرِه مَن نفىٰ رحمته، ومحبَّته، ورضاه، وغضبه، وحِكْمَتَهُ مطلقًا، وحقيقةَ فعله، ولم يجعل له فعلًا اختياريًّا؛ بل أفعالُهُ مفعولاتٌ منفصِلةٌ عنه.

ولا قدَرَهُ حقَّ قدرِهِ مَن جعل له صاحبةً وولدًا، أو جعله يحُلُّ في مخلوقاته، أو جعله عين هذا الوجود.

ولا قَدَرَهُ حقَّ قدرِهِ مَن قال: (إنه رفَعَ أعداء رسولِهِ وأهلِ بيته، وجعل فيهم المُلْك، ووضَعَ أولياء رسوله وأهل بيته)؛ وهذا يتضمَّن غاية القدح في الرب؛ تعالىٰ الله عن قول الرافضة!

وهذا مشتقٌّ من قول اليهود والنصارىٰ في ربِّ العالمين: (إنَّه أرسَلَ مَلِكًا ظالمًا، فادَّعَىٰ النبوَّة، وكَذَبَ علىٰ الله، ومكَثَ زمنًا طويلًا يقول: أمَرَني بكذا، ونهاني عن كذا، ويستبيحُ دماء أنبياءِ اللهِ وأوليائِهِ وأحبابه[١] والربُّ تعالىٰ يُظْهِرُهُ ويؤيِّده، ويقيمُ الأدلَّةَ والمعجِزاتِ علىٰ صدقه، ويُقْبِلُ بقلوب الخلق وأجسادهم إليه، ويقيم دولته علىٰ الظهور والزيادة، ويُذِلُّ أعداءه أكثر من ثمانمائة عام.

فوازِنْ بين قولِ هؤلاءِ وقولِ إخوانهم من الرافضة تَجِدِ القولَيْنِ سواءً.

ولا قَدَرَهُ حقَّ قدرِهِ مَن زعَمَ أنه لا يحيي الموتىٰ، ولا يبعث من في القبور؛ ليبيِّن لعباده الذي كانوا فيه يختلفون، ويَعْلَمَ الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

وبالجملة: فهذا بابٌ واسع].

الشَّرح

قال المصنِّف: (**واعلَمْ: أنك إذا تأمّلت جميع طوائف الضلال والبدع، وجَدتَّ أصل ضلالهم راجعًا إلىٰ شيئَيْن:**

أحدهما: ظنُّهم بالله ظنَّ السوء)؛ وهو الذي ذكره الله عن المنافقين.

(١) في نسخة دار القبس: «وأحبائه».

(والثاني: أنهم لم يقدُرُوا الربَّ حقَّ قدره)، يعني: لم يعرفوا عظمته وجلاله وكبرياءه.

قال: **(فلم يقدُرْهُ حقَّ قدرِهِ مَن ظنَّ أنه لم يُرسِلْ رسولًا، ولا أنزَلَ يُنزِلْ كتابًا؛ بل ترك الخلق سُدًىٰ، وخلَقَهم عبثًا)**، وقد رد الله تعالىٰ هذا الظنَّ السيِّء، فقال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

قال: **(ولا قدَرَهُ حقَّ قدرِه مَن نفىٰ عمومَ قدرتِهِ، وتعلُّقها بأفعال عباده مِن طاعاتهم ومعاصيهم، وأخرجها عن خلقه وقُدْرته)**؛ ممَّن يقولون: إن الله لا يقدر علىٰ أفعال العباد، والذين يقولون: إن قدرته لا تتعلَّق بأفعال العباد؛ بل العباد يَقْدِرونَ علىٰ شيء لا يقدر عليه الخالق، و ينفون قدرة الله علىٰ الطاعات والمعاصي، ويُخْرِجونهما عن خلقه وقدرته؛ وهذا قولُ القدرية الذين يقولون: إن الله لا يخلق أفعال العباد، وإنه لو خلقهم ثم عذَّبهم لكان ظالمًا!

قال: **(ولا قدَرَ اللهَ حقَّ قَدْرِهِ أضدادُ هؤلاءِ)** -أي: من الجبرية-[(١)] **(الذين قالوا: إن الله يعاقِبُ عبده علىٰ ما لم يفعله؛ بل يعاقبه علىٰ فعله هو سبحانه)**، وهؤلاء يقولون: إن الذنوب خَلْقُهُ، وهو الذي أوقع عباده فيها، وخلَقَها فيهم، ولا قدرة لهم علىٰ الامتناع عنها، والعباد مجبورون علىٰ أفعالهم، ومع ذلك يعاقبهم علىٰ ما أجبرهم عليه.

---

(١) **الجبرية**: إحدىٰ الفرق الكلامية المنحرفة التي تقول بالجبر؛ بمعنىٰ أن العباد مجبورون علىٰ أفعالهم، وأول من قال بهذه البدعة الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان؛ فالجهمية هم أول من حمل وزرها، وقد كانت بدعتهم هذه ردة فعل لبدعة القدرية الذين غلوا في نفي القدر. وهم أصناف: جبرية خالصة: لا تثبت للعبد فعلًا ولا قدرة، وجبرية متوسطة: تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة. ينظر: الملل والنحل (١/ ٨٥)، والموسوعة الميسرة (٢/ ١٠٣٥).

وهـذا مستحيلٌ في العقـول أن يُجبِرَ السيِّدُ عبـدَهُ علىٰ فعـل، ثـم يعاقبَـهُ عليـه؛ فلـو أن سيِّدًا كان لـه عبـد مملـوك، وقـال لـه: (اضـرب هـذا الإنسـان وإلا قتلتـك)؛ فـإذا ضرَبَـهُ، فهـل يليـق بالسيِّد أن يعاقـب العبـد علىٰ فعلـه؟!

قـال: (**وإذا استحال في العقـول أن يُجبِـرَ السَّـيِّدُ عبـدَهُ علـىٰ فعـل، ثـم يعاقبَـهُ عليـه، فكيـف يصـدُرُ هـذا مـن أعـدل العادليـن؟! وقـولُ هـؤلاءِ**) -الجبريَّـةِ- (**شـرٌّ مـن**) قـولِ (**أشـباه المجـوس القدريـة الأذلِّيـن**)؛ وكلُّهـم بعيـد عـن الصـواب.

قـال: (**ولا قَـدَرَهُ حـقَّ قـدرِهِ مـن نفـىٰ رحمتـه، ومحبَّتـه، ورضـاه، وغضبـه، وحِكْمَتَـهُ مطلقًـا**)، ونفـىٰ (**حقيقـة فعلـه، ولـم يجعـل لـه فعـلًا اختياريًّـا**)؛ مـن المعطلـة الذيـن يقولـون: إن الله لا يرحـم؛ لأن الرحمـة رقَّـةٌ في القلـب لا تكـون إلا في المخلـوق، والله لا يحـب؛ لأن المحبَّـةَ هـي ميـلٌ وتذلُّـلٌ مـن المحـب لمـن يحبـه، ويقولـون: الله لا يرضـىٰ؛ لأن الرضـا انبسـاط نحـو المرضـيِّ عنـه، ولا يغضـب؛ لأن الغضـب غليـان دم القلـب، وهـذا لا يكـون إلا في المخلـوق، والله ليس لـه حكمـة في خلقـه وأمـره، وإنمـا جميـع الأوامـر التـي أمـر بهـا إنمـا هي مجرَّد امتحـان، وليس لـه حِكَـمٌ فيهـا، وليس لله فعـل، (**بل أفعالُـهُ مفعـولاتٌ منفصِلـةٌ عنـه**)؛ وكل هـذا تنقُّـص عظيـم لله[1].

قـال: (**ولا قَـدَرَهُ حـقَّ قَـدْرِهِ مَـن جعَـلَ لـه صاحبـةً وولـدًا**)؛ كمـا فعـل ذلـك اليهـود والنصـارىٰ، فقـال الله تعالـىٰ نافيًـا مـا افتَـرَوْهُ ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، أي: مولـودٍ، ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، أي: زوجـةٌ؛ فالذيـن جعلـوا لـه صاحبـةً وولـدًا مـا قـدَرُوهُ، ولا عظَّمـوه حـقَّ تعظيمـه.

---

(١) ينظر: الفتاوىٰ (٦/ ٦٩)، والصواعق المرسلة (١/ ٢٢٢).

ولا قدَرَهُ حقَّ قدرِهِ مَن **(جعله يحُلُّ في مخلوقاته، أو جعله عَيْنَ هذا الوجود)**؛ كالحُلُولية وأهل وَحْدة الوجود.

قال: **(ولا قدَرَهُ حقَّ قدرِهِ من قال)** مِن الروافض[1]: **(إنه رفَعَ أعداءَ رسولِهِ)** صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأعداءَ **(أهلِ بيتِه، وجعل فيهم المُلْك، ووضَعَ أولياءَ رسولِه)** صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأولياءَ **(أهلِ بيتِه)** ممن يقولون: إن بني أميَّة، أعداء لله وأعداء لرسوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعداء لأهل البيت، وقد رفَعَهم الله، وجعل فيهم المُلْك، وأنه عَزَّ وَجَلَّ أذلَّ أولياء رسوله **(وهذا يتضمَّن غاية القدح في الربِّ؛ تعالىٰ الله عن قول الرافضة)**.

قال: **(وهذا)** القولُ **(مشتقٌّ من قول اليهود والنصارىٰ في رب العالمين)**، وفي النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **(إنَّه أرسَلَ مَلِكًا ظالمًا، فادَّعىٰ النبُّوة، وكذَبَ علىٰ الله)**؛ إذْ قالوا: إن الله أرسل محمَّدًا ولم يكن رسولًا، وإنما هو مَلِكٌ ظالم ادَّعىٰ النبوَّة كاذبًا! **(ومكث زمنًا طويلًا)**: ثلاثًا وعشرين سنةً، **(يقول: أمرني)**، أي: ربي **(بكذا، ونهاني عن كذا، ويستبيحُ دماء أنبياءِ اللهِ وأوليائه وأحبابه)**، الذين هم -بزعمهم- اليهود والنصارىٰ، **(والربُّ تعالىٰ يُظْهِرُهُ، ويؤيِّده)**، وينصُرُه، **(ويقيم الأدلة)**، ويُجرِي **(المعجِزاتِ علىٰ صدقه، ويُقبِلُ بقلوبِ الخلق وأجسادهم إليه، ويقيم دولته علىٰ الظهور والزياده ويُذِلُّ أعداءه أكثر من ثمانمائة عام)**، أي: وأَمْرُ دولته في ظهور وزيادة أكثر من ثمانمائة عام -إلىٰ زمان المصنِّف- فهل يقول هذا عاقل؟!

---

(١) الروافض: طائفة تعتقد أحقية أهل البيت في الإمامة علىٰ باقي الصحابة، وأن الإمامة ركن من أركان الدين، ومنهم من يكفِّر جمهور الصحابة، ويرون أن الأئمة معصومون، وبعضهم يقول بتحريف القرآن، وهم فرق كثيرة منهم الإثنا عشرية. سمُّوا بالرافضة؛ لرفضهم إمامة الشيخين أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. قال فيهم شيخ الإسلام: (أعظم ذوي الأهواء جهلًا وظلمًا، يعادون خيار أولياء الله، ويوالون الكفار والمنافقين والملحدين). ينظر: الملل والنحل (١/ ١٤٦)، ومنهاج السنة (١/ ٢٠)، والموسوعة الميسرة (٢/ ١٠٥٩).

وقد ذكر هذه المسألة ابنُ القيم في رسالته «هداية الحيارىٰ»[١]، ومما قاله: إنه اجتمع بيهوديٍّ فقال له: أنتم تتنقَّصون الله غاية التنقص، وتسبُّون الله غاية السبِّ؛ حيث إنكم تدَّعون أن محمدًا ﷺ كاذب يتقوَّل علىٰ الله، ويدَّعي أنه نبي، والله تعالىٰ مع ذلك قد أيَّده ونصره، ويستبيح قتالكم وأنتم ورثة الأنبياء وأولادهم، ومع ذلك يُعِزُّهُ الله وينصره حتىٰ انتصر علىٰ أسلافكم وعليكم وعلىٰ أولادكم وأتباعكم.

واستمر دينه ظاهرًا من سَنَةِ الهجرة إلىٰ هذا القرن، فكيف يؤيِّده بهذا التأييد، وينصره بهذا النصر، وهو مع ذلك مفترٍ وكاذب؟!

فقال ذلك اليهودي: معاذ الله؛ أنا لا أقول: إنه كاذب، ولكنْ أقولُ: إنه رسول إلىٰ العرب، لا إلىٰ غيرهم.

فقال له ابن القيم: خُصِمْتَ غاية الخَصْمِ؛ أليس ادَّعىٰ أنه رسول إلىٰ الناس كافة؟! أليس إذا ادَّعىٰ أنه مُرسَلٌ إلىٰ جميع الناس وهو لم يُرسَلْ إلا إلىٰ العرب فقطْ، يكون هذا كذبًا منه؟! فلم يجد جوابًا ذلك اليهودي.

قال: (**فوازِنْ بين قولِ هؤلاءِ وقولِ إخوانهم من الرافضة، تَجِدِ القولَيْنِ سواءً**)؛ فالرافضة يقولون: إن الصحابة ظَلَمةٌ، وإن أهل السنة ظَلَمةٌ؛ ظلموا أهل البيت واحتقروهم، وأخذوا الخلافة منهم.

ونحن نقول لهم: كيف يكون الصحابة وأهل السنة ظَلَمةً، والله ينصُرُهم ويؤيِّدهم، ويقوِّيهم ويُظْهِرهم ويُعِزُّهم؟!

---

(١) ينظر: هداية الحيارىٰ (ص ٢٠٠).

قــال: (**ولا قَــدَرَهُ**) كذلك (**حقَّ قَــدْرِهِ مَن زعَــمَ أنه لا يحيــي الموتىٰ، ولا يبعـــث من في القبــور**)؛ وهذا قــول المشــركين الأوَّلين.

قــال: (**وبالجملة: فهذا بابٌ واســع**)؛ ولو توسَّــع فيــه المصنِّف لأورد الأدلــة الكثيــرة المتصلة بــه؛ كما فعــل بعض العلمــاء الذين توسَّــعوا فيه؛ كابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «النونية»[1].



(١) ينظر: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (ص١٦٨).

مَن عبَدَ مع الله غيرَهُ فقد عبَدَ شيطانًا
وبيانُ قبح الشركِ عقلًا وشرعًا

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[والمقصود: أن كلَّ من عبَدَ مع الله غيره، فإنه عبَدَ شيطانًا، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]، فما عبَدَ أحدٌ أحدًا من بني آدم كائنًا من كان، إلا وقد وقَعَتْ عبادته للشيطان؛ فيستمتِعُ العابد بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتِعُ المعبود بالعابد في تعظيمِهِ إيَّاه، وإشراكِهِ مع الله تعالىٰ؛ وذلك غاية رضا الشيطان؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾، أي: مِن إغوائهم وإضلالهم، ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

فهذه إشارة لطيفة إلىٰ السر الذي لأجله كان الشركُ أكبَرَ الكبائر عند الله، وأنه لا يُغْفَرُ بغير التوبة منه، وأنه موجِبٌ للخلود في العذاب العظيم.

وأنه ليس تحريمُهُ وقبحُهُ لمجرَّدِ النهي عنه فقط؛ بل يستحيل علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَشْرَعَ عبادة إله غيره، كما يستحيلُ عليه ما يناقِضُ أوصاف كماله، ونعوت جلاله].

الشَّرح

قال المصنِّف: (**والمقصود: أن كلَّ من عَبَدَ مع الله غيره فإنه عبَدَ شيطانًا**)؛ وذلك لأن الشيطان هو الذي يدعوه إلىٰ الشرك، فيزيِّن له أن يشرك مع الله غيره.

رُوِيَ في تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]: أن رجلًا يقال له: ابنُ الزِّبَعْرَىٰ من المشركين، سمع هذه الآية، فقال: أَمَا وَاللهِ لَوْ وَجَدتُّهُ لَخَصَمْتُهُ، فَسَلُوا مُحَمَّدًا: أَكُلُّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ فِي جَهَنَّمَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ؟ فَنَحْنُ نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَالْيَهُودُ تَعْبُدُ عُزَيْرًا، وَالنَّصَارَىٰ تَعْبُدُ الْمَسِيحَ عِيسَىٰ بْنَ مَرْيَمَ، فَعَجِبَ الْوَلِيدُ بن الْمُغِيرَةِ وَمَنْ كَانَ فِي الْمَجْلِسِ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ اللهِ بنِ الزِّبَعْرَىٰ، وَرَأَوْا أَنَّهُ قَدِ احْتَجَّ وَخَاصَمَ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ قَوْلِ ابْنِ الزِّبَعْرَىٰ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**نَعَمْ؛ كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ، فَهُوَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ؛ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ وَمَنْ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ**»[1]؛ فأخبر أن المشركين في الحقيقة يعبُدُونَ الشياطين، وكذلك أيضًا اليهود والنصارىٰ عبدوا الشياطين؛ فتقع عبادتهم للشيطان، لا لهؤلاء الأولياء ونحوهم.

ويقال هذا كذلك في الذين يعبُدُونَ عليًّا، والحسين، وزينبَ[2]، وعبد القادر الجِيلاني، ونحوهم؛ قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]؛ فإذا قال هؤلاء: نحن ما عبدنا الشيطان، نقول لهم: بل عبدتُّم الشيطان حين أغواكم، ووَسْوَسَ لكم، فاتبعتموه حتىٰ عبدتم غير الله؛ فهذه عبادتكم إيَّاه.

---

(١) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار، برقم (٩٨٦)، والطبراني في المعجم الكبير برقم (١٢٧٣٩)، عن ابن عباس رضي الله عنه. وينظر: تفسير الطبري (١٦/ ٤١٧)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٣٧٩).

(٢) زينب بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يزعم العامة أن لها قبرًا في مصر، والصحيح: أنها لم تدخل مصر، وقال المقريزي -مؤلف متن هذا الكتاب-: (وفي خارج باب النصر في أوائل المقابر قبر السيدة زينب بنت أحمد بن جعفر بن محمد بن الحنفية، وتسمِّيه العامة: مشهد السيدة زينب)، وهذا التصريح منه يكشف منشأ خطأ العامة، وسبب انتشار هذا الوهم. ينظر: القول الصريح عن حقيقة الضريح (ص١٠٣).

قال المصنِّف: (**فما عبَدَ أحدٌ أحدًا من بني آدم كائنًا من كان، إلا وقد وقَعَتْ عبادته للشيطان؛ فيستمتِعُ العابد**) المشرك (**بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتِعُ المعبود**)؛ سواء كان بَشَرًا أو شيطانًا، (**بالعابد**)؛ إن رضي بهذا الشرك؛ (**في تعظيمه إيَّاه، وإشراكِهِ مع الله تعالىٰ؛ وذلك غاية رضا الشيطان؛ ولهذا قال تعالىٰ**: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾، أي: من إغواءهم وإضلالهم، ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾)، يعني: استمتَعَ الإنسُ بالجن، واستمتَعَ الجنُّ بالإنس؛ الجنُّ استمتعوا بأنهم عُبِدوا، وأُطِيعوا، وعُظِّموا، ورُفِعوا، والإنسُ استمتعوا بأنْ عبَدُوا الجنَّ وحصَلَ لهم ما زعموا حصوله مِن نفعهم إياهم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾، أي: في الدنيا، وهو نهايةُ الأعمار، ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ جميعًا: العابدِ والمعبودِ، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨][1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]، أي: أنهم يعبُدُونَ الجنَّ والشياطين، ونحن بريئون منهم، فما أمرناهم بالعبادة ولا رَضِينا بذلك.

قال المصنِّف: (**فهذه إشارة لطيفة إلىٰ السر الذي لأجله كان الشركُ أكبَرَ الكبائر عند الله، وأنه لا يُغْفَرُ بغير التوبة منه**)؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا

(١) ينظر: تفسير البغوي (٣/ ١٨٨)، و تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٥).

عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، **(وأنه مُوجِبٌ للخلود في العذاب العظيم)**؛ ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

قال: **(وأنه ليس تحريمُهُ وقبحُهُ لمجرَّد النهي عنه فقطْ)**؛ فقد يقول بعضهم: إن المحرَّماتِ قد تكون حسَنةً، ولكنِ اكتسَبَتِ القبحَ من نهي الله تعالىٰ عنها، والصحيحُ: أن الله ما نهىٰ عن شيء إلا وهو قبيحٌ عقلًا وفطرةً.

وقد كرَّر المصنِّف كلمة **(عقلًا وفطرةً)**؛ ليدُلَّ علىٰ أن الله ما نهىٰ عن الشرك إلا لقبحِهِ، كما أنه ما نهىٰ عن الزنىٰ والربا ونحوهما إلا لقبحها.

قال المصنِّف: **(بل يستحيلُ علىٰ الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **أن يَشْرَعَ عبادة إلهٍ غيره)**؛ فإنَّ الشرك أقبح القبائح، **(كما يستحيلُ عليه)**، أي: علىٰ الله تعالىٰ **(ما يناقِضُ أوصاف كماله، ونعوت جلاله)**[1].



(١) ينظر للاستزادة في مبحث التحسين والتقبيح العقليين: مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٤).

أقسام الناس في العبادة والاستعانة

القسم الأول: أهلُ العبادة والاستعانة بالله عليها:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[واعلم: أن الناس في عبادة الله تعالىٰ والاستعانة به علىٰ أربعة أقسام[(١)]:

أجلُّها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها.

فعبادةُ الله: غايةُ مرادهم، وطلبُهُمْ منه أن يعينَهم عليها، ويوفِّقَهم للقيام بها: نهاية مقصودهم؛ ولهذا كان أفضلَ ما يُسأَلُ الربُّ تعالىٰ: الإعانةُ علىٰ مرضاته، وهو الذي علَّمه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ بن جَبَل، فقال: «**يَا مُعَاذُ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَلَا تَدَعْ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: رَبِّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[(٢)]؛ فأنفعُ الدعاءِ: طلَبُ العَوْنِ علىٰ مرضاته تعالىٰ[(٣)]].

---

(١) قوله: (علىٰ أربعة أقسام...)، إلىٰ آخر الكتاب؛ مستفاد من كتاب مدارج السالكين (١/ ٩٠-١١٤)، مع بعض الإضافات والتصرف.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (٢٢١١٧)، وأبو داود، كتاب الوتر، باب في الاستغفار، حديث رقم (١٥٢٢)، والنسائي، كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، حديث رقم (١٣٠٣)، وابن خزيمة، كتاب الصلاة، باب الأمر بمسألة الرب عَزَّوَجَلَّ في دبر الصلوات المعونة علىٰ ذكره وشكره وحسن عبادته، حديث رقم (٧٥١)، قال ابن حجر في نتائج الأفكار (٢/ ٢٩٧): (حديث صحيح).

(٣) وهذه الفائدة نقلها الإمام ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُمَاٱللَّهُ. ينظر: مدارج السالكين (١/ ٩٠).

الشَّرح

خصَّ المصنِّف العبادة والاستعانة بالكلام عنهما؛ لأن الله تعالىٰ جمعهما في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وذكَرَ أن الناس في عبادة الله والاستعانة به علىٰ أربعة أقسام:

١- قسمٌ: عبَدُوا الله، واستعانوا به.

٢- وقسمٌ: ما عبدوه، ولا استعانوا به.

٣- وقسمٌ: عبدوه، دون استعانة.

٤- وقسمٌ: استعانوا به، دون عبادة.

وأجلُّ هذه الأقسام وأفضلها: الذين جمعوا بين العبادة والاستعانة؛ فاستعانوا بالله علىٰ العبادة.

ولما كانت العبادة غايةَ مرادهم وأقصىٰ مَرَامهم، رجَوُا الله تعالىٰ أن يعينهم عليها، ولسانُ حالهم ومقالهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولكنْ نحتاج أن تعيننا علىٰ العبادة، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأننا لا نَقْدِرُ علىٰ القيام بها إلا بتوفيقك وإعانتك.

قال المصنِّف: **(ولهذا كان أفضلَ ما يُسْأَلُ الربُّ تعالىٰ: الإعانةُ علىٰ مرضاته؛ وهو الذي علَّمه النبي ﷺ لمعاذ بن جبَلٍ)**؛ حيث قال: «**إِنِّي لَأُحِبُّكَ يَا مُعَاذُ**»، فَقُلْتُ: وَأَنَا أُحِبُّكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَلَا تَدَعْ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: رَبِّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**».

ودَلَالـةُ هـذا الدعـاء: أن يعـترف العبـد بضعفـه وحاجتـه إلـىٰ توفيـق الله؛ فيقـول: ياربـي إني عاجـز عـن فعـل الطاعـات إذا لـم تُعِنِّـي؛ فأنـا بحاجـة إلـىٰ عونـك.

قـال: (**فأنفـعُ الدعـاءِ: طلَـبُ العَـوْنِ علـىٰ مرضاتـه تعالـىٰ**)؛ وهـذا هـو الـذي عليـه أهـل العبـادة والاسـتعانة الذيـن جمعـوا بيـن: العبـادة، وطلـب الإعانـة عليهـا؛ وهـؤلاء هـم أفضـل الأقسـام الأربعـة.



القسم الثاني: المعرِضونَ عن العبادةِ والاستعانة:

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

[**ويقابل هؤلاءِ القسمُ الثاني**: المُعْرِضون عن عبادتِهِ والاستعانةِ به؛ فلا عبادة لهم، ولا استعانة؛ بل إنْ سأله تعالىٰ أحدُهم واستعان به، فعلىٰ حظوظه وشهواته.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسأله من في السموات والأرض، ويسأله أولياؤُهُ وأعداؤه؛ فيَمُدُّ هؤلاءِ وهؤلاء.

وأبغَضُ خلقه إليه: إبليسُ، ومع هذا أجاب سؤاله، وقضىٰ حاجته، ومتَّعه بها؛ ولكنْ لما لم تكن عونًا علىٰ مرضاته، كانت زيادةً في شِقْوته وبُعْده.

وهكذا كلُّ من سأله تعالىٰ، واستعان به علىٰ ما لم يكن عونًا له علىٰ طاعته، كان سؤالُهُ مُبعِدًا له عن الله؛ فليتدبَّر العاقل هذا].

الشَّرح

القسم الثاني: المعرِضون عن العبادة والاستعانة، الذين لا عبادة ولا استعانة لهم، وإذا سأَل أحدُهم اللهَ واستعان به فإنما يستعين به علىٰ حظوظه الدنيوية وشهواته ولهوه؛ وهذا غاية استعانتهم، وهؤلاء شرُّ الأقسام؛ فلا عبادة لهم ولا استعانة عليها.

قال المصنِّف: (**والله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **يسأله من في السموات والأرض**)؛ كما أخبر بذلك: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

قال: (**ويسأله أولياؤه**)، ويسأله (**أعداؤه؛ فيُمِدُّ هؤلاءِ وهؤلاء**)؛ فأعداؤه الكفَّار لا يستغنون عن سؤاله، ولكنَّ سؤالهم لمجرَّد شهواتهم وأغراضهم الدنيوية؛ وإلا فإنهم لو عبدوه وسألوه الإعانة علىٰ العبادة لكانوا بذلك مِن خير خلقه.

وهو سبحانه قد عمَّ بستره ورزقه كلَّ من علىٰ وجه الأرض، يَمُدُّ هؤلاءِ وهؤلاءِ ممَّن يسأله من الكفَّار والمؤمنين؛ لأنه متكفِّلٌ بأرزاق العباد، ولو كانوا كفَّارًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، ولا يدُلُّ ذلك علىٰ كرامتِهم، ولا رفعةِ مكانتهم، وإنما يدُلُّ علىٰ حقارة الدنيا؛ يقول النبي ﷺ: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»[1]، يعني: أنَّ متاعَ الدنيا ليس له قيمة ولا موقع عند الله تعالىٰ، ويقول ابن القيِّم عن الدنيا مؤكِّدًا هذا المعنىٰ[2]:

لَكِنَّهَا وَاللَّهِ أَحْقَرُ عِنْدَهُ ... مِنَ ذَا الْجَنَاحِ الْقَاصِرِ الطَّيَرَانِ

ويقول ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لا يُحِبُّ، وَلا يُعْطِي الدِّينَ إلا مَنْ يُحِبُّ**»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب هوان الدنيا علىٰ الله، حديث رقم (٢٣٢٠) وابن ماجه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، حديث رقم (٤١١٠)، والحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق (٤/ ٣٠٦)، عن سهل بن سعد، قال الترمذي: (حديث صحيح غريب).

(٢) ينظر: الكافية الشافية (ص٢٥٩).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (٣٦٧٢)، والبزار في مسنده، حديث رقم (٢٠٢٦)، والحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، (١/ ٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (٥١٣٦)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقال الحاكم: (صحيح الإسناد).

قال المصنِّف: (**وأبغَضُ خلقه إليه: إبليسُ، ومع هذا أجاب سؤاله**)؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤-١٥]، (**فقضىٰ حاجته**)، وأمدَّه، (**ومتَّعه بها؛ ولكنْ لما لم تكن عونًا علىٰ مرضاته، كانت زيادةً في شِقْوته وبُعْده**).

فلو كان الله تعالىٰ لا يعطي الكفار لَمَا أعطىٰ إبليس، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، ﴿وَمَعَارِجَ﴾، أي: دَرَجًا من فضة، ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا﴾ أي: من فضة، ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥][(١)].

فهو سبحانه قد أعطىٰ الكفار، ووسَّع عليهم، ولكن هذا متاعهم وحظهم من الدنيا، وإذا جاء يوم القيامة يقول لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

قال المصنِّف: (**وهكذا كل من سأله تعالىٰ واستعان به علىٰ ما لم يكن عونًا له علىٰ طاعته، كان سؤاله مُبعدًا له عن الله**)، فالذين يسألونه إعانةً علىٰ ما ليس فيه طاعة لله يُبْعِدُهم سؤالهم عن الله؛ (**فليتدبَّرِ العاقلُ هذا**)، وليتدبَّر أنه سبحانه قد يعطي الكفَّار، وقد يجيب دعوتهم.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٥).

وقد أورد الفقهاء في (باب الاستسقاء) مسألةً تؤكِّد هذا الأمر[١]، فقالوا: إنْ خرَجَ أهْلُ الذِّمَّة يستسقون، لم يُمنَعُوا، ولكنْ لا يختصُّون بيوم يخرُجُونَ فيه وحدهم، وقد علَّلوا هذا الحكم -وهو عدم منعهم من الخروج- بأن لأهل الذمة رزقًا تكفَّل الله به؛ فلا يمنعون من الخروج إلىٰ الاستسقاء مع المسلمين في يوم واحد، ويكونون معتزلين في جانب، والله تعالىٰ هو القائم برِزْقِ الجميع.

---

(١) ينظر: المدوَّنة (١/ ٢٤٤)، والمجموع (٥/ ٧٢)، والمغني (٣/ ٣٤٩).

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[وليعلم: أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين ليست لكرامتِهِ عليه، بل قد يسأله عبدُهُ الحاجةَ فيقضيها له، وفيها هلاكُهُ، ويكونُ منعُهُ منها حمايةً له وصيانة؛ والمعصومُ مَنْ عصمه الله، والإنسانُ علىٰ نفسه بصيرة.

وعلامةُ هذا: أنك ترىٰ من صانه الله مِنْ ذلك[1] -وهو يجهل حقيقة الأمر- إذا رآه سبحانه يقضي حوائج غيره، يسيءُ ظنَّه به تعالىٰ، وقلبه محشوٌّ بذلك وهو لا يشعُرُ، وأمارة ذلك: حمله علىٰ الأقدار، وعتابه في الباطن لها.

ولقد كشف الله تعالىٰ هذا المعنىٰ غاية الكشف في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

أي: ليس كلُّ مَنْ أعطيتُهُ، ونعَّمتُهُ، وخوَّلته، فقد أكرمتُهُ، وما ذاك لكرامته عليَّ؛ ولكنَّه ابتلاء مني وامتحان له: أيشكرني؛ فأعطيَهُ فوق ذلك، أم يكفُرُني؛ فأسلُبَهُ إياه، وأحوِّلَهُ عنه لغيره؟!

وليس كلُّ مَنِ ابتليتُهُ فضيَّقْتُ عليه رزقه، وجعَلْتُهُ بقَدْرٍ لا يفضُلُ عنه، فذاك مِن هوانه عليَّ؛ ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر؛ فأعطيَهُ أضعاف ما فاته، أم يتسخَّطُ؛ فيكونَ حظُّه السُّخْطَ[2].

وبالجملة: فأخبر تعالىٰ أن الإكرام والإهانة لا يدوران علىٰ المال وسَعَةِ الرزق وتقديره؛ فإنه سبحانه يوسِّعُ علىٰ الكافر -لا لكرامته- ويقتِّرُ علىٰ المؤمن -لا لهوانه عليه- وإنما يُكْرِمُ سبحانه مَن يُكْرِمُ مِن عباده: بأن يوفِّقه لمعرفته ومحبَّته، وعبادتِهِ واستعانته.

فغاية سعادة الأبد: في عبادةِ الله، والاستعانةِ به عليها][3].

---

(١) أي: من إجابة دعائِهِ وسؤاله.

(٢) ينظر: التبيان في أقسام القرآن (ص ٢٠).

(٣) ينظر: الفوائد (ص١٥٢).

الشَّرح

قال المصنِّف: (**وليعلم: أن إجابة الله لسؤال بعض السائلين ليست لكرامتِهِ عليه**)؛ فليس كل من أجاب الله سؤالَهُ وأجاب دعوته له منزلة وكرامة عند الله؛ (**بل قد يسألُهُ عبده الحاجةَ فيقضيها له، وفيها هلاكُهُ، ويكون منعُهُ منها حمايةً له وصيانة**)؛ فالعبدُ قد يسأله حاجة ويعطيه إياها، وفيها شقاوته، فربما سأل العبدُ ربَّه مثلًا أن يعطيه من الدنيا؛ فتكون فتنةً له، أو أن يرزقه فلانةَ زوجةً له؛ فتكونُ سببًا في شقاوته؛ فإجابة دعوته في مثل هذه الحال فيها هلاكُهُ، ومنعُهُ منها حمايةٌ له وصيانة.

ولذا لو أن عبدًا صالحًا دعا الله وألحَّ عليه في الدعاء، ومنعه الله ولم يستجِبْ له، فلا يأسف ولا يحزن؛ فقد يكون مَنْعُهُ خيرًا له وحمايةً له عن الترف، والفخر، والاعتزاز، والكبرياء.

قال المصنِّف: (**والمعصومُ مَنْ عصمه الله**) من أسباب الهلاك، (**والإنسانُ علىٰ نفسِهِ بصيرة**)؛ فالإنسان عليه أن يتبصَّر في ذلك، وأن يَعرِفَ أن مصلحة نفسه فيما اختاره الله له.

قال المصنِّف: (**وعلامةُ هذا: أنك ترىٰ من صانه الله مِنْ ذلك -وهو يجهل حقيقة الأمر- إذا رآه سبحانه يقضي حوائج غيره يسيءُ ظنَّه به تعالىٰ، وقلبه محشوٌّ بذلك وهو لا يشعُرُ، وأمارة ذلك: حَمْله علىٰ الأقدار، وعتابه في الباطن لها**)؛ فبعض الذين صانهم الله فَمَنَعَهم، وما أجاب دعوتهم، ولا وسَّع عليهم في دنياهم، يَجْهَلُونَ حقيقة الأمر وحكمته، ثم إن أحدهم إذا رأىٰ أن ربَّه يقضي حوائج الناس أساء الظنَّ بالله؛ فيقول: «أنا دعوتُ ولم يعطني، ولم يجب دعوتي، وقد أجاب

دعوة هذا وذاك»، فقلبُهُ محشوٌّ بهذه الإساءة وهو لا يشعُرُ؛ فتراه يحمل علىٰ الأقدار، ويَعْتِبُ عليها في الباطن؛ وهذا غاية الجهل.

ولمثل هذا نقول: لا تَحْزَنْ؛ فلعل الله لم يمنعك إلا لإرادته بك الخير، وربما منَعَكَ من شيء قد يكون فيه هلاكك.

ولذلك قال المصنِّف: (**ولقد كشَفَ الله تعالىٰ هذا المعنىٰ غاية الكشفِ في قولِهِ تعالىٰ:** ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧])؛ فكلمةُ: ﴿كَلَّا﴾ لنفي هذا الظن.

أي: ليس كلُّ من أعطيته ونعَّمته يكون ذلك دليلًا علىٰ كرامته؛ بل قد أُعْطِي من ليس كريمًا عندي، وليس كلُّ مَن ابتليته وضيَّقت عليه رزقه يكون ذلك مِن هوانه عليَّ؛ بل قد أُكرِمُ الأولياء بالضِّيق وبالابتلاء وبحبس الدنيا عنهم؛ كما في حديث: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ، كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ؛ تَخَافُونَ عَلَيْهِ**»[1].

وفي الآية أخبر الله تعالىٰ أن بعض الناس إذا ابتلاه الله بالدنيا، وأعطاه، وخوَّله، ونعَّمه، ادَّعىٰ أن هذا كرامةٌ، وإذا ابْتُلِيَ وضُيِّقَ عليه رزقُهُ، وجُعِلَ بقَدْرٍ لا يفضُلُ عن حاجته، ظَنَّ أن هذا إهانة له، والصحيح: أن مجرَّد العطاء ليس دليلًا علىٰ الكرامة، وليس مجرد التضييق والابتلاء دليلًا علىٰ الإهانة.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (٢٣٦٢٢)، والترمذي، كتاب الطب، باب الحمية، عقب حديث رقم (٢٠٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٩٦٦)، عن محمود بن لَبِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال الترمذي: (حديث حسن غريب).

ومما يدل على ذلك: قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لما أتمَّ الله عليه النعمة لم يَدَّعِ أنها كرامة؛ بل قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]؛ فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن عطاءه ومنعه ابتلاءٌ وامتحان منه للعبد أيصبِرُ؛ فيعطيَهُ أضعاف ما فاته، أم يتسخَّطُ؛ فيكونَ حظُّه السخط.

وهذا ما جاء في الحديث؛ يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ؛ حَتَّىٰ يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»**(١).

وفي حديث آخر: **«إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ صَبَرَ فَلَهُ الصَّبْرُ، وَمَنْ جَزِعَ فَلَهُ الْجَزَعُ»**(٢).

قال المصنِّف: (**وبالجملة: فأخبر تعالىٰ أن الإكرام والإهانة لا يدوران علىٰ المال وسَعَةِ الرزق وتقديره؛ فإنه سبحانه**) وتعالىٰ قد (**يوسِّع علىٰ الكافر؛ لا لكرامته، ويقتِّرُ**)، أي: يضيِّقُ (**علىٰ المؤمن؛ لا لهوانه عليه، وإنما يُكْرِمُ سبحانه مَن يُكْرِمُ مِن عباده: بأن يوفِّقه لمعرفته ومحبَّته وعبادتِهِ واستعانتِهِ**)؛ وهذا غاية الإكرام.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب الصبر علىٰ البلاء، حديث رقم (٢٣٩٦)، والحاكم في المستدرك، كتاب الأهوال (٤/ ٦٠٨)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الترمذي: (حسن غريب).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب الصبر علىٰ البلاء، عقب حديث رقم (٢٣٩٦)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب الصبر علىٰ البلاء، حديث رقم (٤٠٣١)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (٩٣٢٥)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الترمذي: (حسن غريب).

القسم الثالث: مَنْ له عبادةٌ بلا استعانة:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة:

وهؤلاء نوعان:

أحدهما: أهلُ القَدَرِ القائلون بأنه سبحانه قد فعَلَ بالعبد جميعَ مقدروه من الألطاف، وأنه لم يبقَ في مقدروه إعانةٌ له علىٰ الفعل؛ فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق، وإرسال الرسول، وتمكينه من الفعل؛ فلم يَبْقَ بعدها إعانةٌ مقدورةٌ يسأله إياها.

وهؤلاء مخذولون، موكولون إلىٰ أنفسهم، مسدودٌ عليهم طريق الاستعانة والتوحيد؛ قال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ: نِظَامُ التَّوْحِيدِ؛ فَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَكَذَّبَ بِالْقَدَرِ، نَقَضَ تكْذِيبُهُ تَوحِيدَهُ)[1].

النوع الثاني: مَن لهم عبادة، وأوراد، لكنْ حظُّهم ناقصٌ من التوكل والاستعانة؛ لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقَدَر، وأنها بدون المقدور كالموات الذي لا تأثيرَ له؛ بل كالعدَم الذي لا وجود له، وأن القدَرَ كالروح المحرِّك لها، والمعوَّل علىٰ المحرِّك الأول؛ فلم تنفُذْ بصائرهم من السبب إلىٰ المسبِّب، ومن الآلة إلىٰ الفاعل؛ فقلَّ نصيبهم من الاستعانة.

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة، برقم (٩٢٥)، والفريابي في القدر، برقم (٢٠٥)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة والجماعة، برقم(١٢٢٤)، والطبراني في المعجم الأوسط، برقم (٣٥٧٣)، قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ١٤٩): «حديث لا يصح».

وهؤلاء لهم نصيبٌ من التصرُّف بحسَبِ استعانتهم وتوكلهم، ونصيبٌ من الضعفِ والخِذْلانِ بحسَبِ قلَّة استعانتهم وتوكّلهم.

ولو توكَّل العبدُ علىٰ الله حقَّ توكُّله في إزالةِ جبَلٍ عن مكانه لأزاله.

فإن قيل: ما حقيقة الاستعانة عملًا؟

قلنا: هي التي يُعبَّرُ عنها بالتوكُّل، وهي حالة للقلب تنشأ عن معرفة الله تعالىٰ، وتفرُّدِهِ بالخلق والأمر، والتدبير، والضرِّ والنفع، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فتُوجِبُ اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وثقةً به.

فتصيرُ نسبةُ العبد إليه تعالىٰ كنسبة الطفل إلىٰ أبوَيْهِ فيما ينوبه من رغبته ورهبته، فلو دهَمَهُ ما عسىٰ أن يَدْهَمَهُ من الآفات، لم يلتجئ إلىٰ غيرهما، فإنْ كان العبد مع هذا الاعتماد من أهل التقوىٰ، كانت له العاقبة الحميدة؛ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، أي: كافيه].

الشَّرح

القسم الثالث: الذين عبدوا الله، ولكنْ لم يستعينوا به؛ وهم نوعان:

أحدهما: القدريَّة: وهم (**مَجُوسُ هذه الأمَّة**)، الذين ينكرون قدرة الله علىٰ أفعال العباد، ويقولون: فإذا كان الله قد فعَلَ بالعبد جميع المقدورات، وخلقها في اليوم الأول، فلا حاجة بالعبد إلىٰ طلب الاستعانة؛ فالعباد قد أُعْطُوا الآلات من السمع، والبصر، والأفئدة، والأيدي، والأرجل، والهمة، والقدرة، والقوة؛ فلا حاجة إلىٰ أن يستعينوا بالله.

قال المصنِّف: (**وهؤلاء مخذولون؛ موكولون إلىٰ أنفسهم، مسدودٌ عليهم طريق الاستعانة والتوحيد**)؛ فهم مستغنُونَ بأنفسهم عن قدرة الله في نظرهم؛ ويلزم من قولهم أن قُدْرَتَهم أقوىٰ من قدرة الله؛ ولذلك لا يطلبون منه الإعانة، يقولون: «كيف يعيننا ونحن الذين نزاوِلُ أفعالنا؟!».

فهؤلاء القدرية هم النوع الأول الذين يُنْكِرونَ قدرة الله ولا يستعينون به، والقدر أحد أركان الإيمان؛ قال ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ: نِظَامُ التَّوْحِيدِ؛ فَمَنْ وَحَّدَ اللهَ وَكَذَّبَ بِالْقَدَرِ، كَانَ تَكْذِيبُهُ بِالْقَدَرِ نَقْضًا لِلتَّوْحِيدِ).

وهؤلاء هم المتصوِّفة.

وكذلك الجبرية الذين يُنكِرون قدرتهم، ويقولون: نحن مجبورون، وليس لنا قدرة، والله هو الذي يتصرَّف فينا، فهو الذي يحرِّك أعضاءنا، وهو الذي يحرك أسماعنا وأبصارنا؛ فهؤلاء لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقَدَر، ولم يدركوا أن حركات الإنسان كالموات، أو كالعدَمِ الذي لا وجود له، والقدَرُ كالروح المحرِّك لها، والمعوَّلُ علىٰ المُحَرِّك الأول، و ينكرون الأسباب، ولا يجعلون أفعال الله تعالىٰ معلَّلة؛ فلم تنفُذْ بصائرهم من السبب إلىٰ المسبِّب، ومن الآلة إلىٰ الفاعل؛ فلهم نصيبٌ من التصرُّف بحسَبِ استعانتهم وتوكلهم، ولهم نصيبٌ من الضعفِ والخِذْلانِ بحسَبِ قلة استعانتهم وتوكلهم.

قال المصنِّف: (**ولو توكَّل العبدُ على الله حقَّ توكُّله في إزالة جبلٍ عن مكانه لأزاله**). فإذا وثق العبد بالله وتوكَّل عليه حقَّ توكُّلِهِ، فاستعان به في إزالة جبَلٍ أُمِرَ بإزالته عن مكانه لأزاله؛ فهو يُعِينه ويَكْفيه؛ وهو على كل شيء قدير.

وحقيقة الاستعانة: أنها حالة للقلب تنشأ عن معرفة الله تعالى والاعتماد عليه، يعبَّر عنها بالتوكُّل؛ فيَكِلُ العبد أمره إلى الله ويفوِّضه إليه ويعتمد بقلبه عليه، ويرضى بتصرُّفه وبه حسيبًا ووكيلًا.

فهي تنشأ عن إقرار العبدِ بتفرُّد الله عَزَّوَجَلَّ بالخلق والأمر والتدبير، والضر والنفع؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥]، وأنَّ بيده الضرَّ والنفع، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ مما يُوجِبُ[1] اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وثقةً به.

قال المصنِّف: (**فتصيرُ نسبةُ العبد إليه تعالى كنسبة الطفل إلى أبوَيْهِ فيما ينوبه من رغبته ورهبته، فلو دهَمَهُ ماعسى أن يَدْهَمَهُ من الآفات لم يلتجئ إلى غيرهما**)؛ فكما أن الطفل لا يستغني عن أبويه، فالعبد لا يستغني عن ربه الذي يعطيه، ويدبِّره، ويحميه، ويحفظه، (**فإنْ كان العبد -مع هذا الاعتماد- من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة؛** ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، **أي: كافيه**).

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٤/ ٤٨)، وزاد المعاد (١/ ٣٥).

فالعبد لا غنىٰ له عن ربه طَرْفةَ عَيْن، وحاجته إليه شديدةٌ أشدَّ من حاجة الطفل الرضيع إلىٰ أبويه، ومتىٰ اتقىٰ اللهَ، واعتمد عليه، فإنه حَسْبُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، أي: اللهُ حَسْبُكَ وحَسْبُ مَنِ اتَّبعك من المؤمنين.



القسم الرابع: مَنْ له استعانةُ بلا عبادة:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[القسم الرابع: مَنْ له استعانةٌ بلا عبادة:

وتلك حالةُ مَن شَهِدَ تفرُّد الله بالضر والنفع، ولم يَدْرِ بما يحبه ويرضاه، فتوكَّل عليه في حظوظه، فأسعفه بها؛ وهذا لا عاقبة له؛ سواءٌ كانت أموالًا، أو رياساتٍ، أو جاهًا عند الخَلْق، أو نحوَ ذلك؛ فذلك حظه من دنياه وآخرته].

الشَّرح

القسم الرابع: عكس الثالث: مَنْ لهم استعانة بلا عبادة؛ يستعينون بالله، ولكنْ لا يعبدونه، وهي حالة مَنِ اعتقد أن الله تعالىٰ هو الذي ينفع ويضُرُّ؛ فصار يستعين به علىٰ حاجاته، وحظوظه الدنيوية وشهواته، وما تميل إليه نفسه؛ **(سواءٌ كانت)** -أي: هذه الحظوظُ- **(أموالًا، أو رياساتٍ، أو جاهًا عند الخلق، أو نحوَ ذلك؛ فذلك حظه من دنياه وآخرته)**، وليس له حظ من العبادة، فلم يحصل علىٰ شيء من حظوظ الآخرة؛ فهو داخل في قول الله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورىٰ: ٢٠].

فهؤلاء يستعينون بالله علىٰ أمور شهواتهم، وأمور حاجاتهم الدنيا، ولم يأتوا بالعبادة؛ فهم يستعينونه، ولا يعبدونه.

شروطُ قَبُولِ العبادة
وأقسام الناس فيها

القسم الأول: أهل الإخلاص والمتابعة:

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

[واعلَمْ: أن العبد لا يكون متحقِّقًا بعبادة الله تعالىٰ إلا بأصلين:

أحدهما: متابعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والثاني: إخلاص العبودية[1].

والناس في هذين الأصلين أربعة أقسام:

أهل الإخلاص والمتابعة؛ فأعمالُهم كلها لله، وأقوالهم، ومَنْعُهم وعطاؤهم، وحبُّهم وبغضهم، كل ذلك لله تعالىٰ، لا يريدون من العباد جزاءً ولا شكورًا، عَدُّوا الناسَ كأصحاب القبور، لا يَمْلِكونَ ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا؛ فإنه لا يعامِلُ أحدًا من الخلق إلا لجهلِهِ بالله، وجهلِهِ بالخلق.

والإخلاص هو: العمل الذي لا يتقبَّل الله من عامل عملًا صوابًا عاريًا منه، وهو الذي ألزم عباده به إلىٰ الموت؛ قال تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وأحسَنُ العمل: أخلَصُهُ، وأصوَبُهُ؛ فالخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون علىٰ وَفْقِ سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ (١/ ١٨٩).

وهـذا هـو العمـل الصالـح المذكـور في قولـه تعالـىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وهو العمَلُ الحَسَنُ[١] في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥].

وهـو الـذي أمـر بـه النبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قولـه: «**كُلُّ عَمَـل لَيْـسَ عَلَيْـهِ أَمْرُنَـا، فَهُـوَ رَدٌّ**»[٢].

وكل عمـل بـلا متابعـة، فإنـه لا يزيـد عاملَـهُ إلا بعـدًا مـن الله؛ فـإن الله تعالـىٰ إنمـا يُعْبَـدُ بأمـره، لا بالأهـواء والآراء].

الشَّـرح

قـال المصنِّـف: (**واعلـم: أن العبـد لا يكـون متحقِّقًـا بعبـادة الله تعالـىٰ إلا بأصليـن**):

١ - إخلاص العبادة لله.

٢ - ومتابعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهذان أصلانِ ورُكنانِ في كل عبادة.

(**والناس في هذين الأصلين أربعة أقسام**):

القسم الأول: جمعوا بين الإخلاص والمتابعة.

والقسم الثاني: من خَلَوْا من الإخلاص والمتابعة.

والقسم الثالث: مخلصون، ولكنْ مبتدعون.

والقسم الرابع: متَّبعون، ولكنْ ليسوا مخلصين.

---

(١) ينظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٨٢).

(٢) سيأتي تخريجه (ص١٨٦).

وخيرهم: القسم الأول؛ الذين جمعوا بين الركنَيْن، فأخلصوا لله، وتابعوا رسوله ﷺ.

والإخلاص: أن يكون الدِّينُ لله خالصًا.

والمتابعة: أن يكون العمَلُ علىٰ وَفْقِ ما جاءت به الشريعة، لا علىٰ البدعة.

وقد ذكر هذَيْنِ الشرطَيْنِ ابنُ القيِّم في «نونيته»[(١)]، فقال:

وَالصِّدْقُ وَالإِخْلَاصُ رُكْنَا ذَلِكَ التْـ ـتَوْحِيدِ كَالرُّكْنَيْنِ لِلْبُنْيَانِ

وذكرهما أيضًا الصَّنْعَانيُّ في «بائيته»[(٢)]، فقال:

فَلِلْعَمَلِ الإِخْلَاصُ شَرْطٌ إِذَا أَتَىٰ وَقَدْ وَافَقَتْهُ سُنَّةٌ وكِتَابُ

وقد كَثُرَ ذِكْرُ هذين الركنين في كلام العلماء، ومنهم: شيخ الإسلام في كتابه «التدمرية»[(٣)] وغيره، فلا بد لكل عمل صحيح من توافر هذين الركنين.

فالقسم الأول: أهلُ الإخلاصِ والمتابعة:

وهم الذين يعملون ولا يريدون بذلك إلا وجهَ الله تعالىٰ، وَفْقَ ما أمر الله به ورسوله ﷺ؛ وهو الأمر الذي ابتلَىٰ الله تعالىٰ به عبادَهُ في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، يعني: يختبِرَكم، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ -يعني: نختبِرَهم- ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

---

(١) ينظر: الكافية الشافية (ص١٨٨).

(٢) ينظر: أربح البضاعة في معتقد أهل السنة والجماعة (ص٨٧).

(٣) ينظر: التدمرية (ص٢٣٢).

وقد فسَّر الفُضَيلُ بنُ عياضٍ أحسَنَ العملِ في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فقال: (أحسَنُ العملِ: أخلَصُهُ وأصوَبُهُ)، فقيل له: فسِّره لنا يا أبا عليّ؟ فقال: إن العمَلَ إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقْبَلْ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقْبَلْ[1].

قال المصنِّف: (**فالخالصُ: أن يكون**) العمل (**لله، والصوابُ: أن يكون العمل علىٰ وَفْقِ سنة رسول الله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فمن عمل عملًا لغير الله فإنه مردود، ولو كان العمل من الأعمال الشرعية، ومَنْ عمل بدعة وجعلها لوجه الله فإنها مردودة؛ لأنه لم يتقيَّد بالسنة والشريعة.

قال: (**وهذا هو العمل الصالح المذكور في قوله تعالىٰ**: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠])؛ فالعمل الصالح: ما كان خالصًا لوجه الله، صوابًا علىٰ سنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأحسن العمل: أخلصه وأصوبه؛ نقل ذلك: شيخ الإسلام في «التدمرية»[2]، وابن القيم أيضًا في «مدارج السالكين»[3]، وغيرهما.

يقول الحِفْظِيُّ في «أُرْجُوزته»:

وَاللهُ لَيْسَ يَقْبَلُ الْعِبَادَهْ ... إِلَّا عَلَىٰ الأَمْرِ الَّذِي أَرَادَهْ[3]

---

(١) أخرجه أبو اسحاق الثعلبي في الكشف والبيان (٢٧/ ٩١) رقم (٣١٩٥)، وينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ٩٥).

(٢) ينظر: التدمرية (ص٢٣٣).

(٣) ينظر: مدارج السالكين (١/ ١٠٤).

(٤) ينظر: الأرجوزة الجامعة (ص١٠٣).

والعمل الخالص (هو العمل الحسن)؛ كما (في قول الله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[النساء: ١٢٥]).

أسلَمَ وجهَهُ: يعني: أخلَصَ؛ فلا يريد إلا وجه الله.

وهو محسن: أي: عمله حسَنٌ علىٰ وَفْقِ الشريعة.

قال المصنِّف: (وهذا هو الذي أمر به النبيُّ ﷺ)، في قوله: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ[1]».

وفي رواية: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ»[2].

فلا بد للمتعبد أن يتعبد بالسنة التي ثبَتَتْ؛ لأنه إذا تعبَّد بعبادة لم تكن مشروعة فإنه مبتدِعٌ محدِث، وكلُّ محدَثةٍ بدعة.

فالبدع الكثيرة التي يتعبَّد بها المبتدعة -كإحياء الموالد وما أشبهها- مردودةٌ، لا تزيد عاملَها إلا بعدًا من الله، ولو حَسُنَتْ مقاصد فاعليها؛ لأن الله تعالىٰ إنما يُعبَدُ بما شرعه في كتابه أو بيَّنه رسوله ﷺ، لا بالهوىٰ ولا بالرأي ولا بالاستحسان.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا علىٰ صلح جَوْر فالصلح مردود، حديث رقم (٢٦٩٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم (١٧١٨)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم (١٧١٨)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

القسم الثاني: مَنْ لا إخلاصَ له ولا متابعة:

والقسم الثالث: مَنْ له إخلاص بلا متابعة:

والقسم الرابع: مَنْ له متابعةُ بلا إخلاص:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[**الضرب الثاني**: مَنْ لا إخلاصَ له، ولا متابَعةَ:

وهؤلاء شرار الخلق، وهم المتزيِّنون بأعمال الخير، يراؤون بها الناس.

وهذا الضرب يكثُرُ فيمن انحرف عن الصراط المستقيم من المنتسبين إلىٰ الفقه والعلم، والفقر والعبادة؛ فإنهم يرتكبون البدع والضلال، والرياء والسمعة، ويحبُّون أن يُحْمَدُوا بما لم يفعلوا.

وفي أضراب هؤلاء نزَلَ قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨][١].

الضرب الثالث: مَنْ هو مخلِصٌ في أعماله، لكنها علىٰ غير متابعة الأمر؛ كجُهَّال العُبَّاد، والمنتسبين إلىٰ الزهد والفقر، وكلِّ من عبَدَ الله علىٰ غير مراده، والشأن ليس في عبادة الله فقطْ؛ بل في عبادة الله كما أراد الله.

ومنهم من يمكُثُ في خَلْوته تاركًا للجمعة، ويرىٰ ذلك قُرْبة، ويرىٰ مواصلة صوم النهار بالليل قُرْبة، وأن صيام يوم الفطر قُرْبة، وأمثال ذلك.

---

(١) ينظر: مدارج السالكين (١/ ٨٤).

الضرب الرابع: مَن أعمالُهُ علىٰ متابعة الأمر، لكنها لغير الله تعالىٰ؛ كطاعات المرائين، وكالرجُلِ يقاتِلُ رياءً وسُمْعةً وحميَّةً وشجاعة وللمغنم، ويحُجُّ ليقال، ويقرأ ليقال، ويَعْلَمُ ويُعْلِّمُ ليقال؛ فهذه أعمال صالحة، لكنها غير مقبولة؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

فلم يؤمر الناس إلا بالعبادة علىٰ المتابعة والإخلاص فيها، والقائمُ بهما هم أهل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]].

الشَّرح

القسم الثاني: من لا إخلاص لهم ولا متابعة:

فلا يعملون عملًا يريدون به وجه الله، ولا يتَّبعون سنة النبي ﷺ، ويدخل في هؤلاء: الكفَّارُ المعاندون الذين كذَّبوا الرسول ﷺ، ويدخُلُ فيهم أيضًا: الذين غيَّروا الشرائع وبدَّلوها ولم يعملوا بها؛ كالقانونيِّين ونحوهم.

ويدخُلُ في هؤلاء أيضًا: شرار الخلق المتزيِّنون بأعمال الخير ممن لا يقصدون وجهَ الله بأعمالهم، ولا يتابعون النبي ﷺ فيها، ويحبُّون أن يُحْمَدوا ويشتهروا بما لم يفعلوا؛ فلا يُخلِصون في العبادات التي يصيبون بها السنة، ويُضِيفون إلىٰ ذلك: أنهم يتعبَّدون بعبادات مُنتحَلة.

القسم الثالث: من حقَّقوا الإخلاص، ولم يحقِّقوا المتابعة:

وغالب هؤلاء من جُهَّال العُبَّاد الذين يريدون وجه الله، ولكنهم يتعبَّدون ببدع ما أنزَلَ الله بها من سلطان؛ فهم يتعبَّدون ويبكون ويخشعون ويتواضعون، ويريدون بذلك كله وجه الله، ولكنْ عملهم علىٰ غير الشرع؛ فهؤلاء ممن عبَدَ الله علىٰ غير مراده، **(والشأن ليس في عبادة الله فقطْ؛ بل في عبادة الله كما أراد الله)**.

ومن هؤلاءِ: الصوفيةُ أهل الخَلَوات، يخلو أحدهم في زاوية في بيته أو في مسجد أو نحوه، ساعاتٍ طويلةً دون أن يختلِطَ بأحد، ويترُكَ الجمعة والجماعة، ويرىٰ تلك الخَلْوةَ قُرْبةً لله، وإذا سئل عن ذلك؟ قال: أنا أجمع عليَّ فكري وقلبي، وأجمع الواردات التي تَرِدُ عليَّ، فإذا قمت إلىٰ الصلاة، تفرَّقَتْ جمعيَّتي، وتفرَّق ما استحضَرْتُهُ بقلبي[١]! أو يواصل صوم النهار بالليل[٢]، ويرىٰ أن ذلك قربةٌ، أو يصوم يوم العيد[٣]، ويرىٰ أن ذلك قربة!

وهؤلاء المعتزِلونَ في هذه الخَلَواتِ لهم بدع أمثال هذه، فيزعُمُون أن خلواتهم هذه توصِّلهم إلىٰ ما يسمونه: الفناء، وهو حالة -كما يزعمون-

---

(١) ينظر للاستزادة: الفوائد (ص١٤٢).

(٢) ثبت عن النبي صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ النهي عن الوصال؛ كما في الحديث المتفق عليه؛ أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب التنكيل لمن أكثر الوصال، حديث رقم (١٩٦٥)، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم، حديث رقم (١١٠٢)، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) ثبت عن النبي صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ النهي عن صيام يوم العيد؛ كما في الحديث الذي أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب صوم يوم الفطر، حديث رقم (١٩٩٠)، ومسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم يوم الفطر ويوم الأضحىٰ، حديث رقم (١١٣٧)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

يفنىٰ فيها المخلوق، ولا يبقىٰ إلا الخالق؛ يفنىٰ من لم يكُنْ، ويبقىٰ من لم يَزَلْ؛ كما نقله عنهم شيخ الإسلام في «التدمريَّة»[1].

القسم الرابع: من حقَّقوا متابعة النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يعملوا بالإخلاص لله تعالىٰ؛ فيقتدون في أعمالهم بالنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يُخْلِصون أعمالهم لله، وهؤلاء هم: المراؤون، الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ٣٨].

وقال تعالىٰ عنهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢]، يعني: بصلاتهم، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ [الماعون: ٥-٦].

وسئل النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الرجل يقاتِلُ حميَّة، ويقاتِلُ شجاعة، ويقاتِلُ رياء؛ فأيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ قَاتَلَ لِتكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله عَزَّوَ جَلَّ»**[2].

فالذين يقاتِلونَ لمصلحة دنيوية؛ كشهرةٍ وسمعةٍ، وإظهار المكانة عند الناس، أو حميَّةٍ، أو شجاعةٍ، والذين يحُجُّونَ مثلًا ويُكثِرونَ الحج؛ لأجل أن يقال: (فلان كثير الحج)، والذين يقرؤون ويحسِّنون قراءتهم؛ لأجل أن يُمْدَحوا، أو يُعلِّمونَ أو يتعلَّمون؛ لأجل أن يشتهِروا ويمدحهم الناس؛ فأولئك هم المراؤون.

---

(١) ينظر: التدمرية (ص١٨٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، حديث رقم (٧٤٥٨)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، حديث رقم (١٩٠٤)، عن أبي موسىٰ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فالقتال والصلاة، والنفقة والحج، والجهاد والقراءة والعلم، كلُّها أعمال صالحة، ولكنها لا تكون مقبولة إذا أريد بها غيرُ وجه الله[1].

والله تعالىٰ قد أمر بالإخلاص؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٢ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١١-١٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤].

فهذه الآياتُ أدلَّةٌ علىٰ أن الله تعالىٰ أمر بالدِّينِ الخالص، وأمر بالعبادة التي تكون خالصةً لوجهه تعالىٰ.

---

(١) جاء وعيد فاعل هذا في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، في وصف أول ثلاثة تسعَّر بهم النار يوم القيامة؛ أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، حديث رقم (١٩٠٥).

أصنافُ الناسِ في أفضل العباداتِ وأنفعها

الصنف الأول: من قالوا: أفضَلُها أشقُّها وأصعَبُها:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[ثم أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] لهم في أفضلِ العباداتِ وأنفعِها وأحقِّها بالإيثار والتخصيص: أربعةُ طُرُق، وهم في ذلك أربعة أصناف:

الصِّنْف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقُّها على النفوس، وأصعبها.

قالوا: لأنه أبعَدُ الأشياء من هواها، وهو حقيقة التعبُّد، والأجرُ على قَدْر المشقة[١]، ورَوَوْا حديثًا ليس له أصل: (**أفضلُ الأعمالِ: أَحْمَزُها**[٢])، أي: أصعَبُها وأشقُّها، وهؤلاء هم أرباب المجاهدات، والجَور على النفوس، قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك؛ إذْ طبعها الكسل، والمهانة، والإخلاد إلى الراحة؛ فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال، وتحمُّل المَشَاقّ].

---

(١) يشير إلى حديث عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أَنَّها قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، يَصْدُرُ النَّاسُ بِنُسُكَيْنِ، وَأَصْدُرُ بِنُسُكٍ؟ فَقِيلَ لَهَا: «انْتَظِرِي، فَإِذَا طَهُرْتِ، فَاخْرُجِي إِلَى التَّنْعِيمِ، فَأَهِلِّي، ثُمَّ ائْتِينَا بِمَكَانِ كَذَا، وَلَكِنَّهَا عَلَى قَدْرِ نَفَقَتِكِ أَوْ نَصَبِكِ»؛ أخرجه البخاري، كتاب أبواب العمرة، باب أجر العمرة على قدر النصب، حديث رقم (١٧٨٧)، ومسلم، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، حديث رقم (١٢١١).

(٢) قال أبو عبيد في غريب الحديث (٤/ ٢٣٣): (أَحْمَزُها، يعني: أَمْتَنَها وأَقْوَاها). وينظر: المقاصد الحسنة (ص٦٩)، وكشف الخفاء (١/ ١٧٥).

الشَّرح

قال المصنِّف: (أهلُ مقام ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لهم في أفضلِ العباداتِ وأنفعِها وأحقِّها بالإيثار والتخصيص: أربعةُ طُرُق، وهم في ذلك أربعة أصناف):

الصنف الأول: الذين يشدِّدون علىٰ أنفسهم.

والصنف الثاني: الذين ينقطِعون من الدنيا زهدًا فيها، ويشتغِلون بالعبادات.

والصنف الثالث: الذين ينفعون الناس؛ كالدعاة إلىٰ الله.

والصنف الرابع: الذين يقولون: أفضلُ العباداتِ العمَلُ علىٰ مرضاة الله في كل حال.

ولا شك أن ثَمَّةَ تفاوتًا بين هؤلاء وهؤلاء؛ بل إن بعضهم قد أخطؤوا أو قاربوا الخطأ.

الصنف الأول: الذين يقولون: أنفع العبادات: أشقُّها وأصعبها وأشدها كُلْفةً، والكُلْفةُ: هي نوع من المشقة؛ يقول الشاعر[1]:

يُكَلِّفُهُ الْقَوْمُ مَا نَابَهُمْ ... وَإِنْ كَانَ أَصْغَرَهُمْ مَوْلِدَا

فلذلك سُمِّيَتْ هذه العباداتُ تكاليفَ؛ لأن فيها شيئًا من المشقة؛ فالصيام، والصلاة، والطهارة، والجهاد، وقيام الليل، والحج، والعمرة، والنفقات، قد يكون فيها شيءٌ من المشقَّة علىٰ النفس.

---

(١) البيت للخنساء. ينظر: ديوان الخنساء (ص٣١).

ويستدِلُّ أصحاب هذا الرأي بأدلة؛ منها: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟**»، قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَىٰ الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**»(١)، وكذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا**»(٢)، ومعلومٌ أن الرباط هو: ملازمة الثغور، وسهَرُ الليل، وتعب النهار، وفيه مشقَّة بالغة.

ولكن هذا القول ليس علىٰ إطلاقه دائمًا؛ بل الأمرُ فيه سَعَةٌ، والأمر إذا ضاق اتسع(٣)، والله تعالىٰ لا يحب أن يَشُقَّ علىٰ عباده.

ولهذا لمَّا ذكَرَ فَقْدَ الماء أباح التيمم، ولم يكلِّفهم أن يحملوا ماءً، وقد قال تعالىٰ لمَّا شرَعَ التيمم: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، والحرج هو: الصعوبة الشديدة والمشقة، والدين لا يكون فيه حرَجٌ ولا صعوبة شديدة.

وقد أبيح الإفطار في السفر؛ لأن السفر مَظِنَّةُ الصعوبة والمشقة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أي: أباح لكم الإفطار؛ لأن الصيام في السفر فيه عُسْرٌ وصعوبة.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء علىٰ المكاره، حديث رقم (٢٥١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، حديث رقم (٢٨٩٢)، عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: المنثور في القواعد الفقهية (١/ ١٢٠).

ولا يريد الله بعباده العُسْرَ، وإنما يريد بهم: اليسر، وقد جعل مع العسر يسرًا؛ فقال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]، وجاء في الأثر: (لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ)[1]، وجاء في الحديث: «**عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ مِنَ الأَعْمَالِ؛ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا**»[2].

وقَدْ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا الحَبْلُ؟**»، قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا، حُلُّوهُ؛ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ**»[3].

والعبد إذا تقرَّب بالعبادة وهو مستثقِلٌ إيَّاها كَرِهَها، فإذا كرهها قَلَّ الأجر عليه، فهو مأمور بأن يَفْعَلَها وهو مُحِبٌّ لها وراغب فيها.

ومن القواعد عند الفقهاء: (**المشقَّةُ تجلِبُ التيسير**)[4]، ولأجل ذلك جاءت رخص السفر؛ كالفطر، وقَصْر الصلاة، والجمع، وزيادة المدَّة في

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجهاد، باب الترغيب في الجهاد (٢/ ٤٤٦)، وابن المبارك في الجهاد (٢١٧)، وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الجهاد، باب ما ذكر في فضل الجهاد والحث عليه، حديث رقم (١٩٤٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٩٥٣٨)، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفًا عليه، قال الحاكم (٢/ ٣٢٩): (صحيح علىٰ شرط مسلم، ولم يخرِّجاه).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلىٰ الله أدومه، حديث رقم (٤٣)، واللفظ له، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نعَسَ في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد، حديث رقم (٧٨٥)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة، حديث رقم (١١٥٠)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نعَسَ في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد، حديث رقم (٧٨٤)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) ينظر: شرح الكوكب المنير (٤/ ٤٤٥)، والتحبير شرح التحرير (٨/ ٣٨٣٥).

مسح الخُفَّيْن؛ بل مشروعيَّة المسح في حد ذاته كانت لأجل المشقَّة؛ لأن غسل القدمين مثلًا في شدَّة البرد قد يكون فيه صعوبة، فما أُبيحَ مسح الخفين إلا من باب التخفيف.

وأخبر الله تعالىٰ أنه يريد التخفيفَ علىٰ المكلَّفين؛ فقال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وهو تعالىٰ إنما يأمر الأنفُسَ بما تطيق؛ قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

فهؤلاء الذين يكلِّفون أنفسهم من المشاقِّ فوق ما يطيقون لا شك أنهم قد ظلَمُوا أنفسهم. وقد يقولون: إننا إذا حمَلْنا علىٰ أنفسنا فإنها تَلِينُ وتَذِلُّ، وإذا أرخينا لها العِنَانَ فإنها تتثاقل.

ولكننا نقول لهم: لا هذا ولا هذا؛ فلا تُعْطُوا أنفسكم هواها ولا تكلِّفوها من الأعمال ما لا تطيق؛ لأن النفوس إذا أُعْطِيَتْ هواها، ثَقُلَتْ عليها العبادات، ولو كانت يسيرة، وإذا كُلِّفَتْ فوق طاقتها ملَّت وانقطَعَتْ.

والذين أطلقوا لأنفسهم سراحها استثقلوا الصلاة في المساجد، وقالوا: الدِّينُ يُسْرٌ؛ فنصلي في البيوت، واستثقلوا أيضًا: النوافل -من صلاة، وصيام- وقالوا: نقتصر علىٰ الفرائض، وهذا تساهُلٌ زائدٌ مع النفوس، والأمر كذلك بالنسبة إلىٰ المناهي.

فلا ينبغي التساهل الزائد، ولا حمل الأنفس علىٰ ما لا تطيق؛ بل ينبغي أن يكون الأمرُ وسَطًا بين هذا وذاك.

الصنـف الثانـي: مَـنْ قالـوا: أفضَلُهـا الاشـتغال بالعبـادة، والانقطـاعُ عـن الدنيـا:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[**والصنف الثاني**: قالـوا: أفضـل العبـادات وأنفعهـا: التجـرُّدُ، والزهـدُ في الدنيـا، والتقلُّـلُ منهـا غايـة الإمـكان، واطِّـراحُ الاهتمـام بهـا، وعـدَمُ الاكـتراث لمـا هـو منهـا.

ثم هؤلاء قسمان:

فعوامُّهـم: ظنـوا أن هـذا غايـة؛ فشـمَّروا إليـه، وعملـوا عليـه، وقالـوا: هـو أفضـل مـن درَجـة العلـم والعبـادة، ورأوا الزهـد في الدنيا: غايـةَ كلِّ عبادة ورأسـها.

وخواصُّهـم: رأوا هـذا مقصـودًا لغيـره، وأنَّ المقصـودَ بـه: عكـوفُ القلـب علىٰ الله تعالـىٰ، والاسـتغراقُ في محبتـه، والإنابـة إليـه، والتـوكُّل عليه، والاشـتغال بمرضاتـه؛ فـرأوا أفضـل العبـادات: دوام ذكـره بالقلـب واللسـان.

ثم هؤلاء قسمان:

فالعارفـون: إذا جـاء الأمـر والنهـي، بـادروا إليـه ولـو فرَّقهـم، وأذهـب جمعيَّتهـم.

والمنحرِفـون منهـم: يقولـون: المقصـود مـن القلـب جمعيَّتـه، فـإذا جـاء مـا يفرِّقـه[1] عـن الله، لـم يلتفِـتْ إليـه، ويقولـون:

---

(١) في المطبـوع: (مـا يعرفـه)، وهـو تصحيـف؛ والمثبـت مـن شـرح الشـيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومـدارج السـالكين (١/ ١٠٧).

يُطَالَبُ بِالْأَوْرَادِ مَنْ هُوَ غَافِلٌ فَكَيْفَ بِقَلْبٍ كُلُّ أَوْقَاتِهِ وِرْدُ؟!

ثم هؤلاء أيضًا قسمان:

منهم: من يترك الواجباتِ والفرائضَ؛ لجمعيَّته.

ومنهم: من يقوم بها، ويتركُ السنن والنوافل وتعلُّمَ العلم النافع؛ لجمعيَّته .

والحق: أن الجمعيَّةَ: حظُّ القلب، وإجابة داعي الله: حقُّ الربِّ، فمَنْ آثَرَ حقَّ نفسه علىٰ حقِّ ربِّه، فليس من العبادة في شيء].

الشَّرح

قال المصنِّف : (**والصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات وأنفعها: التجرُّدُ، والزهدُ في الدنيا، والتقلُّلُ منها غاية الإمكان، واطِّراحُ الاهتمام بها، وعدَمُ الاكتراث لما هو منها**).

وهؤلاء وُجِدوا في القرون الأولىٰ، وعُرِفوا بالصوفيَّة، وقد سمُّوا بذلك؛ لتقشُّفهم، ولُبْسهم الصوف لخشونته، وإن كان بعضهم فيما بَعْدُ توسَّعوا واستحدثوا بدعًا.

ويسمَّوْنَ أيضًا: أهلَ السلوك؛ لأنهم روَّضوا أنفسهم علىٰ التقلُّل من الدنيا؛ فهم يحملون أنفسهم علىٰ شدة الجوع، وعدم التوسُّع في الشهوات والمطاعم والمشارب، ويقولون: إنَّ هذا ألذُّ لأنفسنا، ويقول بعضهم: (طلَبْتُ رِقَّةَ القلب، فوجَدتُّها في الجوع والعطش).

وقد رُوِيَ عن بعضهم عباراتٌ تدلُّ علىٰ أنهم مطمئِنُّونَ بذلك؛ مثل:

ما ذُكِرَ عن إبراهيم بن أدهم؛ أنه كان يأخذ كِسْرةَ خبزٍ يابسةٍ يشرب عليها من ماء البحر، ويقول: «**لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ السُّرُورِ وَالنَّعِيمِ، إِذًا لَجَالَدُونَا عَلَىٰ مَا نَحْنُ فِيهِ بِأَسْيَافِهِمْ**»[1].

وبعضُ هؤلاء انقطعوا عن الدنيا كلِّها، وكان بعضهم يتتبَّعون الكناسات والزبالات يَجْمَعُونَ منها ما يتقوّتون به، ولا يشتغلون بشيء من التكسب.

ولا شك أنهم شدَّدوا علىٰ أنفسهم، وإن رأوا هذا من رياضة النفوس وأخذِها بالتقشُّف والتقلُّل حتىٰ تَلِينَ وتَذِلَّ وتخضع للطاعة ولا تستثقِلَ العبادة.

قال المصنِّف: (**ثم هؤلاء قسمان:**

فعوامُّهم: ظَنُّوا أن هذا غاية، فشمَّروا إليه، وعملوا عليه، وقالوا: هو أفضل من درَجة العلم والعبادة، ورأوا الزهد في الدنيا غاية كلِّ عبادة ورأسها)، وقالوا: لا حاجة إلىٰ أن نتعلَّم العلم، ولا أن نشتغل بالعبادة ولا الكسب ولا الدنيا.

والقسم الثاني: الخواصُّ، وهم أقرب إلىٰ الصواب؛ رأَوْا أن ترك الدنيا مقصود لغيره، وأنَّ المقصود حقيقة: أن يعكُفَ القلب علىٰ الله، ورأوا أفضل العبادات: دوام الذِّكْرِ بالقلب وباللسان، فهم يقولون: إذا تفرَّغنا من الدنيا عكَفَتْ قلوبنا علىٰ الله، واستَغْرَقَتْ في محبته، وفي الإنابة إليه، والتوكُّل عليه، واشتَغَلَتْ بمرضاته.

---

(١) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٣٧٠)، و ابن الجوزي في صيد الخاطر (ص ٢٩٩).

وهؤلاء الذين تركوا الدنيا، وفرَّغوا قلوبهم للذكر قسمان:

القسم الأول: العارفون الذين يقولون: إذا جاء الأمر والنهي فلنبادِرْ إليه، ولو تفرَّقت جمعيَّاتنا وذهَبَتْ، فيقدِّمون أمر الله علىٰ هذه الجمعيَّات، **وهؤلاء أقرب للحق**؛ لأنهم تقشَّفوا وتقلَّلوا من الدنيا ومن شهواتها وزهدوا فيها، ولم يشتغلوا بها؛ بل اشتغلوا بطاعة الله تعالىٰ في كل حين.

القسم الثاني: المنحرِفون الذين يقولون: المقصود من القلب: جمعيَّته، فإذا جاء ما يفرِّقه عن الله فإنا لا نلتفِتُ إليه، وهؤلاءِ يُسمَّوْنَ: أهل الجمعيَّات؛ ينفرد أحدهم في زاوية، ويبقىٰ زمنًا طويلًا يحفظ جمعيَّته، ويجمع الواردات التي تَرِدُ علىٰ قلبه، إلىٰ أن يصل إلىٰ حالة يسمُّونها: الكَشْفَ[1]، أي: أنه إذا اجتمعت هذه الواردات علىٰ قلب أحدهم انكشف له الغطاء، وأبصر البعيدَ، واطَّلع علىٰ الأمور المغيبة، واشتغَلَ بربه، ولم يشتغل بغيره، ويسمُّونَ هذا: الفناء، ويرددون: «يفنىٰ مَنْ لم يكُنْ، ويبقىٰ مَنْ لم يَزَلْ»، أي: الخالق تعالىٰ، وأنشد بعضهم هذا البيت:

يُطَالَبُ بِالْأَوْرَادِ مَنْ هُوَ غَافِلٌ ... فَكَيْفَ بِقَلْبٍ كُلُّ أَوْقَاتِهِ وِرْدُ؟!

يقولون: إنما يطالب بالأوراد والأذكار أهلُ الغَفْلة، أما نحن فإن قلوبنا دائمًا مشتغلة بالوِرْدِ؛ فلا حاجة إلىٰ أن نشتغل بهذه الأذكار، ولا أن ندعو بهذه الأدعية؛ لأن قلوبنا دائمًا عاكفةٌ علىٰ ذِكْرِ ربها.

---

(١) ينظر: مدارج السالكين (٢/ ١٥٠).

وهؤلاء المنحرفون قسمان أيضًا:

قسم: يتركُ الواجبات والفرائض لأجل جمعيَّته، فإذا جاء وقت الصلاة، قال أحدهم: إذا قمتُ إلىٰ الصلاة تفرَّقت جمعيتي؛ فأنا الآن أشتغِلُ بجمع قلبي، ويمكُثُ في مكانه، وربما تمضي عليه خمس صلوات دون أن يصلي؛ يخشىٰ أن يتفرَّق قلبه! فيترك الواجبات، ويترك الفرائض، لأجل هذه الجمعيَّة! **وهؤلاء شرُّ الأقسام.**

القسم الثاني: يقوم بالواجبات، ولكن يترُكُ السنن والنوافل، ويترك تعلُّم العلم النافع، ويقول: أقتصر علىٰ الفريضة، ثم أعود إلىٰ جمعيَّتي؛ حتىٰ يجتمع قلبي، و أجمع عليَّ هذه الواردات.

قال المصنِّف: **(والحقُّ أن الجمعيَّة: حظُّ القلب، وإجابة داعي الله: حق الربِّ؛ فمن آثر حقَّ نفسه علىٰ حقِّ ربِّه فليس من العبادة في شيء).**

فمن لم يجب داعي الله، فليس بمعجِزٍ في الأرض، فأنت ياصاحب الجمعيَّة، إذا سمعت داعي الله، فإن عليك أن تجيب، فتقدِّم حق الربِّ علىٰ حظ القلب؛ فإن من آثَرَ حقَّ قلبه ونفسه علىٰ حقِّ ربِّه فليس من أهل العبادة، وليس من العبادة في شيء.

❧

الصِّنْف الثالث: مَنْ قالوا: أفضَلُها ما كان فيه نفعٌ مُتَعَدٍّ:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[**الصِّنْفُ الثالث**: رأوا أن أفضل العبادات: ما كان فيه نفعٌ متعدٍّ، فرأوه أفضل من النفع القاصر، فرأوا خِدْمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس، وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالجاه والمال والنفع: أفضل؛ لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْخَلْقُ عِيَالُ اللهِ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَىٰ اللهِ أَنْفَعُهُمْ لعياله**».

قالوا: وعَمَلُ العابد قاصر علىٰ نفسه، وعمل النفَّاع متعدٍّ إلىٰ الغير؛ فأين أحدهما من الآخر؟! ولهذا كان فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب.

وقد قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعليٍّ: «**لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»، وقال: «**مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أَجْرِ مَنِ اتَّبَعَهُ، من غير أن ينقص مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**»، وقال: «**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ مُعلِّمِي الْخَيْرَ**»، وقال: «**إِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، حَتَّىٰ الْحِيتَانُ فِي الْبَحْرِ، والنَّمْلُ فِي جُحْرِهَا**».

قالوا: وصاحبُ العبادة إذا مات انقطَعَ عمله، وصاحبُ النفع لا ينقطع عمله؛ مادام نفعه الذي تسبَّب فيه[1].

---

(١) يشير إلىٰ حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»؛ أخرجه مسلم، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم (١٦٣١).

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما بُعِثوا بالإحسان إلىٰ الخلق، وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يُبْعَثوا بالخَلَوات والانقطاع؛ ولهذا أنكَرَ النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علىٰ أولئك النفر الذين همُّوا بالانقطاع والتعبُّد، وتركِ مخالطة الناس.

ورأىٰ هؤلاء أن التفرُّق لنفع الخلق أفضَلُ من الجمعيَّة علىٰ الله بدون ذلك، قالوا: ومِن ذلك: العِلْمُ والتعليم، ونحوُ هذه الأمور الفاضلة].

الشَّرح

الصِّنْف الثالث من أهل العبادات: الذين رأوا أن أفضَلَ العبادات ما كان نفعُهُ متعدِّيًا، ولم يكن نفعه قاصرًا علىٰ فاعله فحَسْبُ، والنفعُ القاصر مثلُ: نوافل الصلوات، والصيام، والحج والعمرة، والأوراد، ونحو ذلك.

فيقولون: نحرص علىٰ أن نعمل الأعمال المتعدِّية؛ مثل: خِدْمةِ الفقراء، وقضاء حوائج الناس وإعانتهم، ومساعدتهم؛ فإنَّ ذكر العبد، ووِرْده، وقراءاته، وتهجُّده: قاصر علىٰ نفسه، أما النفَّاع -أي: كثيرُ النفع للناس- فإن عمله متعدٍّ إلىٰ غيره؛ فأين أحدهما من الآخر؟!

واستدلوا بحديث: «**الْخَلْقُ عِيَالُ اللهِ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَىٰ اللهِ: أَنْفَعُهُمْ لعياله**»؛ رواه البزَّار في «مسنده»، وأبو يعلىٰ في «مسنده»، من حديث أنس بن مالك، قالوا: في إسناده يوسُفُ بن عطيَّة الصفَّار ضعيف؛ وعُدَّ هذا الحديث من مناكيره.

ورواه الطبراني في «المعجم الكبير»، وفي «المعجم الأوسط»؛ من حديث ابن مسعود، وفيه: موسىٰ بن عُمَيْر -أبو هارون-، متروك، وتكلَّم عليه صاحب «المقاصد الحسنة»، و«كشف الخفاء»، و«فيض القدير»، ومع ذلك قد يكون معناه صحيحًا[١].

وذلك لأن الخلق بحاجة إلىٰ من يخدُمُهم وينفعهم، ويسهِّل أمورهم؛ ولهذا كان: «**فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ**»[٢]؛ فالعابد عبادته لنفسه، والعالم نفعه لغيره.

وقد جاء في الحديث قوله ﷺ لعليٍّ: «**لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**»[٣]؛ وهذا الحديث يدُلُّ علىٰ فضل الاشتغال بالدعوة إلىٰ الله، وبيانِ الحُجَّةِ لمن تشتبهُ عليه الأمور، وبيانِ العلم لمَنْ يجهله.

وكذلك قوله ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**»[٤].

---

(١) أخرجه البزَّار في مسنده، حديث رقم (٦٩٤٧)، وأبو يعلىٰ في مسنده، حديث رقم (٣٣١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (٧٠٤٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ٨٦)، حديث رقم (١٠٠٣٣)، والمعجم الأوسط، حديث رقم (٥٥٤١)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وينظر: المقاصد الحسنة (ص٣٢٤)، وكشف الخفاء (١/ ٤٣٧)، وفيض القدير (٣/ ٥٠٥).

(٢) جزء من حديث يأتي تخريجه في الصفحة التالية.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناسَ إلىٰ الإسلام والنبوة...، حديث رقم (٢٩٤٢)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حديث رقم (٢٤٠٦)؛ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب من سنَّ سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلىٰ هُدًىٰ أو ضلالة، حديث رقم (٢٦٧٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقولُهُ ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّىٰ النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّىٰ الحُوتَ، لَيُصَلُّونَ عَلَىٰ مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ»[١].

وقوله ﷺ: «إِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِلْعَالِمِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، حَتَّىٰ الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ»[٢]؛ وهذا يبيِّنُ فضلَ العالم الذي ينفع الناس بعلمه، والداعي الذي يدعو الناس إلىٰ الخير والهداية.

والقائلون بأفضليَّة الأعمال المتعدِّية يقولون: إن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله مِنْ ذِكْر، وتلاوة، ودعاء، وصلاة، وتهجُّد، ونحو ذلك، وأما صاحب النفع المتعدِّي فإن أجره مستمِرٌّ؛ مثل: أجر مسجدٍ عمَّره، وصدقةٍ جارية تصدق بها.

ويقولون: إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بُعِثُوا بالإحسان إلىٰ الخلق؛ من خلال دعوتهم وهدايتهم ونفعهم في معاشهم ومعادهم، ولم يُبْعَثوا بالخَلَواتِ ولا بالانقطاع، ولا بالعبادات القلبية والسلوك ونحوه فقطْ.

وقد أنكر النبيُّ ﷺ علىٰ أولئك النفَرِ الثلاثة الذين همُّوا بالانقطاع والتعبد وتَرْكِ مخالطة الناس، فقال أحدهم: أَمَّا أَنَا، فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ:

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه علىٰ العبادة، حديث رقم (٢٦٨٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٣٤)، حديث رقم(٧٩١٢)، عن أبي أمامة الباهلي، قال الترمذي: (حديث حسن صحيح غريب).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (٢١٧١٥)، وأبو داود، كتاب العلم، باب الحث علىٰ طلب العلم، حديث رقم (٣٦٤١)، والترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه علىٰ العبادة، حديث رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه، المقدمة، باب فضل العلماء والحث علىٰ طلب العلم، حديث رقم (٢٢٣)، عن أبي الدرداء، مطوَّلًا.

«أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟! أَمَا وَاللهِ، إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[1].

وقد كان كثير من السلف يَتَّجِرونَ وينفعون الناس، منهم: عبد الله بن المبارك؛ فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ عالمًا عابدًا وتاجرًا، وقد فتح الله عليه حتىٰ كسَبَ مالًا كثيرًا، وكان يقول: (لولا خمسةٌ ما اتَّجَرْتُ)[2]؛ إذْ كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرسل إليهم ما يحتاجون إليه، ويُنفِقُ عليهم.

وبلغه أن أحدهم -وهو إسماعيل بن عُلَيَّةَ[3]- تولَّىٰ القضاء، فأنكر عليه، وأرسل إليه أبياتًا يعاتبه فيها، ومنها[4]:

يَا جَاعِلَ الْعِلْمِ لَهُ بَازِيًا ... يَصْطَادُ أَمْوَالَ الْمَسَاكِينِ

إِحْتَلْتَ لِلدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا ... بِحِيلَةٍ تَذْهَبُ بِالدِّينِ

فَصِرْتَ مَجْنُونًا بِهَا بَعْدَ مَا ... كُنْتَ دَوَاءً لِلْمَجَانِينِ

فلمَّا جاءته، فزع منها إسماعيل، وجاء إلىٰ الخليفة، وقال: (اقبلوا عملكم)؛ فرَدَّ إليه ابنُ المبارك ما كان ينفق عليه.

فالحاصل: أن ابن المبارك لم تَشْغَلْهُ التجارة عن العلم والعبادة؛ بل كان يحُجُّ سنةً، ويجاهِدُ سنةً.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم (٥٠٦٣)، ومسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤونة، حديث رقم (١٤٠١)، عن أنس.

(٢) ينظر: تاريخ بغداد (٦/ ٢٣٤)، وتهذيب التهذيب (١/ ٢٤٢)، وسير أعلام النبلاء (٨/ ٣٨٦).

(٣) ينظر: تهذيب الكمال (٣/ ٢٣)، وسير أعلام النبلاء (٩/ ١٠٧).

(٤) ينظر: جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٣٧).

وقد أرسل أيضًا إلىٰ الفُضَيْل بن عياض قصيدتَهُ الشهيرة[(١)] التي ينكر عليه فيها تقديم العمل القاصر علىٰ العمل الذي نفعه متعدٍّ؛ فقال:

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا ... لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا ... رَهَجُ السَّنَابِكِ وَالْغُبَارُ الأَطْيَبُ
مَنْ كَانَ يُخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ ... فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنا تَتَخَضَّبُ

والخلاصة: أن فعل أمثال عبد الله بن المبارك فيه دليلٌ علىٰ أن مِن السلف مَنْ يرىٰ أن جمع المال وإنفاقه في وجوه الخير نفعُهُ عظيم؛ حيث يوسِّع به صاحبه علىٰ العلماء والفقراء، ويُنفِقُ منه علىٰ المجاهدين ويجهِّزُ الغزاة، ويُكثِرُ من فعل الخيرات، ويُسهِمُ في بناء المساجد والمدارس، ويَقْرِي ويتصدَّق، ويكون سببًا في احترام الناس له واعترافهم بفضله؛ مثلما قال بعضهم[(٢)]:

أَجَلَّكَ قَوْمٌ حِينَ صِرْتَ إِلَىٰ الْغِنَىٰ ... وَكُلُّ غَنِيٍّ فِي الْعُيُونِ جَلِيلُ
إِذَا مَالَتِ الدُّنْيَا إِلَىٰ الْمَرْءِ رَغَّبَتْ ... إِلَيْهِ وَمَالَ النَّاسُ حَيْثُ تَمِيلُ
وَلَيْسَ الْغِنَىٰ إِلَّا غِنىً زَيَّنَ الْفَتَىٰ ... عَشِيَّةَ يَقْرِي أَوْ غَدَاةَ يُنِيلُ

ولا شك أن الناس يتفاوتون بحسَبِ اختلاف الحال؛ فقد يقال: إن هؤلاء أفضل في حال، وهؤلاء أفضل في حال، وهذا عامٌّ في كل مفاضلة بين عَمَلَيْن.

فمَنْ كان قادرًا علىٰ كسب المال، ورأىٰ حاجة الناس إلىٰ نفقته ماسَّة، فإنه يَكْسِبُهُ وينفعهم، وهو علىٰ خير، وله أجر كبير؛ بشرط أَلَّا يعوقه عن العبادة.

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٤١٢).

(٢) الأبيات لأبي العتاهية. ينظر: ديوانه (٣٥٦).

كما أن له أن يتفرَّغ للعبادة، ويقتصِرَ علىٰ تحصيل قوته الضروري.

فكلٌّ بحسب حاله، ولكل اجتهاده.

وقد تكلَّم ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ كلامًا طويلًا في كتابه: «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»[1] عن المفاضلة بين الفقير الصابر، والغني الشاكر، وكأنه خلَصَ إلىٰ أن الكل علىٰ خير؛ فالغنيُّ الشاكر قد يكون نفعه متعدِّيًا، ولكن قد تكون دنياه تشغله عن بعض الخير، والفقيرُ الصابر قد يكون قلبه متفرِّغًا للطاعة وللعبادة، إلا أن نفعه قاصر عليه وحده، وقد أطال رَحِمَهُ اللَّهُ في إيراد أدلة هؤلاء وهؤلاء.

وتعرَّض لذلك أيضًا ابن مُفْلِحٍ في «الآداب الشرعية»[2].

وبالجملة: فقد رأىٰ أصحاب هذا الرأي -كما ذكَرَ المصنِّف- (**أن التفرُّقَ**[3] **لنفعِ الخلق أفضلُ من الجمعيَّة علىٰ الله بدون ذلك**)، وهؤلاء أيضًا علىٰ خير، وكلٌّ له اجتهاده.

(١) ينظر: عدة الصابرين (ص٢٤٩).

(٢) ينظر: الآداب الشرعية (٣/ ٤٦٨).

(٣) ينظر: مدارج السالكين (١/ ١٠٩).

الصِّنْـف الرابـع: مَـنْ قالـوا: أفضـلُ العبـادات العمَـلُ على مرضـاةِ الله في كلِّ حـال:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[**الصنـف الرابـع**: قالـوا: أفضـلُ العبـادة العمـل علـىٰ مرضـاة الـرب سـبحانه، واشـتغالُ كلِّ وقـت بمـا هـو مقتضـىٰ ذلـك الوقـت ووظيفتـه.

- **فأفضـل** العبـادات في وقـت الجهـادِ: الجهـادُ، وإنْ آل إلـىٰ تـرك الأوراد مـن صـلاة الليـل وصيـام النهـار؛ بـل مِـنْ تـرك إتمـام صـلاة الفـرض، كمـا في حالـة الأمـن.
- **والأفضل** في وقت حضور الضيف: القيامُ بحقِّه، والاشتغال به.
- **والأفضـل** في أوقـات السـحر: الاشـتغال بالصـلاة، والقـرآن، والذكـر، والدعـاء.
- **والأفضـل** في وقـتِ الأذان: تـركُ مـا هـو فيـه مـن الأوراد، والاشـتغال بإجابـة المـؤذن.
- **والأفضـل** في أوقـات الصلـوات الخمـس: الجِـدُّ والاجتهـاد في إيقاعهـا علـىٰ أكمـل الوجـوه، والمبـادَرَةُ إليهـا في أول الوقـت، والخـروج إلـىٰ المسـجد، وإن بَعُـدَ.
- **والأفضـل** في أوقـات ضـرورة المحتـاج: المبـادَرَةُ إلـىٰ مسـاعدته بالجاه والمـال والبدن.
- **والأفضـل** في السـفر: مسـاعدةُ المحتـاج، وإعانـة الرُّفْقـة، وإيثـار ذلـك علـىٰ الأوراد والخَلْـوة.

- **والأفضل** في وقت قراءة القرآن: جمعيَّةُ القلب، والهمة علىٰ تدبره، والعزم علىٰ تنفيذ أوامره، أعظَمَ من جمعيَّة قلب من جاءه كتاب من السلطان علىٰ ذلك.
- **والأفضل** في وقت الوقوف بعرفة: الاجتهادُ في التضرُّع، والدعاء، والذكر.
- **والأفضل** في أيام عشر ذي الحجة: الإكثارُ من التعبد، لا سيَّما التكبير والتهليل والتحميد، وهو أفضل من الجهاد غير المتعيِّن[١].
- **والأفضل** في العشر الأواخر من رمضان: لزومُ المساجد، والخَلْوة فيها، مع الاعتكاف، والإعراض عن مخالطة الناس، والاشتغال بهم، حتىٰ إنه أفضل من الإقبال علىٰ تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن؛ عند كثير من العلماء.
- **والأفضل** في وقت مرض أخيك المسلم، أو موته: عيادتُهُ، وحضور جنازته، وتشييعه، وتقديم ذلك علىٰ خَلْوتك وجمعيَّتك.
- **والأفضل** في وقت نزول النوازل، وأذىٰ الناس لك: أداء واجب الصبر، مع خِلْطتك[٢] لهم، والمؤمنُ الذي يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم أفضلُ من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم.

وخِلْطتهم في الخير أفضل من عُزْلتهم فيه، وعزلتهم في الشر خير من خِلْطتهم فيه؛ فإن علم أنه إذا خالطهم، أزاله، وقلَّله، فخِلْطتهم خير من اعتزالهم].

---

(١) ينظر: مدارج السالكين (١/ ١٠١).

(٢) الخِلْطة؛ بكسر الخاء: العِشْرة، والخُلْطةُ بالضم: الشركة. والمراد هنا الأوَّل. ينظر: مختار الصحاح (خ ل ط).

الشَّرح

الصنف الرابع: الذين يجمعون ذلك كله، ويختارون في كل وقت أفضل الأعمال وأشرفها، ويُسْهِمون مع كل أحد بنصيب، ويَحْرصون على أن يكون لهم سهم في كل عبادة إذا جاء وقتها؛ **فهؤلاء أفضل الأصناف**؛ لأنهم يجمعون فضائل الأصناف الأخرى من الذين اختاروا ترويض النفوس وإبعادها عن ملاهيها، والتقشُّف والبعد عن الدنيا، وعدَمَ الانشغال بشيء منها، والذين آثروا الأعمال المتعدِّية -ممن يرون أن قضاء حاجات المسلمين والشفاعة لهم والتعليم والدعوة إلى الله من أفضل الأعمال- فإنهم يجمعون بين ذلك كله.

وقد فصَّل ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ القول في هذه المسألة في كتابيه «طريق الهجرتين»[(١)]، و«مدارج السالكين»[(٢)]، فذكر أن أفضل الأعمال: أن يشتغل المسلم في كل وقت بما أُمِرَ به في ذلك الوقت من الأعمال، أي: بحَسَبِ ما يقتضيه الوقت من العمل.

فإن رأيت المجاهدين في وقت الجهاد، رأيته معهم.

وإن رأيت الذاكرين في أوقات الذكر، رأيته معهم.

وإن رأيت المنفقين والمتصدِّقين، رأيته معهم.

وإن رأيت الصائمين في أوقات فضل الصيام، رأيته معهم.

وإن رأيت القرَّاء الذين يتلون القرآن ويتدبَّرونه، رأيته معهم.

(١) ينظر: طريق الهجرتين (ص ٤٠٤-٤٠٨).
(٢) ينظر: مدارج السالكين (١/ ١٠٠-١٠٢).

وإن رأيت الدعاة إلىٰ الله، رأيته معهم.

وإن رأيت طلبة العلم والمعلِّمين المجدِّين، رأيته معهم[١].

يضرب مع كلٍّ بسهم بقدر ما يستطيع؛ وهذا هو الذي يُرْجَىٰ أن يكون من السابقين الأولين.

وقد قسَّم الله تعالىٰ أهل الجنة إلىٰ ثلاثة أقسام في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ فالسابقُ بالخيراتِ: هو الأفضل، والمقتصِدُ: الذي يليه، والظالمُ لنفسِهِ: يليه، وهو الأدنىٰ.

والراجحُ: أنهم كلهم في الجنة؛ كما ذكر ذلك ابن القيم[٢].

- **والظالم لنفسه** هو: الذي عنده سيئات؛ ولكن تعمُّه رحمة الله.
- **والمقتصد** هو: الذي يكون عنده عمل، وعنده نوع من الإهمال.
- **والسابق** بالخيرات هو: المُجِدُّ الذي عنده عمل؛ وليس عنده إهمال ولا غفلة.

ويعرِّفها بعضهم فيقول:

السابقون بالخَيْرات هم: الذين قاموا بالواجبات والمستحبات، وتركوا المحرَّمات والمكروهات، وتركوا أيضًا بعض المباحات التي تَشْغَلُ عن الفضائل.

(١) ينظر: المدارج، الموضع السابق.

(٢) ينظر: طريق الهجرتين (ص ١٨٧ وما بعدها).

وأما المقتصدون فهم: الذين عملوا الواجبات وبعض المستحبات، وتركوا المحرَّمات وبعض المكروهات، وتركوا بعض المستحبات وفعلوا بعض المكروهات وفعلوا المباحات.

وأما الظالم لنفسه فهو: الذي ترك بعض الواجبات وترك بعض المستحبات، وفعل بعض المحرَّمات وفعل بعض المكروهات، واستمَرَّ في أكثر المباحات[1].

وأصحاب هذا الرأي قالوا -كما ذكر المصنِّف- إن أفضل العبادة: العمَلُ علىٰ طلب رضا الله، واشتغالُ كل وقت بما هو مقتضىٰ ذلك الوقت ووظيفته؛ وذلك لأن الأوقات تتفاضل.

فالأفضل إذا جاء وقت الجهاد والغزو: هو الجهاد والغزو في سبيل الله، مع أنه قد يؤول إلىٰ ترك الأوراد؛ لأنهم إذا سافروا مجاهدين قد لا يتمكَّنون من فعل الأوراد، وأذكار الصباح والمساء، وقيام الليل والتهجد فيه؛ بل قد يَقْصُرون الصلاة الرباعيَّة؛ ومع ذلك فعملهم أفضل.

والأفضل في وقت حضور الضيف أو الزائر: القيام بحقه، والاشتغال به وبإكرامه، والاحتفاء به، ولو شغلهم ذلك عن قراءة القرآن والذكر، وكسب المال والتصدق به، وعن الأوراد والأدعية.

والأفضل في أوقات السَّحَر: الاشتغال بالتهجُّد والقراءة والذكر والدعاء؛ لأنه وقت فاضل فيُعِدُّونَ له عدَّته؛ لقول الله تعالىٰ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]، ولقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٦٦٩).

كذلك الأفضل وقتَ سماع الأذان: الاشتغالُ بإجابة المؤذِّن، وتركُ القراءة والأوراد والتعليم؛ لأن وقت هذه العبادة الخاصَّة يفوت.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجِدُّ والاجتهاد في إيقاعها علىٰ أكمل الوجوه، والمبادَرَةُ إليها في أول الوقت، والخروج إلىٰ المسجد وإن بَعُدَ.

فتراهم يقدِّمون أداء الصلوات وإكمالها علىٰ أورادهم وجمعيَّاتهم، فإذا تعارض وقت أورادهم مع وقت الصلاة قطعوا تلك الأوراد -من الأذكار، والأدعية، والقراءة- وقدَّموها علىٰ الأعمال كلها؛ لأن وقتها محدَّد.

واشتغلوا بهذه الصلوات في أوقاتها، وحرصوا علىٰ أدائها في أول الوقت؛ فإن أفضل الأعمال: «**الصَّلَاةُ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا**»[1].

والأفضل في وقت ضرورة المحتاج: المبادرة إلىٰ مساعدته بالجاه والمال والبدن، وكان بعضهم إذا رأىٰ محتاجًا ذهب واشتغل وتكسب إلىٰ أن يجمع مالًا يوسِّع به علىٰ هذا الفقير أو المضطر المحتاج، وكذلك فإن بعضهم يترك تعلُّمه وتعليمه ويذهب مع مسكين لشفاعة له، ولقضاء حاجته عند سلطان، أو عند مسؤول، أو نحو ذلك؛ وفي ذلك أدلة كثيرة من السنة.

والأفضل في السفر: مساعدة المحتاج، وإعانة الرفقة، وإيثار ذلك علىٰ الأوراد والخَلْوة.

وقد ذكر ابن رجب في كتاب «اللطائف»[2]: أن بعض العبَّاد من السلف كان إذا خرج حاجًّا يشترط علىٰ رفقته أن يَخْدُمَهم، وقد كان

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (٢٧١٠٤)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب في المحافظة علىٰ وقت الصلوات، حديث رقم (٤٢٦)، والترمذي، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الوقت الأول من الفضل، حديث رقم (١٧٠)، عن أم فروة. ينظر: تنقيح التحقيق لابن عبد الهادي (٢/ ٢٨).

(٢) ينظر: لطائف المعارف (ص٢٣٠).

الحج قديمًا تطول مدَّته، فيستغرق مثلًا مسير شهرين من الشام، فيقدِّم خدمتهم علىٰ قراءة القرآن، والأوراد، والأذكار، ونحوها، ويشترط عليهم إصلاح طعامهم، وغسيل ثيابهم، وإذا أراد أحدهم أن يفعل شيئًا من ذلك اعترضه، وقال: «هذا من شرطي».

والأفضل في وقت الفراغ إن رأىٰ حاجته إلىٰ تعاهد القرآن بدأ به، وأكثر من قراءته، وإن رأىٰ حاجته إلىٰ الأذكار أكثَرَ منها، وإن رأىٰ حاجته إلىٰ العلم تعلَّم سماعًا وقراءةً، وإن رأىٰ حاجته إلىٰ نفع أهله وخِدْمتهم قام علىٰ حاجتهم، وإن رأىٰ حاجته إلىٰ جمع مالٍ وكسبٍ يحتاجه شغَلَ هذا الوقت بالكسب وطلب الرزق.

والأفضل في يوم عرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر؛ فهو أفضل من القراءة، ومن تعلُّم العلم؛ لأن هذا وقت ذكر ودعاء، وأيام عشر ذي الحِجَّة الأفضل فيها: الإكثار من التعبد والذكر؛ فقد جاء في الحديث: «**فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ، وَالتَّكْبِيرِ، وَالتَّحْمِيدِ**»[(١)]، وقد ورد أن العمل فيها أفضل من الجهاد؛ ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا العَمَلُ فِي أَيَّام أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ**»، قَالُوا: وَلَا الجِهَادُ؟ قَالَ: «**وَلَا الجِهَادُ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ**»[(٢)].

وكذلك العَشْرُ الأواخر من رمضان موسمٌ من مواسم الأعمال الصالحة، والأفضل فيها: التفرغ للعبادة؛ فيلْزَمُ المسلمُ المساجدَ، ويخلو

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (٥٤٤٦)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٨٢) حديث رقم (١١١١٦)، والبيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (٣٤٧٤)، عن ابن عمر، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة (٣/ ١٧٠): (سنده صحيح).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، حديث رقم (٩٦٩).

فيها، ويعتكف، ويبتعد عن مخالطة الناس من أهل القِيلِ والقال، واللهو واللعب؛ وهذا أفضل من الإقبال علىٰ تعلُّم العلم والقرآن وتعليمه.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم: أن تَعُودَهُ، وتقدِّم عيادته علىٰ مصالحك، وأذكارك وأورادك، وقراءتك وتعلُّمك وتعليمك، وعند موته تقدِّم حضور جنازته وتشييعه، ولو فاتت عليك قراءة القرآن والأذكار، ولو فاتت عليك خَلْوتك وجمعيَّتك.

وكذلك الأفضل في وقت نزول النوازل، وأذىٰ الناس لك: أن تتحمل وأن تصبر علىٰ خِلْطتك لهم؛ كما قال ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلا يَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ**»[(١)].

وخِلْطَةُ الناس -حينما تذكِّرهم وتعظهم وتنبِّههم وترشدهم- أفضل من العزلة، أما إذا انتشر الشر بين الناس فإن العزلة أفضل من الخِلْطة، وكما ورد: «**الْوَحْدَةُ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسَ السُّوءَ، وَالْجَلِيسُ الصَّالِحُ خَيْرٌ مِنَ الْوَحْدَةِ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (٥٠٢٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨٨)، والترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، بابٌ، حديث رقم (٢٥٠٧)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب الصبر علىٰ البلاء، حديث رقم (٤٠٣٢)، عن ابن عمر، قال الحافظ في فتح الباري (١٠/ ٥١٢): (سنده حسن).

(٢) يُرْوَىٰ حديثًا مرفوعًا؛ أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق (٥٢٣)، والحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة (٣/ ٣٤٣)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٢٦٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٦٣٩)، عن أبي ذر. قال الذهبي: (لم يصح).

ويُرْوَىٰ موقوفًا علىٰ أبي ذر؛ أخرجه ابن أبي شيبة، حديث رقم (٣٥٨٢٨)، وابن أبي الدنيا في العزلة والانفراد، حديث رقم (١٢٦)، والخطابي في العزلة، حديث رقم (١٠٧).

ينظر: تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٣/ ١١١٩)، وفتح الباري (١١/ ٣٣١)، ويغني عنه قوله ﷺ: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر؛ يفر بدينه من الفتن**». أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الدين الفرار من الفتن، حديث رقم (١٩)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وإن علم الإنسان أنه إذا خالط أهل مُنْكَرٍ أزال المنكر، فخِلْطَتُهم خير من اعتزالهم، فإذا دُعِيتَ إلىٰ وليمة مثلًا، أو إلىٰ اجتماع أو زيارة ونحو ذلك، وعَلِمْتَ أن هناك منكرًا كاختلاط رجال بنساء، أو شرب دخان، أو سماع أغانٍ؛ فإن علمت أنك تَقْوَىٰ علىٰ إزالة هذا المنكر بالكلية، فعليك أن تجيب الدعوة، وتسعىٰ في إزالة هذا المنكر.

أما إذا خفت ألَّا تزيله ولا تقدر علىٰ إزالته بالكليَّة، ولكنك تستطيع أن تقلِّله وتخفِّفه، فالإجابة خير.

وأما إذا علمت أنهم لا يجيبونك، ولا يقبلون منك؛ بل ربما يزيد فِسْقُهم، ويَرُدُّونَ عليك ردًّا شنيعًا ويُسْكِتونك، ويَسُبُّونك، ويسبون ما جئت به، فالبُعْدُ هنا أفضل.



قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[وهؤلاء هم أهل التعبُّد المطلق، والأصناف التي قبلهم أهل التعبُّد المقيَّد؛ فمتىٰ خرج أحدهم عن الفرع الذي تعلَّق به من العبادة وفارقه، يرىٰ نفسه كأنه قد نقَصَ، ونزل عن عبادته؛ فهو يعبد الله علىٰ وجه واحد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبُّد بعينه يُؤْثِره علىٰ غيره؛ بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالىٰ؛ إن رأيت العلماء، رأيته معهم، وكذلك في الذاكرين، والمتصدِّقين، وأرباب الجمعيَّة، وعكوفِ القلب علىٰ الله؛ فهذا هو الغذاء الجامع للسائر إلىٰ الله في كل طريق، والوافد عليه مع كل فريق].

الشَّرح

من صفات الصنف الرابع: أنهم أهل التعبُّد المطلَق، والأصناف التي قبله: هم أهل التعبُّد المقيَّد، الذين يعبدون الله علىٰ وجه واحد لا يرون تغيُّرَهُ ولا الانتقالَ عنه، ومتىٰ خرج أحدهم عن الفرع الذي تعلَّق به من العبادة وفارقه رأىٰ نفسه ناقصًا.

فمن يرون التشدُّد إذا تساهلوا في بعض الأحوال قالوا: «نقَصَ ديننا، ونقَصَتْ عباداتنا»، والزاهدون في الدنيا إذا رأوا أنهم اشتغلوا بالدنيا -ولو بشيء يسير منها بكسب في تجارة أو حِرْفةٍ- رأوا أن دينهم قد نقص.

والذين يرون النفع العام إذا اشتغل أحدهم بنفع خاصٍّ لنفسه، وترك منفعة الناس، رأىٰ أيضًا أنه قد نقَصَ دينه، ونزَلَ عن عبادته.

أمـا أصحـاب التعبُّـد المطلـق فـإن أحدهـم ليـس لـه غـرض في عبـادة معيَّنـة يُؤْثِرهـا علـىٰ غيرهـا، وإنمـا غرَضُـهُ: أن يتتبـع مرضـاة الله تعالـىٰ، وأن يفعـل في كل زمـان مـا هـو أفضـل ولـو فـوَّت غيـره.



قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[واستحضِرْ هنا حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقولَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحضوره: «**هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَطْعَمَ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟**»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: «**هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَصْبَحَ الْيَوْمَ صَائِمًا؟**»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: «**هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ عَادَ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟**»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: «**هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ تَبِعَ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟**»، قَالَ أبو بَكْرٍ: أنا... الحديثَ[1].

هذا الحديث رُوِيَ من طريق عبد الغني بن أبي عَقِيل[2]:

ثنا يَغْنَمُ بنُ سالم، عن أَنَسِ بن مَالِكٍ رضي الله تعالىٰ عنه، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «**مَنْ صَامَ الْيَوْمَ؟**»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: «**مَنْ تَصَدَّقَ الْيَوْمَ؟**»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: «**مَنْ عَادَ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟**»، قَالَ أبو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: «**فَمَنْ شَهِدَ الْيَوْمَ جِنَازَةً؟**»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، فَقَالَ: «**وَجَبَتْ لَكَ، وَجَبَتْ لَكَ**»، يعني: الجَنَّةَ، ويَغْنَمُ بنُ سالم -وإن تُكلِّمَ فيه[3]- لكن تابعه سَلَمةُ بنُ وَرْدانَ[4].

ولـه أصل صحيح؛ من حديث مالك، عن محمد بن شهاب، عن حُمَيْد بن عبد الرحمن بن عَوْف، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ، نُودِيَ فِي الجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللهِ، هَذَا خَيْرٌ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ، نُودِي مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ**

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأعمال البر، حديث رقم (١٠٢٨)، عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٧/ ١٩٣).

(٣) قال ابن حبان في المجروحين (٣/ ١٤٥): (شيخٌ يضع الحديث).

(٤) أخرجه أبو يعلىٰ الفرَّاء في جزء من مجالسه، برقم (٥٢)، والخطيب البغدادي في الأسماء المبهمة، برقم (١٩٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/ ٩٧).

أَهْلِ الجِهَادِ، نُودِيَ مِنْ بَابِ الجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ، نودي مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ، نُودِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ»، فَقَالَ أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ الله، مَا عَلَىٰ مَنْ نُودِيَ مِنْ هَذه الأَبْوَابِ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَىٰ أَحَدٌ مِنْ هذه الأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»[1].

هكذا رواه عن مالك موصولًا مسندًا: يحيىٰ بن يحيىٰ، ومَعْنُ بن عيسىٰ، وعبد الله بن المبارك. ورواه يحيىٰ بن بُكَيْر، وعبد الله بن يوسف، عن مالك، عن ابن شهاب، عن حُمَيْد؛ مرسلًا، وليس هو عند القعنبي مرسلًا ولا مسندًا[2].

ومعنىٰ قوله: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ»، يعني: شيئَيْنِ من نوع واحد؛ نحو: درهمَيْن، أو دينارَيْن، أو فرسَيْن، أو قميصَيْن، وكذلكَ من صلىٰ ركعتين، أو مشىٰ في سبيل الله تعالىٰ خُطْوَتَيْن، أو صام يومين، ونحو ذلك.

وإنما أراد -والله أعلم- أقل التكرار، وأقل وجوه المداومة علىٰ العمل من أعمال البر؛ لأن الاثنين أقل الجمع].

الشَّرح

استشهد المصنِّف بحديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقولِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ أَطْعَمَ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟»، فَقَالَ أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا...الحديثَ، والشاهد منه: الدلالة علىٰ أن كلَّ من عمل طاعة، وعمل

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين، حديث رقم (١٨٩٧)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة، وأعمال البر، حديث رقم (١٠٢٧).

(٢) ينظر: التمهيد (٧/ ١٨٣)، وفتح الباري (٤/ ١٣٤).

خيرًا، فإن الله تعالىٰ يثيبه ويعطيه علىٰ قَدْر عمله، وأنَّ خصال الخير كلما كثرت كثر الأجر عليها؛ ولذا لا ينبغي أن يقتصِرَ المسلم علىٰ خَصْلة ويترك بقية الخصال وقت مناسبتها؛ بل يَحْرِصُ علىٰ أن يعمل أعمال الخير علىٰ اختلافها وتنوعها؛ فأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جمع في يوم واحد بين: إطعام المسكين، والصيام، وعيادة المريض، و اتباع الجنازة.

وفي رواية أخرىٰ[1]: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الذي كان يُجِيبُ فيقول: (أنا)، ولا مانع أن أبا بكر في مرةٍ كان هو الذي جمَعَ الخصال الأربع، وفي مرةٍ أخرىٰ كان عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم ذكر حديث أبي هريرة الآخر المتفق عليه؛ وفيه: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ**...»، الحديثَ.

فالذي يجمع هذه الخصال كلها يُدْعَىٰ من أبواب الجنة كلها، والذي ينفق زوجَيْنِ -أي: نوعَيْنِ من النفقة- ينادىٰ من بابٍ من أبواب الجنة هو: باب الصدقة، والذي يواظب علىٰ الصلوات ونوافلها، ويحافظ عليها، ينادىٰ من باب الصلاة: «**يا عبدالله؛ هذا خير**»، والذي يشتغل بالجهاد -جهاد الكفار وجهاد النفس- ويبذل ما يستطيع، يدعىٰ من باب الجهاد: «**يا عبدالله؛ هذا خير**»، والذي يُكثِرُ من الصيام يدعىٰ من باب يقال له: «**باب الرَّيان**»، سمي بذلك؛ لأنهم إذا دخلوه شربوا فلا يظمؤون بعدها أبدًا.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (١٢١٨٢)، وابن أبي شيبة في المصنف، حديث رقم (١٠٨٤٤)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٥/ ٢٤٧٨)، والبغوي في شرح السنة (٦/ ١٤٧)، من طريق سلمة بن وَرْدان، عن أنس.

وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عرَفَ أن الإنسان قد يجمع بينها؛ إذا كان من أهل المواظبة على الصلوات، ومن المجاهدين، ومن المتصدِّقين، ومن الصائمين؛ فسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ما على من دُعِيَ من هذه الأبواب مِن ضرورة؛ فهل يُدْعَىٰ أحد من هذه الأبواب كلها؟ فقال: «**نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ**».

ومعنىٰ: «**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ**»، يعني: أنفق شيئَيْنِ من نوع واحد[1]، فيدخل في ذلك إذا أنفق درهمَيْنِ من الفضة، أو دينارَيْنِ من الذهب، أي: قطعتين، أو فرسَيْنِ سبَّلهما علىٰ المجاهدين مثلًا، أو قميصَيْن أو ثوبَيْن ليلبسهما مسكين، أو صلىٰ ركعتين، فإنهما زوجان، أو مشىٰ في سبيل الله تعالىٰ خطوتين، أو صام يومين؛ فكل ذلك يكون ممن أنفق زوجين في سبيل الله. ومعنىٰ (**سبيل الله**): رضا الله، أي: السبيل التي تكون وسيلة إلىٰ ما يُرْضِي الله تعالىٰ.

وإنما أراد بالزوجين -والله أعلم- أقل التكرار، وهو: اثنان؛ وإلا فالأربعة أفضل من الثلاثة، والعشرة أفضل من التسعة، والعشرون أفضل من التسعةَ عشَر؛ فكلما زاد العمل كان الأجر أكثر، فإذا أنفق ألفًا كان أفضل من الذي أنفق تسعمائة، وكذلك أيضًا إذا صلىٰ عشر رَكَعات كان أفضل من الذي يصلي ركعتين، وإذا خطا إلىٰ المسجدِ مائة خطوة فهو أفضل من الذي يخطو عَشْرَ خطوات، وما أشبه ذلك؛ فأقل وجوه المداومة علىٰ العمل من أعمال البرِّ أقل الجمع، وهو: الاثنان؛ والكثرة خير.

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية (٢/ ٣١٧): (الأصل في الزوج: الصنف والنوع من كل شيء، وكل شيئين مقترنين -شكلين كانا أو نقيضين- فهما زوجان).

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[فهذا كالغَيْث؛ أين وقع نفع، صَحِبَ اللهَ بلا خَلْق، وصَحِبَ الخَلْقَ بلا نَفْس[١]، إذا كان مع الله عزَلَ الخلائق مع البَيْن، وتخلَّىٰ عنهم، وإذا كان مع خلقه، عزَلَ نفسه من الوسط، وتخلَّىٰ عنها؛ فما أغربه بين الناس! وما أشدَّ وَحْشَتَهُ منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!].

الشَّرح

قال المصنِّف: (**فهذا**) -أي: الصنف الرابع- (**كالغيث؛ أين وقع نفع**)؛ لأن الذي يسهم في شتىٰ الأعمال الصالحة الخيريَّة كالغيث ينفع أينما وقع.

ومعنىٰ قول المصنِّف: (**صَحِبَ اللهَ بلا خَلْق، وصَحِبَ الخَلْقَ بلا نَفْس**)، أي: أنه إذا عبد الله تعالىٰ انصرف عن الناس وعن الخلطاء الذين يشغلونه، وإذا صحب الخلق تواضع لهم، ولم يصحبهم بصفة فيها شيء من حظ النفس.

وقوله: (**إذا كان مع الله عزَلَ الخلائق من البَيْن، وتخلَّىٰ عنهم**)، يعني: إذا خلا عبَدَ اللهَ بإخلاص، وأحضر قلبه ولبَّه؛ كما إذا كان في صلاة أو قراءة أو ذكر فإنه يعزل الخلائق من البَيْن، فلا يكون بينه وبين الله أحد منهم ينغمس في صحبته أو يركن إليه أو يعتمد عليه اعتماده علىٰ ربه. رُوِيَ عن بعضهم قوله[٢]:

(١) هذا القول عزاه الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ٣١٠)، لعبد القادر الجِيلاني.
(٢) ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ (٢/ ٢٨٨)، عن الحلَّاج.

بَيْنِـي وَبَيْنَـكَ إِنِّـيٌّ تُزَاحِمُنِـي فَارْفَعْ بِفَضْـلِكَ إِنِّيِّي مِـنَ الْبَيْنِ

وقـول المصنِّـف: (وإذا كان مـع خلقـه عـزَلَ نفسـه مـن الوسـط، وتخلَّـىٰ عنهـا)، أي: عـزل حظـوظ نفسـه مـن أن تكـون هـذه الحظـوظ متوسـطة ومطلوبـة بينـه وبيـن الخلـق؛ فهـو يصحبهـم بـلا نَفْسٍ؛ فـلا يـرىٰ لهـا مزيـةً عليهـم، ولا ينشـغل بهـم ولا بأذاهـم.

وهـذا الجنـس غريـب بيـن النـاس؛ لقلَّـة مـن يكـون بهـذه الصفـة، فهـو يستوحش من الناس، ويحب الخَلْوة، خاصَّةً في زمن الفتن وكثرة المعاصي.

جـاء عـن سـعد بن أبي وقـاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّـه لمَّـا وقعـت الفتـن بيـن علـيٍّ ومعاويـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا اعتزلهـا، وابتعـد، وصـار إلـىٰ الباديـة، حتـىٰ صـار لسـان حالـه كمـا يقـول القائـل:

عَوَىٰ الذِّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذِّئْبِ إِذْ عَوَىٰ
وَصَـوَّتَ إِنْسَـانٌ فَكِـدتُّ أَطِيـرُ[1]

وهكذا حال الذي يستوحش من الناس زمن الفتن.

ولا شـك أن المخالطـة إذا كانـت لأهـل الخيـر فإنهـا خيـر؛ كمـا يقـول بعضهـم: «الوَحْـدةُ خيـرٌ مـن جليـس السُّـوء، والجليـسُ الصالـحُ خيـرٌ من الوَحْدة».

---

(١) عزاه الجاحظ في الحيوان (١/ ٣٧٩)، للأحيمر السَّعْدي.

أمـا إذا كان الخلطـاء يشـغلونه -بمـا هـم فيـه ممـا لا فائـدة فيـه- فإنـه ينفـرد، ويشـتغل بالقـرآن والعلـم؛ فيجعـل جليسـه المُصْحَفَ أو الكتـاب:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنا: سَرْجُ سَابِحٍ ... وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ: كِتَابُ[١]

---

(١) البيت للمتنبي. ينظر: ديوانه (ص٤٧٩).

أصنافُ الناس في منفعة العبادة وحكمتها والمقصود منها

الصِّنْفُ الأوَّل: الجبريَّة:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[واعلم: أن للناسِ في منفعة العبادة وحِكْمتها ومقصودها طُرُقًا أربعة، وهم في تلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: نفاة الحكم والتعليل: الذين يردون الأمر إلىٰ نفس المشيئة، وصِرْفِ الإرادة؛ فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر من غير أن يكون سببًا لسعادة في معاش ولا معاد، ولا سببًا لنجاة، وإنما القيام بها لمجرَّد الأمر، ومحض المشيئة؛ كما قالوا في الخلق: (لم يخلق لغاية، ولا لعلة هي المقصودة به، ولا لحكمة تعود إليه منه، وليس في المخلوقات أسباب تكون مقتضِيَاتٍ لمسبَّباتها، وليس في النار سبب للإحراق، ولا في الماء قوة الإغراق ولا التبريد).

وهكذا الأمر عندهم سواء؛ لا فرق بين الخلق والأمر، ولا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور، ولكنَّ المشيئة اقتضت أمره بهذا، ونهيه عن هذا؛ من غير أن يقوم بالمأمور به صفة تقتضي حُسْنه، ولا بالمنهيِّ عنه صفة تقتضي قبحه؛ ولهذا الأصل لوازم وفروع كثيرة.

وهؤلاء غالبهم لا يجدون حلاوة العبادة ولا لَذَّتها، ولا يتنعَّمون بها؛ ولهذا يسمُّون الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والتوحيد،

والإخلاص، ونحو ذلك: تكاليفَ، أي: كُلِّفُوا بها، ولو سمَّىٰ مدعي محبة ملك من الملوك، أو غيره ما يأمر به تكليفًا، لم يُعَدَّ محبًّا له[(١)].

وأوَّل من صدَرَتْ عنه هذه المقالة: الجَعْدُ بنُ دِرْهَم].

الشَّرح

للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها أربعة طرق، فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: نفاةُ الحِكَمِ والتعليل، ويغلب هذا علىٰ الجبريَّة، ومن قال بقولهم من الأشعرية الذين ينفون الحِكَمَ والمصالح في المشروعات والمخلوقات، ويَرُدُّونَ الأمر إلىٰ محض المشيئة؛ فيقولون: «شاء الله كذا، وشاء كذا، بدون أن يكون هناك مصلحة؛ إنما هو صرف الإرادة»؛ فالقيام بالعبادات عندهم ليس إلا لمجرَّد الأمر!

فلأن الله تعالىٰ قال: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، يقولون: «نُقِيمُ الصلاة»، دون أن تكون هناك حكمة، أو فائدة، أو مصلحة في الصلاة.

وكذلك الأمر في الصوم؛ فلقول الله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فلا بد أن نصوم، وإلا فليس هناك مصلحة في شرعيَّته، إنما أُمِرْنا به من باب التكليف، دون أن يكون فيه منفعة، أو يترتب عليه مصلحة!

وكذلك لا فائدة في الحج ولا العمرة؛ فليس فيها حكمة في شرعيَّتها؛ إنما هو: مجرد الأمر والامتثال له، من غير أن يكون ذلك سببًا لمصلحة تعود علىٰ العبد من سعادة في المعاش أو المعاد، أو سببًا للنجاة!

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ (١/ ٢٥).

وهكذا يقولون في المحرَّمات؛ فالمحرَّمات تُتْرَكُ لأن الله نهىٰ عنها، وليس لأجل مضرة فيها؛ فعندهم تحريم الخمر لقوله تعالىٰ: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، لا لمضرَّةٍ فيه، وتحريم الزنا لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، لا لأن فيه مفسدة، وتحريم الربا لأجل قوله تعالىٰ: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥]، لا لأجل أن فيه مفسدةً!

وهكذا أيضًا لا يجعلون لله في المخلوقات حكمةً، ويَرَوْنَ أنه إنما خلق هذا الخلق -من الذكور، والإناث، ومن بهيمة الأنعام، ومن الهوامِّ، والسباع، والحيَّاتِ مثلًا- لمجرَّد المشيئة، لا لأن هناك مصلحة، وليس لله حكمة في ذلك!

ويرون أنه ليس في المخلوقات أسباب تكون مقتضِيَاتٍ لمسبَّباتها؛ فزادوا وأنكروا تأثير الأشياء الحسيَّة، وقالوا: النار ليست سببًا للإحراق، وإنما الله يخلُقُ الإحراق عند إدخال الشيء في النار، وليس في الماء قوة الإغراق ولا قوة التبريد، إنما الله يخلق ذلك عند ملاقاة الماء المغرق، والماء البارد، والسكِّينُ عندما يُقطَعُ بها الحلق، والسيف عندما يُضرَبُ به العُنُقُ، ليس هما السبب في الموت، وإنما يخلق الله الموتَ عند القطع والضرب بهما، و نحو ذلك!

وهكذا لا فرق -عندهم- بين الخلق والأمر في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ فالله خلق لا لحكمة، وأمر لا لحكمة؛ لا فرق في نفس الأمر بين الحلال والحرام، وبين المأمور والمحظور، ولا فرق بين الخمر والعسل، إلا أن هذا حرام، وهذا حلال، وليس في الأدوية شفاء ولا سبب للشفاء، وإنما يخلق الله الشفاء عند استعمالها؛ فمجرَّد

المشيئة اقتضىٰ أن الله تعالىٰ أمر بالصلاة، ونهىٰ عن الخمر والزنا من غير أن يكون في الصلاة صفة حسنة، ولا في الزنا والخمر صفة قبيحة!

هذا أصل عند الجبرية ومَنْ قال بقولهم من الأشاعرة، ولأصلهم هذا لوازم وفروع كثيرة قد توسَّع العلماء في مناقشتها(١).

وغالب هؤلاء لا يجدون للعبادة حلاوةً؛ فلا يجدون لذة للصلاة، ولا للصيام، ولا للحج، ولا للذكر، ولا للقراءة، ولا يتنعَّمون بها؛ ولهذا يسمُّون العبادات -من الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والتوحيد، والإخلاص، والذكر، والدعاء، والقراءة-: تكاليفَ؛ بمعنىٰ: أن الإنسان مأمور بها لمجرد التكليف، دون أن يكون فيها فائدة أو حكمة!

ولو أن إنسانًا ادَّعىٰ محبة أحدِ الملوك، وسمَّىٰ محبته: تكليفًا، لم يُعَدَّ محبًّا له حقيقة.

وأوَّل مَن صدَرَتْ عنه مقالة نفي الحكمة والتعليل: الجَعْدُ بنُ دِرْهَم، شيخ الجَهْمِ بن صَفْوَان، ثم انتشرت بعده في هؤلاء الجبريَّة.



---

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٤٨٦)، ومدارج السالكين (١/ ١٠٣)، وقد توسَّع ابن القيم في ذلك في مفتاح دار السعادة (١/ ٧)

الصِّنْفُ الثاني: القدريَّة:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[**الصنف الثاني: القدريَّة النفاة**؛ الذين يثبتون نوعًا من الحكمة والتعليل لا يقوم بالربِّ ولا يَرْجِع إليه؛ بل يَرْجِعُ لمحض مصلحة المخلوق ومنفعته.

فعندهم: أن العبادات شُرِعَتْ أثمانًا لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء الأجير أجره، قالوا: (ولهذا يجعلها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عوضًا؛ كقوله: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]، ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]) وفي الصحيح: «**إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا**».

قالوا: (وقد سمَّاها جزاءً، وأجرًا، وثوابًا؛ لأنه شيء يَثُوبُ إلىٰ العامل مِن عمله، أي: يرجع إليه).

قالوا: (ويدل عليه الموازنة؛ فلولا تعلُّق الثواب بالأعمال عوضًا عليها، لم يكن للموازنة معنىٰ).

وهاتان الطائفتان متقابلتان.

فالجبريَّةُ: لم تجعل للأعمال ارتباطًا بالجزاء البَتَّةَ، وجوَّزت أن يعذِّب الله من أفنىٰ عمره في الطاعةِّ، وينعِّم من أفنىٰ عمره في مخالفته؛ وكلاهما سواء بالنسبة إليه، والكل راجع إلىٰ محض المشيئة.

والقدريَّةُ: أوجبت عليه سبحانه رعاية المصالح، وجعَلَتْ ذلك كله بمحض الأعمال، وأن وصول الثواب إلىٰ العبد بدون عمله فيه تنقيص باحتمال مِنَّةِ الصدقة عليه بلا ثمن؛ فجعلوا تفضُّله سبحانه علىٰ عبده بمنزلة صدقة العبد علىٰ العبد، وأن إعطاء ما يعطيه أجرةً علىٰ عمله أحبُّ إلىٰ العبد من أن يعطيه فضلًا منه بلا عمل، ولم يجعلوا للأعمال تأثيرًا في الجزاء البَتَّةَ].

الشَّرح

الصنفُ الثاني: القدريَّةُ النُّفَاةُ: الذين ينفون قَدْرَ الله، ويثبتون نوعًا من الحكمة والتعليل، ويوجبون علىٰ الله أن يفعل الأصلح، وأن يثيب كل من عمل عملًا صالحًا، وعندهم: أن العبادات شُرِعَتْ أثمانًا لما يناله العباد من الثواب والنعيم؛ ولهذا يسمَّىٰ: ثوابًا، وهو بمنزلة استيفاء الأجير أجره.

وعندهم: أن الثواب والجنة عِوَضٌ وبدَلٌ عن الأعمال، وليست فضلًا من الله؛ ويستدلُّون بأدلة؛ منها: قوله تعالىٰ: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]، وقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وكذلك الحديث الذي فيه: «**إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا**»(١).

---

(١) جزء من حديث قدسي، أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٧٧)، عن أبي ذر الغفاري.

والطائفتان متقابلتان، وكلتاهما متطرِّفتان؛ فهما علىٰ طرفَيْ نقيض، فالأولون -وهم الجبرية- يقولون: «إن العبادات لا فائدة فيها، وإنما هي تكاليف وإلزامات»، والآخرون -وهم القدرية- يقولون: «إنه يجب علىٰ الله تعالىٰ أن يثيب كل عامل، وألَّا يبخس أحدًا عمله، و ألَّا يزيد أحدًا علىٰ عمله»؛ لأن ذلك يكون فيه مِنَّةٌ؛ فينكرون مضاعفة الحسنة بعَشْرِ أمثالها، ويقولون: «إنه ليس لله فضل علينا؛ بل نحن الذين نعمل أعمالنا، والله لا يَقْدِرُ علىٰ أن يهدي، ولا علىٰ أن يُضِلّ»!



حكمُ هذَيْنِ الصِّنْفَيْن:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[والطائفتان منحرفتان عن الصراط المستقيم، وهو أن الأعمال أسباب موصِّلة إِلىٰ الثواب، والأعمال الصالحات من توفيق الله تعالىٰ وفضله، وليست قدْرًا لجزائه وثوابه؛ بل غايتها إذا وقعت علىٰ أكمل الوجوه أن تكون شكرًا علىٰ أحد الأجزاء القليلة من نعمه سبحانه.

فلو عذَّب أهل سمواته، وأهل أرضه، لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم، لكانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم.

وتأمَّل قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، مع قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»(١)، تجد الآية تدل علىٰ أن الجِنَانَ بالأعمال، والحديث ينفي دخول الجنة بالأعمال، ولا تنافي بينهما؛ لأن توارد النفي والإثبات ليس علىٰ مَحَلٍّ واحد:

فالمنفيُّ باء الثَّمَنِيَّة، واستحقاقُ الجَنَّةِ بمجرَّد الأعمال؛ ردًّا علىٰ القدريَّة المجوسيَّة التي زعَمَتْ أن التفضل بالثواب ابتداءً متضمِّن لتكدير المِنَّة.

والباء المثبتة التي وردت في القرآن هي باء السببية؛ ردًّا علىٰ القدرية الجبرية الذين يقولون: (لا ارتباط بين الأعمال وجزائها، ولا هي أسباب لها، وإنما غايتها أن تكون أمارة).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المرضىٰ، باب تمني المريض الموت، حديث رقم (٥٦٧٣)، ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، حديث رقم (٢٨١٦)، عن أبي هريرة.

والسنة النبوية هي أن عموم مشيئة الله وقدرته لا تنافي ربط الأسباب بالمسبَّبَاتِ وارتباطَهَا بها.

وكل طائفة من أهل الباطل ترَكَتْ نوعًا من الحق، فإنها ارتكبت لأجله نوعًا من الباطل، بل أنواعًا؛ فهَدَىٰ الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه].

الشَّرح

الطائفتان منحرفتان عن الصراط السوي المستقيم.

والطريق المستقيم هو: أن الله تعالىٰ جعَلَ الأعمال أسبابًا موصِّلة إلىٰ الثواب، وجعل الأعمال الصالحة من توفيقه؛ فهو الذي يوفِّق هؤلاء ويهديهم ويتفضَّل عليهم، وليست الأعمال قَدْرًا وثمنًا لجزائه وثوابه؛ إنما هي تفضُّلٌ منه، وغايتها -إذا وقعت علىٰ أكمل الوجوه- أن تكون شكرًا لله علىٰ نعمه، ونِعَمُ الله تعالىٰ لا تُحْصَىٰ.

جاء في الحديث: «**لَوْ عَذَّبَ اللهُ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ**»[1]؛ فالله تعالىٰ هو الذي سدَّدهم وهداهم ووفَّقهم وتفضَّل ومنَّ عليهم حتىٰ دخلوا في الإسلام؛ فأعمالهم -علىٰ قصورها- إنما هي بتوفيق من الله تعالىٰ، فإذا عملوا، فإن ذلك محض فضل الله تعالىٰ عليهم، ورحمتُهُ خيرٌ لهم من أعمالهم: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وهذا هو قول أهل السنة ردًّا علىٰ الطائفتين.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، حديث رقم (٢١٥٨٩)، وأبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، حديث رقم (٤٦٩٩)، وابن ماجه، المقدمة، باب في القدر، حديث رقم (٧٧)، عن زيد بن ثابت.

وتأمَّل قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]؛ فإن في هذه الآية دليلًا علىٰ أن الأعمال سبب في دخول الجنة، أي: أُورِثْتُمْ هذه الجنة: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وتأمَّل أيضًا قولَ النبيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رسول الله؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»؛ فأخبر: أن دخول الجنة بفضل الله تعالىٰ.

فالنفي الذي في الحديث -«لَنْ يَدْخُلَ أحدٌ مِنْكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»- إنما هو: نفيٌ لباء الثمنية، وهو أن تكون الأعمال ثمنًا للجنة.

وفيه ردٌّ علىٰ القدرية المجوسية الذين يدَّعون أن التفضُّل بالثواب ابتداءً متضمِّنٌ لتكدير المِنَّةِ مِن الله تعالىٰ، ويوجبون علىٰ الله أن يدخل العاملين الجنة، وإذا قيل: «إن الله يتفضَّل عليهم»، قالوا: «إن أهل الجنة لا يتحمَّلون المِنَّةَ، وإذا أدخلهم بفضله فقد امتَنَّ عليهم، وهم لا يريدون أن يكون لله عليهم منَّة، إنما يريدون أن يكون دخولهم بأعمالهم»!

أما الإثبات الذي في قوله تعالىٰ: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، فالباء فيها هي: باء السببية، أي: أنَّ الأعمال سبب من أسباب دخول الجنة؛ فيكون فيها ردٌّ علىٰ الجبرية الذين يقولون: (لا ارتباط بين الأعمال وجزائها)، ويقولون: (إن هذه العبادات ليست لحكمة، وإنما هي لمحض المشيئة)!

والسنة النبوية تدلُّ على أن عموم مشيئة الله وقدرته لا تنافي ربط الأسباب بالمُسَبَّبات، وأنَّ الأعمال سبب من أسباب السعادة في الدار الآخرة، ومن أسباب السعادة في الدنيا؛ قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]؛ فدلَّ هذا على أن العمل والإيمان سبب للحياة الطيِّبة في الدنيا.

وكل طائفة من أهل الباطل قد ترَكَتْ نوعًا من الحق، وارتكَبَتْ لأجله نوعًا من الباطل:

فالجبرية: تركت نوعًا من الحق حين نفت الحِكَمَ أو المصالح، وزعَمَتْ أنه لا ارتباط بين الأعمال وجزائها.

والقدرية: تركت نوعًا من الحق حين نفت قدرة الله على خلقِ أفعالِ العباد، وادعت أن التفضل بالثواب ابتداءً متضمِّن لتكدير المِنَّة.

وكلتا الطائفتين ارتكبت نوعًا من الباطل؛ فهَدَىٰ الله أهل السنة لِمَا اختلفوا فيه من الحق بإذنه؛ وذلك فضل الله.

الصِّنْفُ الثالث: الفلاسفة ومَنْ شابههم:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[**الصنـف الثالـث**: الذيـن زعمـوا أن فائـدة العبـادة: رياضـة النفـوس واسـتعدادها لفيـض العلـوم والمعـارف عليهـا، وخـروجُ قواهـا مـن قُـوَىٰ النَّفْـس السَّـبُعية والبهيميـة، فلـو عطَّلَـتِ العبـادةَ، لالتحقت بنفـوس السـباع والبهائـم؛ فالعبـادة تخرجهـا إلـىٰ مشـابهة العقـول؛ فتصيـر قابلـة لانتقـاش صـور المعـارف فيهـا.

وهذا يقوله طائفتان:

إحداهمـا: مـن يقـرُبُ إلـىٰ الإسـلام والشـرائع مـن الفلاسـفة القائليـن بقِـدَمِ العالـم وعـدم الفاعـل المختـار.

والطائفة الثانية: مَنْ تفلسف من صوفية الإسلام ويقرُبُ إلىٰ الفلاسفة؛ فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النفوس للمعارف العقلية، ومخالفة العوائد.

ثـم مِـنْ هـؤلاء: مَـنْ لا يوجـب العبـادة إلا بهـذا المعنـىٰ؛ فـإذا حصـل لهـا ذلـك، بقـي متحيـِّرًا في حفـظ أوراده، والاشـتغال بالـوارد عنهـا.

ومنهـم: مـن يوجـب القيـام بـالأوراد وعـدم الإخلال بهـا، **وهم صنفـان أيضًا**:

أحدهما: من يقول بوجوبها؛ حفظًا للقانون، وضبطًا للناموس.

والآخـرون: يوجبونهـا؛ حفظًـا للـوارد، وخوفًـا مـن تـدُّرج النفـس بمفارقتهـا إلـىٰ حالتهـا الأولـىٰ مـن البهيميـة.

فهـذه نهايـة إقدامهـم في حكمـة العبـادة، ومـا شُـرِعَتْ لأجلـه، ولا تـكاد تجـد في كتـب المتكلميـن علىٰ طريـق السـلوك غيـر طريـق مـن هـذه الطـرق الثلاثـة أو مجموعهـا].

الشَّرح

الصنـف الثالـث: وهـم فلاسـفة يدَّعـون أن القصـد مـن العبـادة: أن تتمرَّن النفـوس علىٰ الطاعـة، يختـبر اللهُ النـاسَ بهـا؛ حتـىٰ تكـون رياضـةً للنفـوس، وإخراجًـا لهـا مـن قواهـا السَّـبُعية والبهيميـة، لا أنهـا عبـادةٌ يثـاب عليهـا!

والمـراد بالنَّفْـسِ السَّـبُعِيَّةِ: النفـسُ التـي فيهـا ظلـم وتعـدٍّ، كمـا أن السـباع مـن طبعهـا التعـدي علىٰ غيرهـا، والنفـس البهيميـة هـي: النفـس التـي همُّهـا شـهوة دنيَّـة؛ كمـا أن البهائـم لا هـم لهـا إلا شـهواتُها.

وهـؤلاء الفلاسـفة يقولـون: إن النفـوس إذا حُمِلَـتْ علىٰ هـذه العبـادات ابتعـدت عـن صفـات النفـس السَّـبُعيَّة -كالعـدوان- والبهيميـة -كالشـهوانية-، ولـو عُطِّلَـتِ العبـادات لاتَّصَفَـتْ تلـك النفـوس بصفـات السـباع والبهائـم.

والعبـادة -عندهـم- تُخـرِجُ النفـوس إلـىٰ مشـابهة العقـولِ، فتصيـر قابلـة لانتقـاش صـور المعـارف فيهـا[1].

والقائلون بهذا طائفتان:

إحداهمـا: فلاسـفة يقرُبُـونَ إلـىٰ الإسـلام والشـرائع، ويقولـون بِقِـدَمِ العالـم، وعـدَمِ الفاعـلِ المختـار؛ فينكـرون أن يكـون للعالـم خالـق مختـار،

---

(١) ينظر: مدارج السالكين (١/ ١١٧).

فالعالَـمُ -عندهـم- ليس لـه مبـدأ، وليـس ثَمَّـةَ إنسـان اسـمه آدَمُ خُلِـقَ مـن تـراب؛ بـل الخلـق مستمِرٌّ ليس لـه أول، وليـس لـه آخـر؛ إنمـا يسندون ذلـك إلـىٰ الطبيعـة، ويدَّعـون أنَّـه ليـس لهـذا الحـادث محـدِثٌ أحدثـه[1]!

الطائفـة الثانيـة: المتفلسـفة مـن صوفيـة الإسـلام؛ وهـم صوفيـة قريبـون مـن بعـض الفلاسـفة، يدَّعـون أن العبـادات رياضـات لاسـتعداد النفـوس للمعـارف العقليـة، ولمخالفـة العوائـد!

وهم قسمان:

القسـم الأول: مَنْ لا يُوجِـبُ العبـادة والأوراد -كالصلـوات ونحوهـا-، إلا لهـذا المعنـىٰ، أي: لهـذه الرياضـة، ولتلـك المعـارف.

فـإذا وصـل إلـىٰ هـذه الرتبـة المعيَّنـة -في زعمـه-، تحيَّـر هـل يحافـظ علـىٰ عبادتـه وأوراده، أو يشـتغل بالـواردات عنهـا؟ بـل ربمـا يُسقِطُ العبـادة عمـن وصَـلَ -عندهـم- إلـىٰ درجـة رفيعـة؛ فالعبـادة عنـد غـلاة المتصوفـة إنمـا هـي علـىٰ العامَّـة فقـط!

ويقصـدون بالـواردات: مـا يتـوارد علـىٰ القلـب مـن المعـارف التـي تَـرِدُ إليـه مـن المـلأ الأعلـىٰ، وتُبْعِـده عـن الحالـة الشـهوانية البهيمية؛ كمـا في قـول بعضهـم[2]:

لَهَـا أَحَادِيـثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْـغَلُهَا ... عَـنِ الطَّعَـامِ وَتُلْهِيهَـا عَـنِ الـزَّادِ

(١) ينظر: (قدم العالم وتسلسل الحوادث)، لكاملة الكواري.

(٢) البيت لإدريس بن سليمان بن أبي حفصة. ينظر: زهر الآداب (٢/ ٥٥١).

والقسم الثاني: مَنْ يُوجِبُ القيام بالأوراد والعبادات، ويمنع الإخلال بها؛ وهؤلاء صنفان:

أحدهما: يوجب تلك الأوراد؛ لأنها -عندهم- تحفظ القانون الذي يسيرون عليه، والناموس الذي ينير لهم.

والثاني: يوجب تلك الأوراد والعبادات؛ حفظًا للوارد من المعارف، وخوفًا من تدرُّج النفس بمفارقة تلك الأوراد والعبادات إلىٰ الحالة البهيمية الأولىٰ.

وهذه نهاية وغاية ما يَرَوْنَهُ ويعتقدونه من الحكمة من مشروعية العبادة.

ولا تكاد تجد في كتب المتكلِّمين علىٰ طريق السلوك من أهل العبادات القلبية غيرَ طريقٍ مِن هذه الطرق الثلاثة أو مجموعها.

وأهلُ السلوك وهم: أهلُ العبادات القلبيةِ في نظرهم، ولهم طرقٌ كثيرةٌ، مجموعها يدلُّ علىٰ أَنَّهمُ يُفضِّلون العباداتِ القلبيةِ علىٰ الاشتغالِ بالعباداتِ البدنية الظاهرة؛ فيتركونَ الصلوات والجماعة والأوراد ونحوها؛ لأجل أن تتواردَ إليهم تلك العباداتِ القلبيةِ التي يسمونها: وارداتٌ في خلواتهم!

وقد فصَّل العلماء المحققِّون فيما يتعلق بالسلوك والتصوف، ومنهم: شيخ الإسلام ابن تيميَّة؛ حيث كتب في ذلك الأمر، منها: في المجلدَيْنِ العاشرِ والحاديَ عشَرَ من «مجموع الفتاوىٰ».

الصِّنْفُ الرابع: أهلُ البصيرةِ القائلون بالجمع بين القدرِ والشرع:

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[**والصنف الرابع**: هم القائلون بالجمع بين الخلق والأمر، والقَدَرِ والسبب؛ فعندهم: أن سر العبادة وغايتها مبنيٌّ علىٰ معرفة حقيقة الإلهية، ومعنىٰ كونه سبحانه إلهًا، وأن العبادة موجَبُ الإلهية وأثرها ومقتضاها، وارتباطُها كارتباط متعلَّق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود.

فعندهم: من قام بمعرفتها علىٰ النحو الذي فسَّرناها به لغةً وشرعًا، مصدرًا وموردًا، استقام له معرفة حكمة العبادات وغايتها، وعلم أنها هي الغاية التي خُلِقَتْ لها العباد، ولها أُرْسِلَتِ الرسل، وأُنْزِلَتِ الكتب، وخُلِقَتِ الجنة والنار.

وقد صرَّح سبحانه بذلك في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ فالعبادة هي التي وُجِدَتْ لأجلها الخلائق كلها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، أي: مهمَلًا؛ قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لا يؤمر ولا ينهىٰ)، وقال غيره: (لا يثاب ولا يعاقب)، وهما تفسيران صحيحان؛ فإن الثواب والعقاب مترتِّبان علىٰ الأمر والنهي، والأمر والنهي هو طلب للعبادة وإرادتها، وحقيقة العبادة امتثالهما؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]، ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢]؛ فأخبر الله تعالىٰ أنه خلق السموات والأرض بالحقِّ المتضمِّنِ: أمرَهُ ونهيه، وثوابه وعقابه].

الشَّرح

الصنف الرابع: هم أهل البصيرة علمًا وعملًا، القائلون بالجمع بين: الخلق والأمر، والقَدَرِ والسبب.

فهم يحققون قول الله تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أي: أنه الذي يخلق الخلق، وأنه الذي يأمُرُ ويكلِّف بما يشاء[١].

ويحقِّقون أيضًا القدَرَ والسبب؛ فيقرُّون بأن الأقدار مقدَّرةٌ من الله تعالىٰ، ولكنه تعالىٰ جعل لها أسبابًا؛ فجعل العلاج سببًا للشفاء، والأكل سببًا للشبع، والنكاح سببًا للأولاد، والكسب سببًا للرزق.

فسِرُّ العبادة -عندهم- وغايتها: مبنيٌّ علىٰ معرفة حقيقة الإلهية، وهي: أن الله تعالىٰ هو الإله الحق، وأن إلهيَّة ما سواه باطلة.

فمتىٰ عرَفَ العبد حقيقة الإلهيَّة، ومعنىٰ كونه سبحانه إلهًا، أي: مطاعًا تَأْلَهُهُ القلوب، فإنه يعرف سرَّ العبادة، ويعرف الحكمة منها، ويعرف أن العبادة موجَبُ الإلهية وأثرها ومقتضاها، وأن ارتباط العبادة بالإلهية كارتباط متعلَّق الصفات بالصفات، فكما أن الجواد هو الذي يعطي، والرحيم هو الذي يُحْسِن، والصوت هو الذي يُسمَعُ، فالإله الحق هو: الذي يُعبَدُ.

ومن قام بمعرفة الإلهية علىٰ النحو الذي فسَّرها به المصنِّف -لغةً وشرعًا ومصدرًا وموردًا- استقامت له أحواله، واستقامت له معرفة

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (ص٧٧٩).

حكمة العبادة، وأنها هي غاية المخلوقات؛ فلها خَلَقَ الله العبادَ، وأرسَلَ الرسل، وأنزَلَ الكتب، وخلَقَ الجنة والنار، وشرع الجهاد، وبها افترَقَ الناس إلىٰ فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وكل هذا من سرِّ معرفة الإلهية وأثرها ومقتضاها، وقد صرَّح سبحانه بذلك في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ فمعنىٰ (يعبدونِ): يُفْرِدُوني بالعبادة[1].

فالخلق أُوجِدوا للعبادة، لكنْ منهم: من هو مكلَّف -كالجن والأنس-، ومنهم: من يعبد الله وإن لم يكن مكلَّفًا؛ وذلك بكونه مذلَّلًا مقهورًا، ويدخل في هذا: البهائم والجمادات.

ثم ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفسيرين لقوله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]:

الأول: للشافعي؛ فقد قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: «لا يؤمر ولا ينهىٰ»[2].

والثاني: لا يثاب ولا يعاقب[3]، أي: لا يثاب علىٰ الطاعة، ولا يعاقب علىٰ المعصية. وكلاهما صحيح؛ فإن الثواب والعقاب مترتِّبان علىٰ الأمر والنهي.

فتعالىٰ الله أن يكون في خلقه عَبَثٌ؛ ففي هذه الآيات وعيد للذين يقولون: «إن هذا الخلق ليس فيه حكمة لله تعالىٰ؛ وإنما خلَقَ الإنسانَ

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٧/ ٥٥).

(٢) ذكره في الأم (٧/ ٣١٣). وينظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٢٨٣).

(٣) ينظر: تفسير القرطبي (١٢/ ١٥٦).

ليأكُلَ، ويَشرَبَ، ويَنْكِحَ، ويتوالَدَ، عبثًا»! تعالىٰ الله عن ذلك؛ فإن الله لما خلقه، وأنعم عليه، وأعطاه، وخوَّله، أمره ونهاه؛ أمره بالعبادة والطاعة، ونهاه عن المعصية والمخالفة.

وحقيقة العبادة: امتثال الأمر فعلًا، وامتثال النهي تركًا؛ وبذلك يحصل الثواب والعقاب، والله تعالىٰ قد مدح الذين يتفكَّرون في هذه المخلوقات ويعتبرون بها ويقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وأخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق لا بالباطل؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢]، والحق يتضمن: الأمر والنهي، والثواب والعقاب.

فأمر سبحانه بكسب الخير، ونهىٰ عن كسب الشر، وأخبر أن كل نفس سوف تجازىٰ في الآخرة بما كسَبَتْ.

قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ:

[فإذا كانت السموات والأرض إنما خُلِقَتْ لهذا، وهو غاية الخلق، فكيف يقال: (إنه لا غاية له، ولا حكمة مقصودة)، أو: (إن ذلك لمجرد استئجار العمال؛ حتىٰ لا يتكدَّر عليهم الثواب بالمِنَّة، أو: (لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية، وارتياضًا لمخالفة العوائد)؟!

وإذا تأمل اللبيب الفرق بين هذه الأقوال وبين ما دلَّ عليه صريح الوحي، عَلِمَ أن الله تعالىٰ خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته، مع الخضوع له، والانقياد لأمره؛ **فأصلُ العبادة: محبة الله؛ بل إفراده تعالىٰ بالمحبة**، فلا يُحِبُّ معه سواه، وإنما يحب ما يحبه لأجله وفيه؛ كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته؛ لأن محبتهم من تمام محبته، وليست كمحبة مَنِ اتخذ من دونه أندادًا يحبُّهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقةَ عبوديَّته وسرَّها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه؛ فعند اتباع الأمر والنهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة.

ولهذا جعَلَ سبحانه اتباع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَمًا عليها وشاهدًا لها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]؛ فجعل اتباع رسوله مشروطًا بمحبَّتهم لله تعالىٰ، وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجودُ المشروط بدون تحقُّق شرطه ممتنع؛ فعُلِمَ انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة للرسول، ولا يكفي ذلك حتىٰ يكون الله ورسوله أحب إليها مما سواهما، ومتىٰ كان عنده شيءٌ أحبَّ إليه منهما، فهو الإشراك الذي لا يغفره.

قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤]].

الشَّرح

إذا كانت السموات والأرض إنما خُلِقَتْ لكي يتفكر العباد فيها، ويكونوا ممن مدحهم بقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فكيف يقال: (إنه لا غاية لله تعالىٰ في الخلق، وإنه لا حكمة له في الأمر والنهي، وإنه إنما يخلُقُ بدون حكمة، ويأمر بدون مصلحة، وينهىٰ بدون مَضَرَّة)؟!

أو كما تقول القدريَّة -ومنهم المعتزلة- (إن ذلك الأمر والنهي وما يترتب عليهما من الثواب والعقاب، بمنزلة استيفاء الأجير أجره حتىٰ لا يتكدَّر عليهم الثوابُ بالمِنَّةِ، وليعرفوا أنهم يستحقون ذلك بأعمالهم؛ فليس لله تعالىٰ مِنَّةٌ عليهم)!

أو كما يقول الفلاسفة: (إنه لمجرَّد استعداد النفوس لفيوض المعارف العقلية عليها، وارتياضًا لمخالفة العوائد)!

وإذا تأمل اللبيب الفرق بين أقوال هذه الأصناف الثلاثة وبين ما دلَّ عليه صريح الوحي -من خلال الآيات التي ساقها المصنِّف- عَلِمَ أن الله تعالىٰ ما خلق الخلق عَبَثًا، ولا تركهم هَمَلًا، وإنما خلقهم: لعبادته

العبادة التي يكون من آثارها: محبَّةُ الله محبَّةً قلبية، وخضوعُ العبد لله، والانقيادُ لأمره.

ثم بين المصنِّف أن أصل العبادة: إفراد الله تعالىٰ بالمحبة؛ لأن مَنْ أحب الله أطاعه، والله تعالىٰ فرض محبته علىٰ العباد، وكذلك النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرض محبَّة الله علىٰ العباد، فلا يُحِبُّ معه سواه كمحبته، إنما يُحِبُّ المرءُ ما يحبُّه لأجله وفيه؛ فجميع المحبوبات تُحَبُّ؛ لأن الله يحبها، ولأنها تقرِّبه إلىٰ محبة الله، فنحب أنبياء الله، ورسله، وملائكته؛ لأن محبتهم من تمام محبة الله، وليست كمحبة من اتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله.

وقد أطال العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في تفسير المحبة والكلام عليها، ومِن هؤلاء العلماء: الإمام ابن القيِّم، فقد تكلَّم عنها في عدد من كتبه، منها: كتابه «رَوْضة المحبين ونُزْهة المشتاقين»، وكتابه «طريق الهجرتين»، وكتابه «مدارج السالكين»، أفاض في حديثه عنها، وتوسَّع في تعريفها وفي آثارها[(١)].

وممن تناول المحبة بالشرح والتبيان: بعض أئمَّة الدعوة رَحِمَهُمُ اللَّهُ[(٢)] في شرح كتاب «التوحيد»، في باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ فإن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ أورد في «كتاب التوحيد»[(٣)].

(١) ينظر: روضة المحبين (ص١٦)، وطريق الهجرتين (١/ ٦٣٩)، ومدارج السالكين (٣/ ٢٧).
(٢) منهم: الشيخ سليمان آل الشيخ في تيسير العزيز الحميد (٢/ ٨٢٣)، والشيخ عبد الرحمن آل الشيخ في فتح المجيد (ص٣٥٧)، والشيخ عبد الرحمن السعدي في القول السديد (ص١١٤).
(٣) ينظر: كتاب التوحيد (ص٦٥).

حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[1].

والذين يحبُّون غير الله تَنْقُصُ محبة الله من قلوبهم؛ ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وإذا كانت المحبة لله هي حقيقةَ العبوديَّة وسِرَّها، فهي إنما تتحقَّق باتِّباع أمره، واجتناب نهيه، فيُنكَرُ علىٰ الذين يعصون الله، ثم يدَّعون أنهم يحبونه، ويقال في حقهم:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ ... هَذَا عَجِيبٌ فِي الْفِعَالِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ[2]

فمحبة الله تعالىٰ: حقيقةُ عبوديته وسرُّها، والمحبة القلبية علىٰ ذلك لا تتحقَّق إلا باتِّباع الأوامر، واجتناب النواهي؛ فعند اتباع الأمر والنهي تتبيَّن حقيقة العبودية والمحبة؛ ولهذا جعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اتباع رسوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَمًا عليها، وشاهدًا لها؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وتُسمَّىٰ هذه الآية: (آية المِحْنة)[3].

فجعل اتِّباع رسوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرطًا وعلامةً لمحبتهم لله، وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط بدون تحقق شرطه ممتنع؛ فلا تحصُلُ محبة الله لهم إلا بشرط الاتباع، فتنتفي المحبة عند انتفاء المتابعة للرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حديث رقم (١٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، حديث رقم (٤٣).

(٢) البيتان في ديوان الإمام الشافعي (ص٧٨)، وذكرهما البيهقي في شعب الإيمان (٤٩٣)، عن أبي العتاهية، ونسبهما المبرد في الكامل لمحمود الوراق (٢/ ٤).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٥/ ٣٢٥)، وتفسير ابن كثير (١/ ٤٤٠).

وقد سأل أحدُهم بعضَ السلف: متىٰ أُحِبُّ ربي؟ قال: «إذا كان ما يُبْغِضُهُ أَمَرَّ عندك من الصَّبِر»[1].

ولا يكفي ذلك حتىٰ يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، ومتىٰ كان شيءٌ عند العبد أحبَّ إليه منهما فقد أشرك، وهذا هو الإشراك الذي لا يغفره الله تعالىٰ؛ كما أخبر سبحانه في سورة التوبة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

ذكر الله في هذه الآية: أصنافًا ثمانية، بدأ فيها بالأقارب: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾، ثم ذكر الأمور الدنيوية: ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾، يعني: جمَعْتُموها، ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾، أي: تخشون أن تبور، ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾، أي: ترضون الإقامة فيها، ثم قال: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾، أي: قدَّمتم محبة شيء منها علىٰ محبة الله ورسوله، ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾، أي: انتظروا ما يَحُلُّ بكم، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾، وأمرُ اللهِ، قيل: العذابُ[2]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]؛ ولذلك نفىٰ الله تعالىٰ دعوىٰ اليهود أنهم يُحِبُّونَ الله، وأنهم أحباؤه؛ حينما قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

فالحاصل: أن محبة الله تعالىٰ علامتها: طاعة الله، واتباع شرعه ودينه، واتباع نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) عزاه الدينوري في المجالسة (٦/ ٣٩٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٣/ ١٤١)، إلىٰ شقيق البَلْخي، وعزاه ابن رجب في فتح الباري (١/ ٥٨)، إلىٰ ذي النون المصري.

(٢) ينظر: تفسير البغوي (١/ ١٣٦).

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[وكل من قدَّم قول غير الله علىٰ قول الله، أو حكَمَ به، أو حاكم إليه، فليس ممن أحبَّه[١].

لكن قد يشتبه الأمر علىٰ من يقدِّم قول أحد، أو حكمه، أو طاعته، علىٰ قوله؛ ظنًّا منه أنه لا يأمُرُ، ولا يحكُمُ، ولا يقول، إلا ما قاله الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيطيعه ويحاكم إليه ويتلقَّىٰ أقواله كذلك؛ فهذا معذور؛ إذا لم يقدر علىٰ غير ذلك.

وأما إذا قدَرَ علىٰ الوصول إلىٰ الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعرَفَ أن غير من اتبعه أولىٰ به مطلقًا، أو في بعض الأمور كمسألة معيَّنة، ولم يلتفِتْ إلىٰ قول الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا إلىٰ قول من هو أولىٰ به-: فهذا يُخَافُ عليه.

وكل ما يتعلل به من عدم العلم، أو عدم الفهم، أو عدم إعطاء آلة الفقه في الدين، أو الاحتجاج بالأشباه والنظائر، أو بأن ذلك المتقدِّم كان أعلم مني بمراده صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: فهي كلها تعلُّلات لا تفيد[٢].

هذا مع الإقرار بجواز الخطأ علىٰ غير المعصوم، إلا أن ينازِعَ في هذه القاعدة، فتسقُطُ مكالمته، وهو داخل تحت الوعيد، فإنِ استحَلَّ مع ذلك ثَلْبَ من خالفه، وقَرْضَ عرضه ودينه بلسانه، أو انتقل من هذا إلىٰ عقوبته أو السعي في أذاه -: فهو من الظلمة المعتدين، ونُوَّاب المفسدين]

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢).

(٢) ينظر: طريق الهجرتين (ص٤١٢-٤١٣).

الشَّرح

كل من قدَّم كلام غير الله علىٰ كلام الله فليس صادقًا في المحبة، ولو قال: (إني أُحِبُّ الله)، فلا يكون صادقًا إلا إذا قدَّم محبة الله وكلامه وحكمه علىٰ كل أحد؛ وذلك لأنه متىٰ أَحَبَّ الله أَحَبَّ كل ما جاءه عن الله، وأحب حكم الله ورضي به، وقدَّمه علىٰ حكم كل حاكم: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقولُ الله وكلامُهُ يجب علىٰ كل مسلم أن يرضىٰ به وأن يتقبَّله، وألَّا يردَّ شيئًا منه؛ وبذلك يكون صادقًا؛ يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أَتُحِبُّ أَعْدَاءَ الْحَبِيبِ وَتَدَّعِي   حُبًّا لَهُ؟! مَا ذَاكَ فِي إِمْكَانِ![1]

وقال أيضًا:

حُبُّ الْكِتَابِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الْغِنَا   فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ[2]

واعتذر المصنِّف عن بعض الناس الذين يتحاكمون إلىٰ غير شرع الله: بأنه قد يشتبه الأمر عليهم؛ فيقدِّمون قول أحد أو حكمه أو طاعته علىٰ قول الله تعالىٰ؛ ظنًّا منهم أنَّ هذا المطاع -مثل: عالم من العلماء، أو شيخ من المشايخ- لا يأمر إلا بالخير، و لا يأمر بما يخالف الشرع، وأنه لا يحكم إلا بشرع الله؛ فيقلِّده ويعمل بأمره وحكمه؛ فهذا معذور؛ إذا أطاعه إحسانًا للظن به، إن كان لا يقدر علىٰ غير هذا.

أما إذا كان قادرًا علىٰ أن يصل إلىٰ الحق والحكم الشرعي، أو جاءه من ينبِّهه إلىٰ الخير ويدله عليه، ويحذِّره من الكفر أو من تغيير الشرع-: فليس له أن يطيع غير الله.

---

(١) ينظر: الكافية الشافية (ص١٨٩).

(٢) ينظر: الكافية الشافية (ص٢٧٣).

فإذا لم يقبل، وقال: (أنا أتبع فلانًا، وفلانٌ أعلم منك، وأعلم من كذا وكذا)، نقول له: ليس فلان أعلم من الرسول ﷺ؛ وهذا كلام الرسول ﷺ، وهذا فعله، وهذا دينه وشرعه.

فهو قبل أن تبلغه الأدلة معذور؛ لأنه لم يَقْدِرْ علىٰ غير ذلك، أما إذا قَدَرَ علىٰ الوصول إلىٰ كلام الرسول ﷺ، أو وجَدَ من يَدُلُّهُ ويفهِّمه ويشرح له أو يترجم له -إذا كان أعجميًّا- فعرَفَ أن غير من اتبعه أولىٰ بالاتباع مطلقًا، أو في بعض الأمور، ولم يلتفت إلىٰ قول الرسول ﷺ، ولا إلىٰ قول من هو أولىٰ بالاتباع ممن يقلِّده -: فهذا هو الذي يُخَافُ عليه.

ويقال لمثل هذا: أنت تقدر علىٰ أن تفهم كلام الله عَزَّوَجَلَّ وكلام الرسول ﷺ، وتَقْدِرُ علىٰ الوصول إلىٰ الدليل، ومع ذلك تتبع غير الرسول ﷺ وتُؤْثِرُ غيره عليه، وتدَّعي أن كلام مشايخك أولىٰ باتباعك مطلقًا، أو أن كلام مشايخك يقدَّم علىٰ كلام الله تعالىٰ وكلام رسوله ﷺ ولو في مسألة واحدة، ولم تلتفِتْ إلىٰ كلامهما، ولا إلىٰ قول من هو أولىٰ من هذا الشيخ الذي تقلِّده؛ كالصحابة، والأئمة الأربعة، وسلف هذه الأمة.

وكل ما يتعلَّل به هؤلاء الأتباع هو عدم العلم، أو عدم الفهم؛ فيقولون: (نحن ما أُعْطِينا آلة الفقه في الدين؛ فنتبع مشايخنا الذين نعرفهم؛ فهم أولىٰ منكم وأحق بالاتباع).

ويقولون: (أنت لست أعلم من شيخنا وإمامنا فلان؛ فهو أعلم مني ومنك، لا يخفىٰ عليه مراد النبي ﷺ).

والواجب علىٰ المسلمين: ألَّا يتعصَّبوا لأحد من الأئمة والعلماء إذا قال شيئًا يخالف الصواب والدليل؛ فإنَّ هذا العالم معذور؛ لأن هذا هو اجتهاده، وأما من تبين له الحق من الأتباع فلا يجوز لهم ترك الحق؛ بل الواجب عليهم أن يتبعوا الحق، وأن يَدِينوا به، وأما مشايخنا ومشايخكم، وأئمتنا وأئمتكم، فليسوا معصومين.

فإذا اتضح لنا الحق في السُّنَّةِ التي جاءت عن المعصوم فلا يجوز أن نتركها؛ بل يجب الإقرار بجواز الخطأ علىٰ غير المعصوم، إلا أن ينازعَ في هذه القاعدة، فيقول: فلان معصوم، فإذا قال ذلك سقَطَتْ مكالمته، ودخل تحت الوعيد.

وقد يستحِلُّ بعضهم مع ذلك ثلب من خالفه وعَيْبَهُ وقَرْضَ عرضِهِ، والطعن في دينه، وربما انتقلوا من هذا إلىٰ عقوبته، أو السعي في أذاه، فهؤلاء ظلمة معتدون، ونُوَّاب مفسدون.

كما يتعصَّب بعض أتباع المذاهب، وقد حُكِيَ أن أحدهم صلىٰ إلىٰ جانب إنسان رفع إِصْبَعَهُ في التشهد وحرَّكها، فقبض الذي بجانبه علىٰ إِصْبَعِهِ وكسرها، وقال: (إن هذا مخالفة وبدعة)! لأن بعض الأئمة ينكرون الإشارة المستمِرَّةَ بها في الصلاة، كما ينكرون رفع اليد؛ ولا شك أنَّ من يتصرَّف بمثل ذلك من الظلمة المعتدين.

القواعد الأربع للعبادة

قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[واعلم أن للعبادة أربع قواعد، وهي: التحقُّق بما يحب الله ورسوله ويرضاه، وقيام ذلك بالقلب واللسان والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع؛ فأصحاب العبادة حقًّا هم أصحابها.

فقول القلب هو: اعتقاد ما أخبر الله عن نفسه، وأخبَرَ رسولُهُ عن ربه؛ من أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وملائكته، ولقائه، وما أشبه ذلك.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعاء إليه، والذب عنه، وتبيين بطلان البدع المخالِفةِ له، والقيامُ بذكره تعالىٰ، وتبليغُ أمره.

وعمل القلب: كالمحبَّة له، والتوكُّل عليه، والإنابة، والخوف، والرجاء، والإخلاص، والصبر علىٰ أوامره ونواهيه وأقداره، والرضا: به، وله، وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والإخبات إليه، والطمأنينة به، ونحو ذلك من أعمال القلوب التي فرضُهَا آكد من فرض أعمال الجوارح، ومستَحَبُّها أحب إلىٰ الله تعالىٰ من مستحَبِّ أعمال الجوارح.

وأما أعمال الجوارح: فكالصلاة، والجهاد، ونقل الأقدام إلىٰ الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلىٰ الخلق، ونحو ذلك.

فقولُ العبد في صلاته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]: التزامُ أحكام هذه الأربعة، وإقرار بها، وقولُهُ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]: طلب الإعانة

عليها، والتوفيقُ لها، وقولُهُ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]: متضمِّن للأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله تعالى.

والله الموفِّق بمَنِّه وكَرَمه، والحمد لله وحدَهْ، وصلى الله على من لا نبي بعدَهْ، وآلِهِ وصحبِهْ، ووارثيه وحِزْبِهْ].

الشَّرح

للعبادة أربع قواعد[1]:

الأولى: قول القلب.

الثانية: قول اللسان.

الثالثة: عمل القلب.

الرابعة: عمل الجوارح.

والعبودية: اسم جامع لهذه المراتب كلِّها؛ فأصحاب العبادة حقًّا هم: القائمون بهذه الأربع، وهي: قول القلب، وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح.

والمراد بقول القلب: اعتقادُهُ، وهو: عَقْدُ القلب على الإيمان بكل ما جاء عن الله، وما أخبر به عن نفسه، أو أخبر به عنه رسوله ﷺ؛ من الأسماء والصفات والأفعال، وما أشبه ذلك من علم الغيب -كالإيمان بالملائكة- فهذا كله من قول القلب.

---

(١) ينظر: الشريعة للآجُرِّيّ (٢/ ٦١١).

وأما قولُ اللسان: فهو الإخبار بهذا الاعتقاد، والتكلُّم به، وتبليغه، ودعوة الناس إليه، والذَّبُّ عنه، والانتصار له، وتبيين بطلان البدع، والقيامُ بذكر الله تعالىٰ ودعاؤه، وقراءة كتابه.

وعملُ القلب مثل: محبَّة الله، ومحبَّة من يحبُّه الله، والتوكل علىٰ الله، والإنابة والرجوع إليه، والخوف منه وحده، والرجاء لثوابه، وإخلاص الدين له، والصبر علىٰ أوامره ونواهيه وأقداره، والرضا به وله وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والإخبات إليه، والطمأنينة بذكره.

وأعمال القلب فرضها آكَدُ من فرض أعمال الجوارح، ومستحَبُّها أحبُّ إلىٰ الله تعالىٰ من مستحَبِّ أعمال الجوارح؛ وذلك لأنها إذا تركَّزت في القلب، انبعثت لها الجوارح.

فالقلب له قول وله عمل، واللسان له قول، والجوارح لها عمل؛ فالإيمان الذي ندعو إليه هو: قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح.

وأما الجوارح فأعمالها ظاهرة؛ كالصلاة، والركوع، والسجود، ونقل الأقدام إلىٰ الجمعة والجماعات، والصيام، والزكاة، والصدقات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلىٰ الخلق.

ثم ختم المصنِّف كتابه بالعودة إلىٰ آيات سورة الفاتحة؛ ليبيِّن أن العبد إذا قال في صلاته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، التزَمَ أحكام هذه المراتب الأربع، وأقرَّ بها، وإذا قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، طلَبَ الإعانة عليها.

وقولُهُ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، تضمينٌ للعبادة والاستعانة علىٰ التفصيل، وإلهام للقيامِ بهما وسلوك طريق السالكين إلىٰ الله؛ لأنه طريق المُنْعَم عليهم؛ فهكذا ختمه بهذه العبادة، وبما يكون وسيلةً إليها.

تم الكتاب بعون الله المَلِك الوهاب

والله أعلم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين



الفهارس العلمية

- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث النبوية والآثار.
- فهرس الأعلام المترجم لهم.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات والفوائد.



فهرس الآيات القرآنية

سورة الأعراف



فهرس الأحاديث النبوية والآثار

الحديث	الصفحة
آنتم الذين قلتم كذا وكذا؟!	٢٠٨
إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها	٢٣٤، ٢٣٥
إني خلقت عبادي حنفاء كلهم	١٣٧
أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بَنَوْا علىٰ قبره مسجدًا	٩٠
الإيمان بالقدر نظام التوحيد	١٧٩، ١٨١
تعس عبد الدينار	١١١
تعمل بطاعة الله علىٰ نور من الله... (التقوىٰ)	٢٤
تعوذوا بالله من جهد البلاء	٥٧
ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان	٢٥٢
الحجر الأسود يمين الله في الأرض	٨٨
الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات	١٤٩
الخلق عيال الله، وأحبهم إلىٰ الله أنفعهم لعياله	٢٠٥، ٢٠٦
رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها	١٩٧
سبقت رحمته غضبه	١٤٩
السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين	٩٢
الصلاة في أول وقتها -أفضل الأعمال-	٢١٧
الصلاة من الله: ثناؤه علىٰ عبده في الملأ الأعلىٰ	٢٥
عرف الحق لأهله	١٠٦، ١٠٩
عليكم ما تطيقون من الأعمال؛ فإن الله لا يمل حتىٰ تملوا	١٩٨
فأكثروا فيهنَّ من التهليل، والتكبير، والتحميد -العشر-	٢١٨
فإنها تطلع بين قرني شيطان	٩٥
فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر ليلة البدر علىٰ سائر الكواكب	٢٠٧
القدرية مجوس هذه الأمة	٨٢، ٨٣
قولوا: ما شاء الله، ثم شاء محمد	١٠١
كان الناس يسألون رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن الخير	١١٠
كان رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سُحِر	٥٤، ٥٦

فهرس الأعلام المترجم لهم

فهرس المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا: المصادر الأخرى:

١- الإبانة الكبرى، لأبي عبد الله بن بطة العُكْبَري، دار الراية، الرياض، تحقيق: جماعة من المحققين.

٢- ابن عربي: عقيدته، وموقف علماء المسلمين منه، لدغش بن شبيب العجمي، مكتبة أهل الأثر، الكويت، ط١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٣- أبي كما عرفته، هيا بنت عبد الله الجبرين، مدار الوطن، الرياض، ط٢، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م.

٤- إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، لأبي العباس، شهاب الدين البوصيري، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، تحقيق: دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف: ياسر بن إبراهيم.

٥- اتعاظ الحُنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، لتقي الدين المقريزي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، ود. محمد حلمي محمد أحمد.

٦- إحياء علوم الدين، لأبي حامد، محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة، بيروت.

٧- إخبار العلماء بأخبار الحكماء، لجمال الدين القِفْطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، تحقيف: إبراهيم شمس الدين.

٨- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، لأبي الوليد الأزرقي، دار الأندلس، بيروت، تحقيق: رشدي الصالح ملحس.

٩- الآداب الشرعية والمنح المرعية، لشمس الدين ابن مفلح المقدسي، عالم الكتب، بيروت.

١٠- الأدب المفرد، لأمير المؤمنين، أبي عبد الله، محمد بن إسماعيل البخاري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

١١- أربح البضاعة في معتقد أهل السنة والجماعة، جمع: علي بن سليمان آل يوسف، النجدي القصيمي، طبع على نفقة الشيخ علي بن عبد الله بن قاسم آل ثاني، ط٢، ١٣٧٩هـ، تصحيح وتعليق: الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع.

١٢- الأرجوزة الجامعة، لمحمد أحمد الحفظي، مطابع النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٣٨٩هـ.

١٣- الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة، لأبي بكر الخطيب البغدادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، تحقيق: د. عز الدين علي السيد.
١٤- الإصابة في تمييز الصحابة، لأبي الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المصري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض.
١٥- أصول اعتقاد أهل السنة، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، لأبي القاسم اللالكائي، دار طيبة، الرياض، ط٨، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي.
١٦- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
١٧- أعجوبة العصر، عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.
١٨- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم.
١٩- الأعلام، لخير الدين الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، ٢٠٠٢م.
٢٠- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، مكتبة المعارف، الرياض، تحقيق: محمد حامد الفقي.
٢١- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار عالم الكتب، بيروت، ط٧، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل.
٢٢- إنباء الغُمْر بأبناء العُمْر، لأبي الفضل، أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني، المصري الشافعي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م، تحقيق: د. حسن حبشي.
٢٣- البداية والنهاية، لأبي الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الدمشقي، دار هجر، مصر، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ومركز البحوث والدراسات بدار هجر.
٢٤- بدائع الفوائد، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٥- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت.
٢٦- البردة ، الكواكب الدرية في مدح خير البرين، لمحمد بن سعيد البوصيري، بشرح شيخ الإزهر: إبراهيم الباجوري، مكتبة الآداب، القاهرة، علق عليها: عبد الرحمن حسن محمود.

٢٧- بغية الطلب في تاريخ حلب، لكمال الدين ابن العديم، دار الفكر، بيروت، تحقيق: د. سهيل زكار.

٢٨- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٦هـ، تحقيق: مجموعة من المحققين.

٢٩- تاج العروس من جواهر القاموس، لمرتضى الزَّبيدي، دار الهداية، الكويت، تحقيق: د. عبد الستار فراج، ومجموعة من كبار المحققين.

٣٠- تاريخ ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، لعبد الرحمن بن خلدون الإشبيلي، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، تحقيق: خليل شحادة، راجعه: سهيل زكار.

٣١- تاريخ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر، محمد بن جرير الطبري، دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

٣٢- تاريخ بغداد، لأبي بكر، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

٣٣- تاريخ دمشق، لأبي القاسم ابن عساكر، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي.

٣٤- التحبير شرح التحرير، لعلاء الدين المَرْدَاوي، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، تحقيق: د. عبد الرحمن الجبرين، و د. عوض القرني، ود. أحمد السراح.

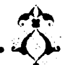
٣٥- تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، العِراقي، وابن السبكي، والزبيدي، استِخرَاج: أبي عبد الله مَحمُود بِن مُحَمّد الحَدّاد، دار العاصمة للنشر، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٣٦- التدمرية ، تحقيق الإثبات للأسماء والصفات، وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط٦، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، تحقيق: د. محمد بن عودة السعوي.

٣٧- تفسير ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٤٢٠ - ١٩٩٩م، تحقيق: سامي السلامة.

٣٨- تفسير البغوي ، معالم التنزيل، لمحيي السنة، الحسين بن مسعود البغوي، دار طيبة، الرياض، ط٤، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان الحرش.

٣٩- تفسير السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق.



٤٠- تفسير الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر، محمد بن جرير الطبري، دار هجر، مصر، ط١، ١٤٢٢هـ، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات بدار هجر.

٤١- تفسير القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش.

٤٢- التفسير القيم، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، جمعه مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ.

٤٣- تلبيس إبليس، لأبي الفرج، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٤٤- التمثيل والمحاضرة، لأبي منصور، عبد الملك بن محمد الثعالبي، الدار العربية للكتاب، تونس، ط٢، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م، تحقيق: د. عبد الفتاح الحلو.

٤٥- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر، يوسف بن عبدالبر النمري، وزارة الأوقاف المغربية، ١٣٨٧هـ، تحقيق: مجموعة من علماء المغرب.

٤٦- تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق، لشمس الدين، محمد بن عبد الهادي، أضواء السلف، الرياض، ط١، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م، تحقيق: سامي جاد الله، وعبد العزيز الخباني.

٤٧- تهذيب التهذيب، لأبي الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المصري الشافعي، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ط١، ١٣٢٦هـ.

٤٨- تهذيب السنن ، تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، مطبوع مع عون المعبود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ.

٤٩- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، لجمال الدين، أبي الحجاج، يوسف المِزيّ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، تحقيق: بشار عواد معروف.

٥٠- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، تحقيق: الشيخ زهير الشاويش.

٥١- ثلاثة الأصول وأدلتها - وشروط الصلاة - والقواعد الأربع، محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي، وزارة الشئون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١هـ.

٥٢- جامع بيان العلم وفضله، لأبي عمر، يوسف ابن عبدالبر النمري، دار ابن الجوزي، الدمام، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، تحقيق: الشيخ أبي الأشبال، حسن الزهيري.

٥٣- جزء فيه ستة مجالس من أمالي القاضي أبي يعلى الفراء، لأبي يعلى، محمد بن الحسين الفراء، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي.

٥٤- جِلَاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، دار العروبة، الكويت، ط٢، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط.

٥٥- الجنى الداني في حروف المعاني، لأبي محمد، بدر الدين المرادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م، تحقيق: فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل.

٥٦- الجهاد، لعبد الله بن المبارك، الدار التونسية، تونس، ١٩٧٢م، تحقيق: د. نزيه حماد.

٥٧- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار العاصمة، الرياض، السعودية، ط٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، تحقيق: علي بن حسن ناصر، وعبد العزيز بن إبراهيم العسكر، وحمدان بن محمد الحمدان.

٥٨- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، الداء والدواء، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٩هـ، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، خرج أحاديثه: زائد النشيري.

٥٩- الجوهرة الفريدة في تحقيق العقيدة، لحافظ أحمد الحكمي، دار الشريف، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، تحقيق: مريم طاهر مدخلي.

٦٠- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، لجلال الدين السيوطي، دار إحياء الكتب العربية -عيسى الحلبي- القاهرة، ط١، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

٦١- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني، دار السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٦٢- الحموية، الفتوى الحموية الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الصميعي، الرياض، ط٢، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، تحقيق: حمد التويجري.

٦٣- الحيوان، لأبي عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ.

٦٤- درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط٢، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، تحقيق: د. محمد رشاد سالم.

٦٥- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر، أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، تحقيق: عبد المعطي قلعجي.

٦٦- ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٦٧- ديوان أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم، جمعه وشرحه: الدكتور محمد التّونجي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٦٨- ديوان أبي فراس الحمداني، عُنِيَ بجمعه ونشره والتعليق عليه: سامي الدّهّان، بيروت، ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م.

٦٩- ديوان الإمام الشافعي، اعتناء: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٧٠- ديوان الخنساء، اعتنى به حمدو طمَّاس، دار المعرفة، بيروت، لبان، ط٢، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٧١- ديوان المتنبي، لأبي الطيب المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٧٢- ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد، لأبي الطيب، تقي الدين الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، تحقيق: كمال يوسف الحوت.

٧٣- الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٤- الروض المربع شرح زاد المستقنع، لمنصور بن يونس البُهوتي الحنبلي، ومعه: حاشية الشيخ العثيمين، وتعليقات الشيخ السعدي، دار المؤيد، الرياض، ومؤسسة الرسالة، بيروت، خرج أحاديثه الشيخ: عبد القدوس محمد نذير.

٧٥- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٧٦- زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.

٧٧- زاد المعاد في هدي خير العباد، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط٢٧، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط.

٧٨- الزهد الكبير، لأبي بكر، أحمد بن الحسين البيهقي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط٣، ١٩٩٦م، تحقيق: عامر أحمد حيدر.

٧٩- الزهد والرقائق، للإمام عبد الله بن المبارك، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.

٨٠- الزهد، للإمام أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين.

٨١- زهر الآداب وثمر الألباب، لأبي إسحاق القيرواني، دار الجيل، بيروت، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٨٢- السنة، لأبي بكر بن أبي عاصم الشيباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.

٨٣- السنة، لعبد الله بن أحمد بن حنبل، دار ابن القيم، الدمام، ط١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م، تحقيق: د. محمد بن سعيد القحطاني.

٨٤- سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله، محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، دار إحياء الكتب العربية، الحلبي، مصر، ١٣٧٢هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٨٥- سنن أبي داود، لأبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، مطبعة الحلبي، مصر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٨٦- سنن الترمذي، لأبي عيسى، محمد بن عيسى بن سَوْرَة الترمذي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، تحقيق: أحمد محمد شاكر، أكمل تحقيقه: محمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض.

٨٧- السنن الكبرى، لأبي بكر، أحمد بن الحسين البيهقي، مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الهند، ط١، ١٣٤٤هـ.

٨٨- سنن النسائي، لأبي عبد الرحمن، أحمد بن شعيب النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٦، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة.

٨٩- سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط.

٩٠- سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، لمحمد بن إسحاق بن يسار المُطَّلبي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، تحقيق: سهيل زكار.

٩١- سيرة ابن هشام، السيرة النبوية، لعبد الملك ابن هشام الحميري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م، تحقيق: مصطفى السقا، وآخرين.

٩٢- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبد الحي بن العماد، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، تحقيق: محمود الأرناؤوط، أشرف عليه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط.

٩٣- شرح السنة، لمحيي السنة، الحسين بن مسعود البغوي الشافعي، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وزهير الشاويش.

٩٤- شرح الكوكب المنير، لابن النجار الفتوحي الحنبلي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط٢، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، تحقيق: محمد الزحيلي، ونزيه حماد.

٩٥- شرح النووي على مسلم ، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لأبي زكريا، محيي الدين، يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

٩٦- شـرح مشـكل الآثـار، لأبـي جعفـر الطّحـاوي المصـري، مؤسسـة الرسـالة، بيـروت، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، تحقيـق: شـعيب الأرنـؤوط.

٩٧- الشـريعة، لأبـي بكـر الآجُـرِّيّ، دار الوطـن، الريـاض، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، تحقيـق: د. عبـد الله بـن عمـر الدميجـي.

٩٨- شـعب الإيمـان، لأبـي بكـر، أحمـد بـن الحسـين البيهقـي، مكتبـة الرشـد، الريـاض، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، تحقيـق: عبدالعلـي عبـد الحميـد حامـد.

٩٩- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

١٠٠- شـمس العلـوم ودواء كلام العـرب مـن الكلـوم، لنشـوان بـن سـعيد الحميـري اليمنـي، دار الفكـر المعاصـر، بيـروت، ودار الفكـر، دمشـق، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، تحقيـق: د. حسـين العمـري، وآخريـن.

١٠١- الشهادتان، للشيخ عبد الله الجبرين، وزارة الشؤون الإسلامية، الرياض، ١٤١٠هـ.

١٠٢- صحيـح ابـن حبـان، لأبـي حاتـم ابـن حبـان البُسـتي، بترتيـب الأميـر ابـن بلبـان الفارسـي، مؤسسـة الرسـالة، بيـروت، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، تحقيـق: شـعيب الأرنـؤوط.

١٠٣- صحيح ابن خزيمة، لأبي بكر، محمد بن إسحاق بن خزيمة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، حكم على الأحاديث: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

١٠٤- صحيح البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسُننه وأيامه، لأمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٠هـ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

١٠٥- صحيح مسلم، لأبي الحسين، مسلم بن الحجاج القُشيري النيسابوري، مطبعة الحلبي، مصر ١٩٥٥م، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

١٠٦- صريـح السـنة، لأبـي جعفـر، محمـد بـن جريـر الطبري، دار الخلفـاء للكتـاب الإسـلامي، الكويـت، ط١، ١٤٠٥هـ تحقيـق: بـدر يوسـف المعتـوق.

١٠٧- الصفدية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، مصر، ط٢، ١٤٠٦، تحقيق: د. محمد رشاد سالم.

١٠٨- الصواعـق المرسـلة في الـرد علـى الجهميـة والمعطلـة، لشـمس الديـن ابـن قيـم الجوزيـة، دار العاصمـة، الريـاض، ط١، ١٤٠٨هـ تحقيـق: علـي بـن محمـد الدخيـل الله.

١٠٩- صيد الخاطر، لأبي الفرج، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، بعناية: حسن السماحي سويدان.

١١٠- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لشمس الدين السخاوي، مكتبة الحياة، بيروت.
١١١- طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، دار هجر، مصر، ط٢، ١٤١٣هـ، تحقيق: د. محمود الطناحي، ود. عبد الفتاح الحلو.
١١٢- الطبقات الكبرى ، لوافح الأنوار في طبقات الأخيار، لعبد الوهاب بن أحمد الشَّعْراني، مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر، ١٣١٥هـ.
١١٣- طبقات المفسرين للداوودي، لشمس الدين الداوودي، دار الكتب العلمية، بيروت، راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر.
١١٤- طريق الهجرتين وباب السعادتين، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، الدار السلفية، القاهرة، ط٢، ١٣٩٤هـ.
١١٥- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ومكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ط٣، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
١١٦- العزلة والانفراد، لأبي بكر ابن أبي الدنيا، مكتبة الفرقان، القاهرة، تحقيق: مسعد عبد الحميد السعدني.
١١٧- العزلة، لأبي سليمان، حمد بن محمد الخطابي، المطبعة السلفية، القاهرة، ط٢، ١٣٩٩هـ.
١١٨- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، لأبي الفرج، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، باكستان، ط٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، تحقيق: إرشاد الحق الأثري.
١١٩- العلل للدارقطني ، العلل الواردة في الأحاديث النبوية، لأبي الحسن، علي بن عمر الدارقطني، دار طيبة، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، تحقيق: محفوظ الرحمن السلفي.
١٢٠- عون المعبود شرح سنن أبي داود، للعظيم آبادي، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ.
١٢١- غاية المرام في علم الكلام، لأبي الحسن الآمدي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، تحقيق: حسن محمود عبد اللطيف.
١٢٢- غريب الحديث، لأبي عُبيد القاسم بن سلام الهروي، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ط١، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان.
١٢٣- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأبي الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المصري الشافعي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
١٢٤- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لزين الدين ابن رجب الحنبلي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، تحقيق: محمود شعبان عبد المقصود، وآخرين.

١٢٥- فتح القدير، لمحمد بن علي الشوكاني اليمني، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

١٢٦- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ط٧، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م، تحقيق: محمد حامد الفقي.

١٢٧- الفروق اللغوية، لأبي هلال، الحسن بن عبد الله العسكري، دار العلم والثقافة، القاهرة، تحقيق: محمد إبراهيم سليم.

١٢٨- الفصل في الملل والأهواء والنحل، لأبي محمد، علي بن حزم الظاهري الأندلسي، مكتبة الخانجي، القاهرة.

١٢٩- فضل الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم، للقاضي إسماعيل بن إسحاق الجهضمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٣٩٧هـ، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.

١٣٠- فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٧٣- ١٩٧٤م، تحقيق: إحسان عباس.

١٣١- الفوائد، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

١٣٢- فيض القدير شرح الجامع الصغير، لزين الدين، عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

١٣٣- قاعدة في المحبة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، تحقيق: د. محمد رشاد سالم.

١٣٤- القاموس المحيط، لمجد الدين، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، تحقيق: نعيم العرقسوسي، وآخرين.

١٣٥- قدم العالم وتسلسل الحوادث بين شيخ الإسلام ابن تيمية والفلاسفة، مع بيان من أخطأ في المسألة من السابقين والمعاصرين، لكاملة بنت محمد الكواري، راجعه: الشيخ سفر الحوالي، دار أسامة، عمّان، ط١، ٢٠٠١م.

١٣٦- القصيدة النونية، (الكافية الشافية)، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤١٧هـ.

١٣٧- القضاء والقدر، لأبي بكر، أحمد بن الحسين البيهقي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، تحقيق: محمد بن عبد الله آل عامر.

١٣٨- القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن الجوزي، الدمام، اعتنى به: خالد بن عثمان السبت.

١٣٩- القول السديد شرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، ط٢، ١٤٢١هـ.

١٤٠- القول الصريح عن حقيقة الضريح، لمحمود المراكبي، مطابع الأهرام، القاهرة، ٢٠٠٤م.

١٤١- الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس، محمد بن يزيد المُبَرّد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م، محمد أبو الفضل إبراهيم.

١٤٢- كتاب التوحيد، محمد بن عبد الوهاب، الرئاسة العامة للإفتاء، السعودية، الرياض، ط٢، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

١٤٣- كتاب القدر، لأبي بكر، جعفر بن محمد الفِرْيابِي، أضواء السلف، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، تحقيق: عبد الله بن حمد المنصور.

١٤٤- الكتاب، لسيبويه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، تحقيق: عبد السلام محمد هارون.

١٤٥- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، لإسماعيل بن محمد العجلوني، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥١ هـ.

١٤٦- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، لأبي إسحاق الثعلبي، دار التفسير، جدة، ط١، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، تحقيق مجموعة من الباحثين.

١٤٧- الكليات -معجم في المصطلحات والفروق اللغوية- لأبي البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري.

١٤٨- اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، لجلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م، تحقيق: صلاح عويضة.

١٤٩- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

١٥٠- لسان الميزان، لأبي الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المصري الشافعي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٢، ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م، تحقيق: دائرة المعارف النظامية، الهند.

١٥١- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، لابن رجب الحنبلي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

١٥٢- المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر، أحمد بن مروان الدينوري، جمعية التربية الإسلامية، البحرين، ودار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ، تحقيق: مشهور حسن سلمان.

١٥٣- المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، لأبي حاتم ابن حبان البستي، دار الوعي، حلب، ط١، ١٣٩٦هـ، تحقيق: محمود إبراهيم زايد.

١٥٤- مجموع الفتاوى، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة، لشيخ الإسلام ابن تيميّة الحراني، جمع وتحقيق: عبد الرحمن بن قاسم النجدي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

١٥٥- المجموع شرح المهذب، لمحيي الدين، أبي زكريا، يحيى بن شرف النووي، دار الفكر، بيروت، تحقيق: الشيخ محمد نجيب المطيعي.
١٥٦- المخصص، لابن سِيْدَه، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، تحقيق: خليل إبراهيم جفال.
١٥٧- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي.
١٥٨- المدوَّنة الكبرى، لإمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي، برواية سُحنون عن ابن القاسم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
١٥٩- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
١٦٠- مسند أبي داود الطيالسي، لأبي داود، سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي، دار هجر، مصر، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، تحقيق: محمد بن عبد المحسن التركي.
١٦١- مسند أبي يعلى، لأبي يعلى، أحمد بن علي بن المثنى الموصلي، دار المأمون، دمشق، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، تحقيق حسين سليم أسد.
١٦٢- مسند أحمد، لإمام أهل السنة، أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين.
١٦٣- مسند البزار ، البحر الزخار، لأبي بكر البزار، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٩٨٨م- ٢٠٠٩م، تحقيق: محفوظ الرحمن، وآخرين.
١٦٤- مسند الحميدي، لأبي بكر، عبد الله بن الزبير الحميدي، دار السقا، دمشق، ط١، ١٩٩٦هـ تحقيق: حسين سليم أسد الداراني.
١٦٥- مسند الشهاب، لأبي عبد الله القضاعي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.
١٦٦- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.
١٦٧- المصنف، لأبي بكر، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.
١٦٨- المصنف، لأبي بكر، عبد الله بن أبي شيبة العبسي، دار القبلة، جدة، ومؤسسة علوم القرآن، دمشق- بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ، تحقيق: محمد عوَّامة.
١٦٩- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، لأبي الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المصري الشافعي، دار العاصمة، ودار الغيث، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ، تحقيق: مجموعة من المحققين.

١٧٠- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، لحافظ الحكمي، دار ابن القيم، الدمام، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، تحقيق: عمر بن محمود.
١٧١- المعجم الأوسط، لأبي القاسم، لسليمان بن أيوب الطبراني، دار الحرمين، القاهرة، تحقيق: طارق عوض الله، وعبد المحسن الحسيني.
١٧٢- معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.
١٧٣- المعجم الكبير، لأبي القاسم، سليمان بن أيوب الطبراني، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.
١٧٤- معجم المؤلفين، لعمر رضا كَحَّالَة، مكتبة المثنى، بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٧٥- معرفة السنن والآثار، لأبي بكر، أحمد بن الحسين البيهقي، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي- باكستان، ودار قتيبة، دمشق -بيروت، ودار الوعي، حلب- القاهرة، ودار الوفاء، المنصورة- القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي.
١٧٦- معرفة الصحابة، لأبي نعيم الأصبهاني، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي.
١٧٧- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٩٨٥م، تحقيق: مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله.
١٧٨- المغني شرح مختصر الخِرَقِي، لأبي محمد، موفق الدين ابن قدامة المقدسي، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
١٧٩- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٨٠- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، لشمس الدين السخاوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، تحقيق: محمد عثمان الخشت.
١٨١- مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، لأبي بكر الخرائطي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، تحقيق: أيمن عبدالجابر البحيري.
١٨٢- الملل والنحل، لأبي الفتح الشهرستاني، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م.
١٨٣- المنار المنيف في الصحيح والضعيف، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط١، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة.
١٨٤- مناقب الشافعي، لأبي بكر، أحمد بن الحسين البيهقي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، تحقيق: السيد أحمد صقر.

١٨٥- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لأبي الفرج، عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا.

١٨٦- المنثور في القواعد الفقهية، لبدر الدين الزركشي، وزارة الأوقاف الكويتية، ط٢، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، تحقيق: تيسير فائق، راجعه: د. عبد الستار أبو غدة.

١٨٧- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م، تحقيق: د. محمد رشاد سالم.

١٨٨- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، لأبي المحاسن، يوسف بن تغري بردي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، تحقيق: د. محمد محمد أمين.

١٨٩- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، لتقي الدين المقريزي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

١٩٠- الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

١٩١- الموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، للندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط٤، ١٤٢٠ هـ.

١٩٢- الموطأ، لإمام دار الهجرة: مالك بن أنس الأصبحي المدني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

١٩٣- نتائج الأفكارفي تخريج أحاديث الأذكار، لأبي الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المصري الشافعي، دار ابن كثير، دمشق، ط٢، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.

١٩٤- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لأبي المحاسن، يوسف بن تغري بردي، دار الكتب المصرية، القاهرة.

١٩٥- نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر، لأبي الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المصري الشافعي، مطبعة الصباح، دمشق، ط٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، تحقيق: نور الدين عتر.

١٩٦- النظائر، لبكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ.

١٩٧- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.



١٩٨- النهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السعادات، مجد الدين ابن الأثير، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي.
١٩٩- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، لمحمد بن علي الشوكاني اليمني، دار الحديث، مصر، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، تحقيق: عصام الدين الصبابطي.
٢٠٠- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، لشمس الدين ابن قيم الجوزية، دار القلم، ودار الشامية، جدة، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، تحقيق: محمد أحمد الحاج.
٢٠١- هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، لإسماعيل باشا البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٠٢- الوافي بالوَفَيَات، لخليل بن أيبك الصفدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى.
٢٠٣- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لشمس الدين ابن خلكان، دار صادر، بيروت، تحقيق: إحسان عباس.



فهرس الموضوعات والفوائد

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

